رجاء النقاش

الموت في قميص النوم

أوراق فلسطينية في السياسة والأدب والفن



الموت في قميص النوم

رجاء النقّاش



اسـم الكتـاب: الموت في قـمـيص الـنـوم.

الـمـؤلـف: رجـــاء النـقـــاش.

إشـراف عـام: دالـيـا مـحـمـد إبـراهـيـم.

تـاريـخ النشـر: الـطـبـعـة الأولـى ـ يـنـايـر 2009م.

رقـم الإيـداع: 2007 / 15265

الترقيم الـدولي: ISBN 977-14-3912-X

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس: 33462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ السادس من أكتوبر
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) ـ فـاكـس: 38330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي ـ الفجالة ـ القاهرة ـ ص. ب : 96 الفجالة ـ القاهرة.
ت: 25909827 (02) - 25908895 (02) ـ فـاكـس: 25903395 (02)

مركز خدمة العملاء: (02) 25909827
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي ـ متفرع من شارع عبد السلام عارف ـ مدينة السلام
ت: 2221866 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

شكر خاص

أقدم خالص الشكر والامتنان للأخ الكريم فكري النقاش، والابن العزيز سيف الدين حمدان؛ لمساندتهما لي وتقديم كل الجهد للقيام بواجبنا نحو إعداد إنتاج رجاء النقاش الأخير للنشر، والذي لم تمهله الأيام لإتمام هذه المهمة وتركها أمانة بين أيدينا.

كما أتوجه بشكر خاص للطبيب المثقف دمث الخلق الكاتب الأستاذ عاطف سليمان، مستشار دار نشر نهضة مصر، الذي كانت محبته وتقديره لرجاء النقاش سببًا في أول تعامل لرجاء مع الدار، وإن كان ذلك قد جاء بعد رحيله.

الدكتورة هانية عمر

مقدمة

رجـاء النقـاش

وأوراق فلسطينيـــة

«يحمل رجاء في قلبه الفجيعة دائمًا، ولكنه لا يبكي ولا يعلن بطلان الكل ولا يخاف.. إن الفجيعة في قلبه تصبح حياة ومحبة وشهوة لإصلاح العالم».

هذه كلمات للشاعر الكبير والصديق الحميم صلاح عبد الصبور ـ رحمه الله ـ، وهذه الصفة التي وضع صلاح عبد الصبور يده عليها بذكائه وحسه المرهف هي صفة لازمت رجاء النقاش حتى آخر يوم في حياته.

والفجيعة التي حركت قلم رجاء لكي يسطر كلمات هذا الكتاب ليصنع الأمل ويحلم بالمستقبل، هي فجيعة في قلب كل عربي، وهي جرح نازف في جسده اعترف بذلك أو تناساه، هي ـ كما جاء في هذا الكتاب ـ: «أكبر مأساة عرفها القرن العشرون، بل ربما كانت إحدى المآسي الكبرى القليلة التي عرفها التاريخ الإنساني كله بهذه الصورة المثيرة للألم والدهشة، فقد جاءت مجموعات متفرقة من البشر من شتى أنحاء العالم ليطردوا شعب فلسطين ويحلوا محله.. ورغم أننا في العالم العربي قد تعودنا على هذه المأساة فأصبحت وكأنها أمر طبيعي يستطيع الإنسان أن يتعايش معه ويراه واقعًا أمامه.. إلا أن أي تفكير هادئ في فصولها العجيبة يثير أشد الدهشة، ويستفز العقل والمشاعر الإنسانية، ويدفعنا إلى سؤال حائر هو: كيف حدث هذا؟، وكيف تقبل العالم أن تقع مثل هذه الكارثة ضد شعب بأكمله؟ وسوف نجد في الإجابة عن هذا السؤال الاستنكاري ما هو أشد منه هولاً، فأقوياء العالم قد وقفوا إلى جانب هذا الوضع غير المعقول وساندوه ولا يزالون يساندونه إلى الآن».

وقد حاول رجاء أن يلقي الضوء على هذه المأساة من زوايا مختلفة من خلال فصول هذا الكتاب التي نشرت في بعض الصحف والمجلات في الفترة بين عامي 1991 و2001، وهي الفترة التي نُكئت فيها جراح العرب مجددًا وبشدة بدءًا بحرب الخليج الأولى وحتى انتفاضة الأقصى وإلى أن أصبحت مقاومة الاحتلال المشروعة إرهابًا وتم الخلط بين «الشهداء» و«المنتحرين»، وأصبح إرهاب الدول العظمى لتحقيق مصالحها واستغلال الآخرين هو عمل فاضل من أجل نشر العدالة والديمقراطية في العالم.

في هذه الفترة، وتحت وطأة هذه المشاعر، كتب رجاء النقاش هذه الفصول الممتعة بأسلوبه السهل العميق الممتع، وشخصيته الباحثة دائمًا عن الحب والخير والعدل والجمال، رغم الوعي الكامل والإدراك لحجم الشر في الحياة.

وقد اختار رجاء لهذا الكتاب عنوانًا قد يبدو بعيدًا عن مضمونه وهو: «الموت في قميص النوم»، وهو عنوان الفصل الأول من هذا الكتاب، وهذا الفصل من أعذب وأقسى فصول هذا الكتاب، وهو يقدم واحدة من أروع صور البطولة المجهولة التي يقدمها الشعب الفلسطيني في نضاله ضد الكارثة التي حاقت به، قصة المُدرسة الشابة «حياة بلابسي» بنت مدينة القدس، واحدة من بسطاء وفقراء الشعب التي اضطرت أن تعمل في قرية دير ياسين، وكانت تعمل كمدرسة إضافية في مدرسة ابتدائية، كما كانت تقوم ببعض أعمال التمريض أيضًا. وقد كان قدرها أن تكون إحدى ضحايا المذبحة الشهيرة بمذبحة دير ياسين، التي حدثت حينما هاجم ألفان من اليهود المسلحين أهل القرية وهم نيام وكان عددهم أربعمائة فقتلوا منهم ثلاثمائة وستين ونجا أربعون، وقد أوشكت «حياة بلابسي» أن تكون من الناجين ولكنها سقطت شهيدة برصاص اليهود وهي تحاول إنقاذ جريحين من ضحايا المذبحة، «وكانت في قميص النوم».

واختار رجاء عنوانًا فرعيًا آخر هو «أوراق فلسطينية في السياسة والأدب والفن»، وإن كنا حين نتابع فصوله المختلفة لا نستطيع أن نضع حدًا فاصلاً بين ما هو سياسة وما هو أدب وفن؛ لأن الكاتب في الحقيقة لا يرى انفصالاً بين السياسة من ناحية والأدب والفن من ناحية أخرى، فالسياسة والأدب والفن عند رجاء النقاش يلتقون جميعًا في «محاولة التفكير في مشاكل الإنسان والمجتمع والرغبة في تغيير الحياة إلى الأفضل». وقد يبدأ بالكلام عن السياسة فيصل به إلى الأدب والفن، أو يبدأ بالحديث عن أديب أو شاعر فيقوده ذلك الحديث إلى أحوال المجتمع وأمور السياسة.

وما بين السياسة والأدب والفن والتاريخ والرؤية المستقبلية والرأي، تتداخل الأنغام في هذا الكتاب، وتنفصل في عزف شجيّ على أوتار من الشجن تُطرب القلب وتغذي العقل وتنعش الذاكرة وتحرك المشاعر وتطلق الهمم.

ونغمة الشجن العالية في هذا الكتاب لم تمنع ولم تعطل الكاتب عن تقديم خلفية تاريخية وسياسية مستفيضة عن المأساة الفلسطينية، وجاء تقديمه هذا في معظم فصول الكتاب من خلال تناوله لشخصيات فلسطينية، زعماء وسياسيين ومناضلين وأدباء وشعراء، وأيضًا من خلال تقديمه لبعض الشخصيات المهمة في تاريخ الحركة الصهيونية.

وللشعر في قلب رجاء النقاش مكان خاص أكثر من أي إبداع أدبي وفني آخر ولذلك يقول: «عندما تنزف جراح الفلسطينيين بقسوة وعنف أجد نفسي مثل المريض المصاب بالسير أثناء النوم، فأنا أتجه على الفور ودون تفكير أو تدبير إلى الشعراء الفلسطينيين الذين أحبهم سميح القاسم ومحمود درويش وفدوى طوقان، بل أتجه أبعد من ذلك إلى أشعار إبراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود من شعراء الجيل الفلسطيني السابق.. فأنا لا أستغني عن قراءة أشعارهم في الصباح والمساء، وأحلم بهم وأنا نائم بل أحلم بهم وأنا يقظان».

وقد قدم رجاء فصولاً شيقة عن هؤلاء الشعراء:

عن «أبو سلمى» الشاعر العاشق الجميل الذي أطارته إسرائيل بقيامها، من عشه الهادئ وأحلامه العذبة فـ«تحوَّل من عاشق إلى مجاهد».

وإبراهيم طوقان الذي أسماه بـ«أمير شعراء فلسطين»، وقال عنه من باب النقد الأدبي «شاعر فيه كل العيوب لكنه يهز القلوب»!

وعن الشاعرة فدوى طوقان ومعركتها المزدوجة ضد المجتمع العربي في فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، بما فيه من تخلف وجمود، وضد المؤامرة الصهيونية والاحتلال الإسرائيلي للوطن.

وفي أربعة فصول عن محمود درويش العاشق الفلسطيني المحبوب الذي عاش ومات بجرح النفي والاغتراب، يتألق رجاء النقاش كناقد أدبي قدير يسلمنا كل المفاتيح لقراءة شعر درويش في مراحله الجديدة من خلال قراءته لديوان «سرير الغريبة».

ويُنهي رجاء النقاش كتابه بفصل عن شارون جعله يئن قائلاً: «ليس بالقليل أن تسهر الليالي في دراسة شخصية كريهة خالية من أي جمال إنساني أو أي عنصر مضيء من عناصر الحضارة والأخلاق والثقافة النبيلة».

وحين ننتهي من قراءة هذا الكتاب نجد أن كلماته قد حَفَرت في القلب وفي الوجدان صورة لفلسطين، بلحمها وشحمها، بطينها وأشجار زيتونها وبرتقالها، بشهدائها وشعرائها، بمناضليها ومفكريها، برجالها ونسائها وشيوخها وأطفالها، صورة لا يمحوها نصف قرن ولا قرن من زمان الاحتلال، ولا ما زاد عن ذلك أو نقص، صورة لفلسطين التي قال عنها الشاعر العاشق محمود درويش:

أمُّ البدايات

أمُّ النهايات

كانت تُسمى فلسطين

صارت تُسمى فلسطين

وقد «تكون الهزيمة.. انتصارًا مؤجلاً وقويًا وقادمًا على الطريق» كما قال رجاء النقاش.

وقبل أن أوقع على ما كتبته، أقول لعلها المرة الأولى التي تكتب فيها قارئة مقدمة كتاب لكاتب كبير، ولكنها قارئة ومُحبة ورفيقة عمر، وقد أهداها رجاء النقاش كتابين من كتبه هما «ثلاثون عامًا مع الشعر والشعراء» و«في حب نجيب محفوظ»، وأنا أهدي إليه هذه المقدمة وهو في مثواه الأخير، أهديها إلى روحه التي لن تغادرنا إلى أن يكتب الله لنا اللقاء.

هانية عمر

قرينة الكاتب الراحل رجاء النقاش

2008/10/8



الموت في قميص النوم

من عجائب الحياة أنها كثيرًا ما تضع أمام عيوننا صورة قوية جدًا للنبل والعظمة والقدرة على الاحتمال في الإنسان، وفي مقابل هذه الصورة المشرقة تقدم لنا الحياة في نفس اللحظة صورة مقابلة لانحطاط الإنسان وتوحشه عندما تأخذه العزة بالإثم فيلوث يديه بدماء الآخرين، ويعمل ذلك وهو شديد الفرح والنشوة كأنه في عرس من الأعراس، أو في ليلة من الليالي الملاح. والعجيب في هذا الأمر أنه ما من نبل إنساني إلا ويكون إلى جانبه في نفس اللحظة انحطاط، فعندما يسقط شهيد من الشهداء يكون هذا الشهيد تعبيرًا عما في الحياة من جمال وسمو. وفي اللحظة التي يسقط فيها الشهيد تكون هناك يد آثمة قتلت هذا الشهيد وحرمته من نعمة الوجود وفرقت بينه وبين أهله وأحبابه. فالشهيد هو جمال الوجود وقاتل الشهيد هو قبح الوجود. والجمال والقبح يظهران على مسرح الحياة في لحظة واحدة، وكأنهما توأمان خرجا إلى الدنيا في نفس التوقيت.

عجيبة هي الحياة، فجمالها لا ينفصل عما فيها من شر وسوء؛ ولذلك فإننا نشعر في أعماقنا بأن الحياة لا تمضي في طرق سهلة مستقيمة. بل تقوم الحياة على الصراع في كل لحظة وبصورة مستمرة وإن كنا أحيانًا لا نحس بذلك ولا نلتفت إليه.. فكل إنسان له عدو داخل نفسه أو خارجها، وعليه أن يحارب هذا العدو الظاهر أو الخفي، وأول ما يلقاه الجميل في هذه الدنيا هو نقيضه الذي يعاديه. فجمال الإنسان والحياة هما خرب على الذين يكرهون الإنسان ويكرهون الحياة.. وليس في الدنيا هدايا بلا مقابل، فكل

ما هو خير لابد أن يصارع ـ بإرادته أو بغير إرادته ـ أعداء الخير الذين يظهرون في نفس اللحظة التي يظهر فيها الخير، فالصراع أمر لا مفر منه حتى لو كنا فيه غير راغبين.

والمقياس السائد بين الناس جميعًا هو أن الذي ينتصر في الصراع هو الناجح بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، على حد التعبير الجامعي الشائع، أما المهزوم في الصراع فله منا قراءة الفاتحة على روحه، والإشفاق عليه والانصراف بعد ذلك إلى حياتنا العادية.

ولكننا لو صبرنا على أنفسنا قليلاً، وتأملنا الأمور بشيء من الحكمة والتعقل فسوف نجد أن بعض الانتصار مهما يكن كبيرًا هو دليل على تفاهة أصحابه وقلة شأنهم، بينما تكون الهزيمة كريمة ومرفوعة الرأس، وتكون هذه الهزيمة إعلانًا قويًا بأن الصراع مستمر، وأن الحياة ـ بسبب هذه الهزيمة ـ قد أقسمت أمام ربها على أن تثأر وتنتقم.

وببساطة فقد يكون الانتصار هو الهزيمة الحقيقية، وتكون الهزيمة هي انتصارًا مؤجلاً وقويًا وقادمًا على الطريق.

وأترك هذه الخواطر النظرية حتى لا تقودنا إلى عالم من الضباب الغامض الذي تصعب معه الرؤية الصحيحة، وأقترب من المعني الواضح المجسد للهزيمة الساحقة التي هي في جوهرها انتصار مرفوع الرأس، في مقابل الانتصار الكبير الذي هو في جوهره أيضًا هزيمة رخيصة يبصق عليها الإنسان كما يبصق على شيء تافه كريه.

هل تعرفون فتاة اسمها «حياة بلابسي»؟ هل قرأ الفنانون الموهوبون الذين يكتبون للتليفزيون أو للسينما والمسرح أو يبدعون الروايات والأشعار.. هل قرأ هؤلاء شيئًا عن هذه المرأة المجهولة والتي اسمها «حياة بلابسي»؟ أظن أنهم لم يقرأوا شيئًا عنها، وإلا لتفجرت مواهبهم وجعلوا من قصتها الرائعة الأليمة نبعًا يفيض بالفن الغزير.

أنا نفسي لم أكن أعرف عنها شيئًا. فلا هي بطلة من أبطال التاريخ، ولا هي نجمة سينما، ولا عارضة أزياء، ولا سيدة مجتمع لامعة. ولكنها أصبحت بعد أن عرفت

قصتها أهم عندي من هؤلاء جميعًا، وهي عند الله أكرم وأعلي وأرفع شأنًا من كل أعدائها الأشداء الذين جعلوا من حياتها مأساة أليمة.

إن «حياة» تمثل البطولة العادية التي ليس عليها أضواء، ولم تسع هي أبدًا إلى الأضواء، ولكنها حاولت ـ فقط ـ أن تؤدي واجبها، كلما دعاها هذا الواجب إلى القيام به.. وكانت لا تتردد أبدًا أمام الواجب.

وإذا كانت مهمة التاريخ أن يسجل حياة الأبطال المشهورين، فإن مهمة الفن العظيمة هي أن يقف أمام الأبطال المجهولين الذين لم يسعوا إلى البطولة ولم يفكروا فيها.

ولذلك فالفن ـ عندنا ـ مدين لهذه البطلة المجهولة، المهزومة المنتصرة، بنت مدينة القدس «حياة بلابسي».

عرفت قصتها الموجعة مما كتبه عنها أديب من أنبغ أدباء فلسطين في الجيل الماضي وهو «نجاتي صدقي» وهو أيضًا من أبناء القدس، وله على الأدب العربي فضل كبير؛ إذ إنه كان أول من يترجم الأدب الروسي إلى اللغة العربية، وهو «الأول» لأنه كان يترجم عن الروسية وليس عن لغة أخرى، وله كتابان صغيران جميلان عن «تشيكوف» و«تولستوي» ظهرا في سلسلة «اقرأ» في الأربعينيات، ولعل صديقنا الكبير الأستاذ رجب البنا رئيس مجلس إدارة دار المعارف ورئيس تحرير سلسلة «اقرأ» يعيد طبعهما الآن، فنفعهما للثقافة ومحبي الأدب كبير.

كتب نجاتي صدقي قصة «حياة بلابسي» ولولاه لما عرف أحد قصتها، ولضاعت هذه القصة في زحمة الأحداث كما شاع غيرها من آلاف القصص التي تشبهها، وأنا أعتمد على ما كتبه «نجاتي صدقي» في إعادة قصة «حياة بلابسي» إلى الذاكرة الآن لما فيها من مغزى وما لها من قيمة، ليس في تاريخ النضال الوطني فقط، ولكن في تاريخ الكفاح الإنساني الشاق من أجل حياة نظيفة وكريمة، حتى لو كانت الظروف صعبة وقاسية.

يقول نجاتي صدقي: «بعد مذبحة دير ياسين في فلسطين في 10 إبريل سنة 1948، عثر رجال الهلال الأحمر على جثة فتاة في قميص النوم ملقاة بالقرب من طريق فرعية مؤدية إلى قرية «دير ياسين» فتعرف عليها بعضهم فإذا هي المدرسة «حياة بلابسي»».

ثم يروي الكاتب الفاضل قصة «حياة» كما عرفها فيقول: في عصر أحد أيام يناير سنة 1948، وكان الثلج يتساقط بكثرة في القدس، والرياح الباردة العاتية تعصف بشدة، دخلت عليَّ مكتبي بإذاعة القدس العربية حيث كنت أعمل ـ «حياة بلابسي» ـ وقد تدثرت بمعطف بسيط، ولفت رأسها بمنديل من الصوف، كان مرصعًا بقطع صغيرة من الثلج، فظهرت وكأنها إكليل من زهر الليمون، رمز العفة والطهارة.. وفي هذه المقابلة عرفت منها مأساتها، فقد فقدت أباها منذ زمن غير بعيد، ووالدتها كسيحة طريحة الفراش، وأختها صغيرة غير قادرة على العمل، فوقع على عاتقها عبء الاعتناء بوالدتها وأختها، والقيام بجميع شئون البيت، والعمل في الوقت ذاته على كسب المعاش؛ إذ لا مورد لأسرتها تعيش منه، كما أن والدها لم يترك أيَّ مبلغ من المال، أو أيَّ نوع من العقار.

وهكذا رأت حياة نفسها مضطرة إلى ترك المدرسة قبل أن تحصل على الثانوية، وأن تسعى إلى العمل كمدرسة إضافية في مدرسة ابتدائية، فقيل لها في دائرة المعارف: ليس بوسعنا أن نجد لك مكانًا شاغرًا في القدس، ولكننا نحتاج إلى معلمة إضافية لقرية «دير ياسين» فقبلت «حياة» العمل مقابل راتب شهري قدره ثمانية جنيهات. وقرية «دير ياسين» تقع إلى الغرب من «القدس» وعلى بعد عشرة كيلومترات منها. وطرق المواصلات إليها غير متوافرة، فكانت حياة تضطر للذهاب اليها والعودة منها سيرًا على قدميها، فتترك القدس في الساعة السادسة صباحًا، مجتازة في طريقها بعض أحياء القدس اليهودية، ثم تمر بواد وعر إلى أن تصل إلى قرية «دير ياسين». هذا هو طريق الآلام الذي كانت تعبره «حياة» مرتين في اليوم. صيفًا وشتاءً.

أي أنها كانت تقطع على قدميها عشرين كيلومترًا كل يوم. وهي مع أنها صبية جريئة كانت تشعر أحيانًا برهبة عند مرورها في الوادي، فتخشى أمرًا لا تعرف كنهه، فتنتظر بعض الوقت إلى أن تمر بها القرويات الذاهبات إلى القرية أو العائدات منها فترافقهن. إلا أن هذه الخشية أخذت تتلاشى قليلاً فقليلاً، وصارت «حياة» تعبر الوادي بمفردها وهي تلقي التحية على الفلاحين والرعاة، فيجيبونها مرحبين بها، مستفسرين منها عن أولادهم ومقدار تقدمهم ونجاحهم في دروسهم، سائلين الله أن يكلأ «حياة» بعين رعايته وعنايته، ولم تقصر «حياة» عملها في القرية على التعليم، وإنما كانت تعمل في فترات من النهار ممرضة أيضًا، فتمرض من هو بحاجة إلى الإسعاف الأولى بمختلف الأدوية، وتزور المرضى في أكواخهم، وإذا رأت أن فيهم من تتطلب حالته دخوله المستشفى اتصلت على الفور بدائرة الصحة في القدس، أو ذهبت بنفسها إلى تلك الدائرة عند عودتها إلى بيتها. وما إن أتمت «حياة» السنة الأولى من عملها في «دير ياسين» حتى أصبحت معشوقة سكانها، يترادف اسمها مع التربية والطهارة والوطنية الصحيحة. وفي ذات يوم عادت «حياة» إلى بيتها في القدس فوجدت أمها قد فارقت الحياة، فتحملت الصدمة بقلب قوي، ولم تنهزم أمام صروف الدهر القاسية، وثابرت على عملها في «دير ياسين» بما كانت مطبوعة عليه من عزيمة وثبات، وكان مرتبها في هذه الأثناء قد زاد من ثمانية جنيهات إلى عشرة جنيهات».

وتتابعت المشاهد المؤثرة في رحلة «حياة» كان عليها بعد موت أمها أن تختار أحد أمرين: «إما أن تقبع في بيتها تنتظر حظها من الزواج، وإما أن تسكن قرية «دير ياسين» لتتابع كفاحها في سبيل الصحة والتعليم، ولم تتردد «حياة» فحملت بعض أمتعتها ورحلت إلى القرية، وسكنت في غرفة من غرف مدرستها، وفي هذه الغرفة عانت «حياة» ألوانًا من الحرمان وشظف العيش؛ أما الضوء فكان مصباح الغاز، وأما التدفئة فكان «الحِرام» الصوف تلفه على نفسها وهي تراجع «الكراريس»، وتقوم بإعداد الدروس، وكانت قرية «دير ياسين» محاطة بأربع مستعمرات يهودية، وخشيت «حياة» من خيانة اليهود، فقامت بتأليف «حامية» من فتيات القرية وفتيانها، وكانت «حياة» نفسها من أركان هذه الحامية، فتدربت على حمل السلاح وإطلاق النار».

وتستمر المشاهد التالية في رحلة «حياة» حتى المشهد الأخير المثير.

«فقد مضت أيام وأسابيع، تأزمت في أثنائها العلاقات بين قرية «دير ياسين» العربية والمستعمرات اليهودية القائمة حولها، ولم يعلم أهل القرية الوادعة أن القيادة اليهودية قد اختارت قريتهم كبداية لمرحلة جديدة في الخطط العسكرية لليهود، وعند الساعة الثالثة من فجر يوم قاتم هو يوم 10 إبريل سنة 1948 أطبق ألفان من اليهود المسلحين بالبنادق السريعة الطلقات والخناجر على سكان القرية وهم نيام، وكان عدد سكان القرية أربعمائة مواطن، ونشبت بين الطرفين معركة غير متعادلة لم تدم طويلاً، فتغلب اليهود المسلحون على أهل القرية، وبدأت المجزرة التي انتهت بمقتل ثلاثمائة وستين، ولم يتمكن من الفرار سوى أربعين مواطنًا فقط».

«أما «حياة بلابسي» فما إن سمعت أصوات الرصاص وانفجار القنابل حتى هبت من فراشها وهي في قميص النوم، هامت على وجهها في الحقول وبين التلال، وبعد لحظات وجدت نفسها في مكان أمين خارج القرية، وكان باستطاعتها اللجوء إلى قرية عربية أخرى للنجاة بنفسها، إلا أنها سمعت في هذه اللحظة أنينًا بالقرب منها، فاتجهت إلى مصدر الأنين، حيث وجدت نفسها أمام جريحين من أبناء قرية «دير ياسين»، فتقدمت منهما، ومزقت جزءًا من قميصها ضمدت به جراحهما، ثم استقر رأيها على أن تضعهما في مغارة قريبة منها إلى أن تتمكن من إخبار «الهلال الأحمر» عنهما، فحملت أحدهما على كتفيها وسارت به نحو المغارة، وبعد مسيرة عشرة أمتار مزق الجو صوت طلقات سريعة فسقط الجريح قتيلاً، وسقطت «حياة» فوقه مضرجة بدمائها. أما الجريح الثاني فقد كان مقدرًا له أن يعيش ويروي خاتمة حياة فتاة تذوقت الجهاد في سبيل العلم، والأسى في سبيل العائلة، والبطولة في سبيل الوطن».

هذه هي قصة «حياة بلابسي» التي انتصر عليها اليهود وقتلوها مع ثلاثمائة وستين آخرين من أهالي دير ياسين الذين يمثلون 90٪ من سكان القرية. أما قرية «دير

ياسين» نفسها فقد محيت من الوجود وحلت محلها مستعمرة يهودية اسمها «جفعات شاءول» وقد أصبحت الآن جزءًا من القدس الغربية التي يسيطر عليها اليهود سيطرة كاملة.

هذه هي قصة «حياة بلابسي»، وهي ملحمة، وسيمفونية، ولوحة نادرة من لوحات البطولة المجهولة. ويكفي أن تلمسها يد فنان حتى ينبع منها كثير من المعاني الإنسانية الرائعة.

وفي هذه القصة تبدو «حياة» المنهزمة منتصرة لأنها أكبر بكثير من الأنذال. الذين هزموها وقتلوها؛ أما المنتصرون عليها فانتصارهم رخيص؛ لأنهم هاجموا بالسلاح مواطنين نيامًا آمنين ليس في يدهم سلاح، هؤلاء المنتصرون يعتمدون على مساندة دولية خالية من أي ضمير، وكان قانون العقاب على مثل هذه الجرائم نائمًا هو الآخر مثل مواطني «دير ياسين» فقتله المجرمون أمام عيون الجميع.

استشهاد «حياة بلابسي» انتصار للإنسانية الطيبة الجميلة، أما انتصار اليهود عليها فهو انتصار رخيص جدًا، ويكفي أن يقال: إن اليهود بقوة السلاح انتصروا على امرأة في قميص النوم.

الغزال الجريح

في بعض الأوقات الصعبة والعصيبة، يشعر الإنسان أحيانًا أنه «لا حيلة له» أمام سيل الأحداث الجارف. وبذلك قد يقع الإنسان فريسة للشعور باليأس والإحباط، ويذهب به الظن إلى أن القوة الغالبة في هذه الدنيا هي قوة الشر، وأن أصحاب الحقوق الظاهرة والعادلة ليس أمامهم إلا أن يتعرضوا للسهام الطائشة المسمومة، وأن يظلوا ينزفون من جراح أجسادهم بصورة مستمرة، وياليت هذا النزيف يؤدي إلى الموت، ولكنه كثيرًا ما يؤدي إلى شيء لا هو موت ولا هو حياة، بل جروح أليمة تنزف باستمرار دون أي أمل واضح في وضع حد للنزيف بالموت أو بالشفاء. هذه الصورة تعيش معي باستمرار كلما فكرت في أحوالنا العربية الراهنة، مما يذكرني بكلمات بديعة وحزينة كتبها الفنان النرويجي العظيم هنريك إبسن «1828 ـ 1906»، حيث يقول: «كثيرًا ما يلوح لي أنه لم يعد أمام من وهبه الله العقل والقلب في بلادنا إلا أن ينكص على عقبيه مثل الغزال الجريح، ثم يهرب مسرعًا إلى أشجار الغابة الكثيفة حيث يختبئ هناك ويلفظ أنفاسه الأخيرة في هدوء وسكينة بعيدًا عن عيون أعدائه ومنغصي عيشه وحياته. إن خير مايمكن أن يحل ببلادنا هو «كارثة» قومية عظمى، فإن نحن عجزنا عن تحملها فلا حق لنا في الحياة». هذا ما يقوله إبسن العظيم.

إن خير ما ينفع الأمم والشعوب في أوقات الضيق والأزمة هو أن تتعرض لكارثة.. وأن تتحمل هذه الكارثة أو تموت وينتهي دورها في التاريخ. وهذا أمر لا ينطبق على الجماعات وحدها ولكنه ينطبق على الأفراد. فمن تضق به الحياة، ويتعرض لكارثة

لا يستطيع أن يتحملها.. فليس أمامه إلا أن يموت، أما إذا استطاع أن يصبر ويتحمل فسوف يستمر على قيد الحياة، وسوف ينفتح أمامه طريق البقاء والانتصار برغم أن هذا الطريق صعب وطويل، والمسير فيه شاق بالغ العناء.

فكذا الدنيا، لا تعطي شعبًا، ولا فردًا، أي انتصار دون ثمن معلوم فليس في هذه الدنيا انتصار كبير بثمن رخيص. ولو أننا نظرنا إلى تاريخنا العربي نظرة فيها شيء من العمق البعيد عن التوقف أمام الحاضر وحده، لوجدنا أن «الكوارث العربية» المتلاحقة قد بدأت منذ أكثر من خمسمائة سنة، وبالتحديد منذ أن استطاع الأوروبيون أن يطردوا عرب الأندلس من إسبانيا، بعد نحو ثمانمائة سنة من السيطرة العربية عليها، وكان ذلك في تاريخ محدد هو سنة 1492. من يومها والأوروبيون يزدادون نفوذًا وسيطرة على العالم، أما الراية العربية فقد بدأت تنتكس جيلاً بعد جيل.

قبل ذلك كان العرب هم سادة الدنيا وأصحاب الكلمة العليا، والذين يحسب لهم الجميع «ألف حساب وحساب».

وبعد ذلك التاريخ ـ 1492 ـ بدأنا نقف في موقف الدفاع. وموقف الدفاع إذا استمر طويلاً فلابد أن ينتهي بأصحابه إلى التراجع يومًا بعد يوم، إذ إن الدفاع الناجح هو الذي يصمد ويستمر، حتى يتمكن من الهجوم ليردع الذين يطمعون فيه.

وقد آن الأوان أن يدرك العرب أن الدفاع وحده لايجدي، وأنه لابد من الهجوم؛. لأن أعداءنا يهاجمون بشراسة، فلماذا نكتفي نحن بالدفاع فقط، فالمقاومة الحقيقية هي هجوم، وفيها كثير من الأمل، وهذا هو ما آمن به «الغزال الجريح».

والغزال الجريح هو شيخ عربي من شيوخ الدين ولد في سوريا، وتعلم في الأزهر بمصر، وأنهى حياته شهيدًا على أرض فلسطين.

وأسميه بالغزال برغم أنه شيخ «معمم» لأنه كان يتحرك في خفة ورشاقة ولطف وسرعة، مثلما يفعل الغزال.. حتى موته نفسه كان «موتًا رشيقًا» ولم يكن موتًا رخيصًا سهلاً، فقد تم استشهاده سنة 1935، وهو يحمل سلاحه، في قرية فلسطينية اسمها

«الشيخ زايد» يوم 19 نوفمبر سنة 1935، وكان يقاتل ومعه أحد عشر فقط وهو بذلك قد مات ميتة الحسين عليه السلام في «كربلاء» فقد كان استشهاد الحسين معلومًا له ولأنصاره قبل أن يحدث هذا الاستشهاد، لأن الحسين كان يقود سبعين شخصًا أمام جيش من الآلاف المدججين بأقوى سلاح معروف في عصره، ولم يكن مع الحسين، الشهيد قبل استشهاده، سوى إيمانه ورجولته والسيف الذي يحمله في يده.

وقيل للحسين: استسلم وبايع يزيد بن معاوية، وإلا فأنت قتيل، ولن ينفعك في موقفك أنك حفيد النبي العظيم ﷺ.

ولكن الحسين أبى أن يستسلم أو يبايع حاكمًا ظالمًا فاسدًا ولو كان هذا الحاكم لديه جيش عظيم.

واستشهد الحسين، ومع ذلك بقيت دماء الحسين ترفرف على الدنيا مثل العلم الخفاق، أما قاتله المنتصر التافه «يزيد بن معاوية» فقد انمحى اسمه من التاريخ.. وهكذا سجل الحسين انتصارًا للشهداء على القاتلين.

وبهذه السيرة النبيلة العليا اهتدى شيخنا النبيل الذي أسميه باسم «الغزال الجريح» إنه شيخ فلسطين وإمام الشهداء فيها، عزالدين القسام «1882 ـ 1935».

واغفر لي ياشيخ عز الدين عندما أسميك باسم «الغزال الجريح» فأنا لا أجد وصفًا لك أنسب من هذا الوصف.

ألم تكن «غزالاً» ياشيخ عز الدين، وأنت تخطب في جامع «الاستقلال» في حيفا، فتذهل السامعين بسحر بيانك الواضح البسيط وتحرك الناس، وأنت تقدم إليهم كلمات مثل «الخبز الصابح» تغذي بها قلوب الجائعين إلى الحق والعدل، وترفع رءوس المذهولين مما يتعرضون له من ظلم فاجر غير محدود أصابهم باليأس والانكسار، فجئت أنت لتقول لهم: يافقراء. يامساكين. أنتم الأعلون في الأرض، لأنكم على الحق، فلا تتركوا الظالمين يظلمونكم لأن معهم القوة. والقوة في القلب والإرادة قبل أن تكون في السلاح الذي يملكه أهل الظلم والعدوان؟

ألم تكن تردد ياشيخ عز الدين قول الله تعالى في سورة «الممتحنة»: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الممتحنة: 7 ــ 9).

وفي الآيات الكريمة السابقة كلمة «تقسطوا» ومعناها «تعدلوا» وفيها «أن تولوهم» أي أن تتخذوهم أولياء وأصدقاء. ومن المعلوم أن إسرائيل قد قامت يومًا بطباعة مصحف «مزور» حذفت منه هذه الآيات، وبئس ما فعلته إسرائيل.

أنت ياشيخ عز الدين كنت تردد هذه الآيات الكريمة في خطبتك بجامع «الاستقلال» في حيفا. فالقرآن الكريم لا يمنعنا أن يكون بيننا وبين أعدائنا مودة، بشرط ألا يقاتلنا هؤلاء الأعداء في ديننا، وألا يخرجونا من ديارنا، أو يظاهروا ــ أي يساعدوا ــ على إخراجنا من هذه الديار.

أنت كنت «غزالاً جريحًا» ياشيخ عز الدين بكل معنى الكلمة، فقد كنت تنتقل في يسر ورشاقة من المسجد والخطابة فيه إلى القرى المليئة بالفلاحين والعمال وفقراء الأمة، لأنك طلبت من المحكمة الشرعية الفلسطينية تعيينك «مأذونًا شرعيًّا» تتنقل بين القرى المختلفة «فعرفك الناس وعرفتهم، وازدادت شعبيتك وذاعت شهرتك».

كنت مأذونًا.. نعم وكنت تربط بين القلوب برباط وثيق، ولكنك مع كتابة «عقد الزواج» كنت تبذر في نفوس فقراء الشعب فكرة ثابتة تقول لهم: لاتقبلوا الظلم ولا تسكتوا عليه.

ياشيخ عز الدين، أيها الغزال الجريح: لو كان في الأمة العربية عبقرية موسيقية مثل «بيتهوفن» لجعلت من حياتك ونضالك وحركتك المستمرة المتسمة بالسرعة والرشاقة سيمفونية تعزفها الدنيا جيلاً بعد جيل، ولو كان عندنا شاعر مثل «لوركا» الإسباني لجعلك موضوعًا لمسرحية شعرية يتغنى بها الزمان في كل العصور، ولكنك

الآن ياشيخ عز الدين مازلت تنبض في قلوب الفقراء، فأبناء فلسطين المستعدون للشهادة لاينسونك أبدًا، وفي كل جنازات الشهداء في «انتفاضة الأقصى» تخرج مجموعات من الشباب تحمل لافتة مكتوبًا عليها «كتائب عزالدين القسام». فاهنأ ياشيخ عز الدين لأن فقراء وطنك وشهداءه مازالوا يحملون رايتك العالية بعد استشهادك بخمسة وستين عامًا، وسوف يظلون يحملون رايتك حتى يحققوا نصرهم على الظالمين.

وإذا أردنا أن نكتب بطاقة موجزة عن حياة الشيخ عز الدين القسام، فهذه هي البطاقة:

ولد الشيخ في سوريا سنة 1882، وتعلم علومه الابتدائية في بلدته «جبلة» جنوب «اللاذقية»، ثم جاء إلى القاهرة وهو في الرابعة عشرة أي سنة 1896، ودخل الأزهر واتصل بالإمام الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وغيرهما من زعماء الثورة العرابية التي كانت قد انهزمت أمام الإنجليز، ولكن نيرانها لم تنطفئ أبدًا، وبقيت هذه النيران تحت الرماد، وظل الشيخ عزالدين في مصر سبع سنوات حتى سنة 1903، حيث نال شهادته، ثم عاد إلى سوريا، وبقي فيها، يعمل على مقاومة الاستعمار الفرنسي لها حتى سنة 1921، حيث انتقل إلى حيفا، وأصبح إمامًا لجامعها الشهير وهو جامع «الاستقلال»، ثم أصبح «مأذونًا» شرعيًا لحيفا والقرى المجاورة، وكانت مواقفه كلها تعتمد على فكرة أساسية هي ـ كما تقول الموسوعة الفلسطينية الجزء الثالث ـ صفحة 229: «إن رجل الدين ليست مهمته تعليم الفروض والعبادات فحسب، بل عليه تعليم الإباء والوطنية وعزة النفس، وكان دور رجل الدين عند الشيخ عز الدين هو دفع المؤمنين إلى رفض الاستكانة والتواكل وعدم الانفصال والانعزال عن قضايا الوطن».

وأنشأ عز الدين القسام تنظيمًا سريًا مسلحًا تحت قيادته، لأنه كان يؤمن بأن مقاومة الصهيونية لابد أن تكون عن طريق «تنظيم مسلح»، مثلما يفعل «الصهاينة» أنفسهم

بمساعدة مستمرة وقوية من بريطانيا التي كانت تسيطر على فلسطين تحت اسم «الانتداب»، ولم يكن «الانتداب» البريطاني أمينًا على ما بين يديه، فقد أخذ يسلم فلسطين لليهود في هجرات يسمح بها، وتسليح يقدمه إليهم، ويروي الأستاذ «ناجي علوش» الكاتب الفلسطيني المعروف في كتابه «المقاومة العربية في فلسطين» أن الشيخ عز الدين القسام طلب من مفتي فلسطين وزعيمها في ذلك الوقت «الحاج أمين الحسيني» أن يساعده من أجل الإعداد للثورة، فقال له الحاج أمين «نحن نعمل لحل القضية سياسيًا» وأرسل الشيخ عز الدين القسام أحد رجاله واسمه «محمود سالم» سنة 1935 إلى الحاج أمين الحسيني ليخبره بعزمه على إعلان الثورة في شمال فلسطين، ويطلب من الحاج أمين إعلان الثورة في الجنوب، ولكن الحاج أمين أجاب بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل، وأن الجهود السياسية التي يتم بذلها تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم».

ولم يكن الحاج أمين الحسيني على صواب؛ لأن الجهود السياسية لم تحقق شيئًا لأهل فلسطين، وكان الشيخ عز الدين على حق لأن «الدفاع المسلح» كان هو الوسيلة المناسبة لوضع حدٍّ للمأساة.. وأخذ الشيخ عز الدين يقاوم مع مجموعة من أنصاره حتى اللحظة الأخيرة، ولم يبق معه من أنصاره سوى أحد عشر شخصًا، لجأوا إلى الجبال في الريف الفلسطيني، وجاء مشهد النهاية على هذه الصورة التي يرويها الأستاذ «ناجي علوش» حيث يقول: «حين انتقلت جماعة الشيخ عز الدين القسام إلى الريف أحس الجواسيس المكلفون من جانب الإنجليز بمراقبتهم أنهم غائبون، فازداد قلق السلطات الإنجليزية المحتلة، فحشدت هذه السلطات قوة كبيرة، وأخذت تجوب المنطقة بحثًا عما أسماه الإنجليز باسم «العصابة»، واستمر البحث أيامًا حتى استطاعت القوات البريطانية أن تحكم الحصار على جماعة «القسام» الذين قاوموا مقاومة باسلة، ولم يفكروا في التسلل والهروب، بل في المقاومة والاستشهاد، وعندما طلب الإنجليز من عز الدين القسام الاستسلام أجاب: «إننا لله نستسلم، فهذا جهاد في سبيل الوطن والتفت إلى زملائه الباقين، وكان عددهم أحد عشر شخصًا فقط وقال لهم: «موتوا

شهداء» واستمر الاشتباك مع القوات الإنجليزية من الفجر حتى التاسعة صباحًا، حين استشهد الشيخ عز الدين وبعض أصحابه.

هذه خلاصة موجزة لتاريخ «الغزال الجريح» الشيخ عز الدين القسام الذي مات شهيدًا بين أحد عشر شخصًا من أنصاره. فكان موته مثل موت الحسين، أي أنه كان يعلم أنه شهيد لأنه يقاوم الإمبراطورية الإنجليزية، وكان يمكن أن ينجو لو استسلم أو هرب، ولكنه آثر الشهادة ورايته اليوم، بعد استشهاده في 19 نوفمبر 1935، هي الراية التي ترفعها انتفاضة الأقصى، وهذا «الغزال الجريح» يملأ نفوسنا بشيء من الأمل بأن انتصار الحق على القوة الغاشمة ممكن، وإن كان علينا أن ندفع الثمن.

في يوم جميل من أيام الربيع

من أخطر الأمور على الحياة كلها أن يتعود الإنسان على كل ماهو شاذ واستثنائي، فيصبح الشذوذ والاستثناء ـ بالتكرار المستمر ـ شيئًا عاديًا لا خطر منه ولا ضرر فيه، وأذكر في هذا المجال قصة سمعتها منذ سنوات بعيدة، وهي قصة يرويها أحد المستشرقين المهتمين بدراسة «الشخصية المصرية» من حيث طبيعتها وسلوكها وردود أفعالها، فقد جاء هذا المستشرق إلى القاهرة، وخطر على باله يومًا أن يقوم بتجربة من تجاربه في بيئة شعبية، فذهب إلى أحد الأحياء وأحضر «حجرًا» كبيرًا وألقى به في مدخل حارة من حواري هذا الحي، وأخذ يراقب ردود فعل سكان الحارة دون أن يشعر به أحد، فوجد أن هؤلاء السكان كانوا في البداية يتوقفون قليلاً أمام الحجر، وبعد هذه الوقفة العابرة يقفزون فوقه ويواصلون حياتهم التي تعودوا عليها، وبمرور الأيام لم يعد أحد يتوقف أمام الحجر الموجود في مدخل «الحارة»، وتعود الجميع أن يقفزوا فوق الحجر، وكأن هذه القفزة قد أصبحت أمرًا طبيعيًا يمارسونه كل يوم دون دهشة أو تساؤل. لم يفكر أحد من أهل الحارة أن يسأل: ما الذي جاء بهذا الحجر إلى مدخل الحارة؟ من الذي وضعه؟ وما هو الهدف من وضعه في هذا المكان؟ ولم يفكر أحد في أن يستعين بمجموعة من السكان ويقوموا معًا بإزالة الحجر من مكانه حتى لا يعوق حركة العابرين، ولكن الحل كان في «التعود» على وجود الحجر، وفي «التعود» على القفز فوقه في الدخول والخروج، دون أي محاولة لإزالته أو تفسير وجوده في هذا المكان، ولعل هذا الحجر لايزال في موضعه على الرغم من مرور عشرات السنين!

وقد استنتج المستشرق الأجنبي أن المواطنين المصريين في البيئات الشعبية لديهم مشاغل وهموم تسيطر عليهم وتمنعهم من التفكير فيما هو خارج سيطرتهم، فالناس تجري وراء الرزق، وليس لديها وقت أو قدرة ذهنية باقية للتفكير في شيء آخر.

ويمكن أن يكون لهذه التجربة «الحجرية» تفسيرات أخرى، ويمكن أن تكون هذه الحادثة مادة لقصة تشبه قصص نجيب محفوظ الرمزية التي تجري حول «الحارة»، و«الفتوات» والبيئات الشعبية. على أن المعنى العام في هذه التجربة واضح، وهو أن الإنسان إذا تعود على شيء من الأشياء، فإن هذا الشيء يصبح مألوفًا لديه، حتى لو كان هذا الشيء من الأمور الاستثنائية الشاذة، وهذا الوضع فيه بعض الخطورة، لأن العادة تمنع الإنسان من التفكير في تغيير ماهو خطأ وخارج عن المألوف.

وتلك كلها أمور ينبغي أن نحاربها في أنفسنا، خاصة بالنسبة للقضايا الأساسية التي تتصل بمصيرنا في الحياة، فكل ماهو خطأ واستثنائي وشاذ ينبغي أن يكون موضع انتباهنا، وأن يكون حيًا في ذاكرتنا على الدوام، حتى نتمكن من تغييره وإعادته إلى نقطة الصواب، لأن التعود على الخطأ حتى يصبح أمرًا مألوفًا لنا ويصبح شيئًا عاديًا في إحساسنا به لابد أن يترك آثارًا سيئة على حياتنا، ولو على المدى الطويل، وأعتقد أن ذلك أمر ضروري حتى بالنسبة لحياتنا الشخصية.. إذ لابد من المراجعة وإعادة التفكير والتنبه إلى كل ماهو خارج على قواعد الحياة السليمة، ثم علينا بعد ذلك أن نعمل على تغيير «الخروج على القاعدة» بقدر ما نستطيع.

وهنا أتوقف أمام ما يجري على الساحة الفلسطينية من عدوان يومي على الفلسطينيين، وسقوط الشهداء منهم كل يوم.. في البداية كنا، وربما كان العالم كله معنا، من المنفعلين أشد الانفعال بما يسيل من دماء الأبرياء.. وعندما أصبح الأمر حادثًا يوميًا متكررًا، وخبرًا دائمًا من الأخبار التي ترددها وسائل الإعلام بانتظام.. هدأ الانفعال، وأصبحت ردود الأفعال على ما يجري ردودًا فيها شيءٌ من الخفوت الشديد، فكأن ما يجري قد أصبح «عادة يومية» مألوفة.

وقد أصابنا ذلك من قبل مرارًا، وأصابنا في ذاكرتنا، بينما نجد أن «ذاكرة اليهود» لا تنسى شيئًا أبدًا، ولا تزال تردد كل يوم حكاية اضطهاد «هتلر» لليهود، وأنه قد قتل من هؤلاء اليهود ستة ملايين، وما صاحب ذلك من قصص بعضها خرافي أسطوري لا أصل له، وبعضها جزء من الحقيقة وليس كل الحقيقة، فكل الحقيقة تؤكد أن «هتلر» لم يضطهد اليهود وحدهم، ولكنه اضطهد حتى شعبه الألماني، وقتل من الألمان كل من كان يتصور أنهم أعداؤه، واضطهد الروس والبولنديين والفرنسيين، وكل من أوقعهم سوء حظهم في مواجهة قوته العسكرية الرهيبة، وكانت حصيلة ذلك كله هي موت خمسين مليونًا من البشر في الحرب العالمية الثانية التي أشعلها هتلر، كان منهم عشرون مليونًا فقط من الروس، ولكن عشرات الملايين الذين تم قتلهم في هذه الحرب قد أصبحوا نسيًا منسيًا.. إلا اليهود، فإسرائيل تذكرهم بالليل والنهار، وتحصل على تعويضات عنهم تبلغ المليارات، وتعيد تقليب أوراقهم كل يوم، حتى «اخترعت» منذ سنوات حكاية المدخرات اليهودية في البنوك السويسرية، وقد قامت هذه الحكاية على مجموعة من «الافتراضات» التي لايوجد عليها دليل ثابت، وقد طلبت إسرائيل تعويضات عن هذه المدخرات اليهودية المفترضة، والتي هي في قواعد البنوك والمصارف مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة، ومع ذلك فقد حصلت إسرائيل من البنوك السويسرية على الملايين التي حددتها كتعويض عن المدخرات الوهمية لليهود الذين غابوا عن الحياة، وذلك لأن سويسرا لم تستطع أن تقاوم الضغوط العنيفة عليها من أمريكا وأوروبا من أجل إرضاء إسرائيل.. فدفعت سويسرا «الغرامة» المطلوبة منها.. وأمرها لله.

ذاكرة اليهود نشيطة جدًا يساندها خيال جامح لايجد من يصده أو يقف في وجهه.

أما ذاكرتنا ـ نحن العرب ـ فيسيطر عليها التسامح، ونسيان الأذى القريب والبعيد، وعدم الرغبة في فتح «الجراح».. حتى لو كانت هذه الجراح لاتزال مفتوحة على آخرها، وهذا خطأ، إذ لابد أن تكون ذاكرة العرب نشيطة ولو بصورة متواضعة، فالذي يفقد ذاكرته يفقد تاريخه، والذي يفقد تاريخه لاحق له في شيء.

وسوف أفتح هنا صفحة للذاكرة العربية وهي صفحة غير مجهولة ولكنها شبه منسية، خاصة في تفاصيلها المؤلمة، وليس الهدف من وراء سرد بعض هذه التفاصيل سوى تأكيد أن «النزعة الدموية» في إسرائيل هي نزعة قديمة متأصلة فيها، وأن هذه النزعة الدموية لا تتفق مع ادعاء إسرائيل بأنها تريد السلام، فالسلام لا يقوم على إسالة الدماء البريئة، كما حدث في الماضي، وكما يحدث الآن، والحقيقة أن إسرائيل لا تزال تريد أكثر مما أخذته، وقد أخذت ما يقرب من 70٪ من أرض فلسطين ولم يبق للفلسطينيين سوى نحو 30٪، ومن الواضح أن «عين» إسرائيل متجهة إلى هذه الأرض الباقية للفلسطينيين، وهي تريد أن تلتهم من هذه الأرض أكبر جزء تستطيع التهامه.

وعودتنا إلى بعض صفحات الماضي مفيدة، فإسرائيل لا تنسى شيئًا مما حدث لليهود في العصر الحديث أو في العصور القديمة حتى ثلاثة آلاف سنة مضت عندما كان لداود وسليمان مملكة صغيرة محدودة في أرض فلسطين، وإسرائيل لا تنسى يهوديًا واحدًا قتله هتلر من بين الملايين الخمسين الذين تعرضوا للقتل على يديه، ولا تنسى إسرائيل «خاتمًا ذهبيًا» كان في إصبع يهودي أو يهودية، وهي تطالب بثمن كل شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، ومن الغريب أنها تحصل على كل ما تريد، بفضل مساندة أمريكا المطلقة لها، وقد حصلت على تعويضات مذهلة من ألمانيا بلغت ـ فيما أعلم ـ ستين مليار دولار، وحصلت على تعويضات من البنوك السويسرية بمئات الملايين تحت حجة أن بعض اليهود قاموا بتهريب أموالهم إلى البنوك السويسرية ثم ماتوا أو قتلوا ولم يكن لهم وريث، وإسرائيل هي الوريث.

إسرائيل تتاجر تجارة رابحة جدًا بذاكرتها، وحرصها على التسجيل الدقيق لكل ما حدث في الماضي القريب أو الماضي البعيد، وتتقاضى عن كل ما تدعيه أضعاف ثمنه المعلوم.

أما نحن فنتسامح مع ذاكرتنا، ونتصرف على أساس أن «ما فات قد مات» فلا نطلب تعويضًا عن شيء، ولا نحرص حتى على تكريم الدماء البريئة التي سالت على أرضنا

بإبقاء هذه الدماء حية في ذاكرتنا، لكي نقدمها لأنفسنا وأبنائنا وللعالم كله كدليل على إدانة إسرائيل في عدوانها المستمر علينا، خاصة أننا نسمع الآن كل يوم عن مقتل عدد من الفلسطينيين يتراوح بين أربعة شهداء، وعشرة شهداء، وكأن هذا الخبر اليومي أصبح عاديًا مثل نشرة الطقس الخاصة بأحوال الجو.

ولذلك لابد لنا أن نفتح بعض صفحات المذابح الإسرائيلية التي حلت بالعرب ولا يزالون يتعرضون لها إلى الآن.

وسوف أتوقف هنا قليلاً أمام مذبحة واحدة فقط من مذابح إسرائيل العديدة وهي مذبحة «دير ياسين» الشهيرة باسمها المعروف، والتي تكاد تكون نسيًا منسيًا بتفاصيلها المؤلمة.

وأنا أنقل هنا عن الموسوعة الفلسطينية «بعض الملامح السريعة مما وقع في دير ياسين».

ففي الساعة الثانية بعد منتصف الليل من يوم 10 إبريل سنة 1948 دخل اليهود قرية «دير ياسين» وفاجأوا أهلها ومع ذلك فقد أخذ العرب يدافعون عن بيوتهم ونسائهم وأطفالهم بقوة، فكان القتال يدور من منزل إلى منزل، وكلما احتل اليهود بيتًا فجروه على من فيه بالمتفجرات القوية، وقبيل ساعات الصباح الأولى بدأ احتلال القرية بكاملها وتدميرها على من فيها، ودخل اليهود تتقدمهم سيارة مصفحة تحمل مكبرًا للصوت «ميكروفون» ووجهوا إلى السكان العرب نداءً قالوا فيه: «إنكم تتعرضون للهجوم بقوة أكبر منكم، فاهربوا سريعًا من القرية وأنقذوا أرواحكم»، وعندما خرج بعض الناس من بيوتهم يحاولون الهروب من المذبحة تعرضوا لرصاص اليهود فقضي عليهم، أما الذين بقوا في بيوتهم ومعظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، فقد أخذ اليهود يلقون بالقنابل داخل البيوت فيدمرونها على من فيها، وقد سار في مؤخرة الجنود اليهود عناصر عسكرية كانت مهمتها إطلاق النار على كل من يتحرك، أو من بقي حيًا داخل أي بيت.

قام اليهود بحفر قبر جماعي دفنوا فيه مائتين وخمسين جثة عربية، أكثرهم من النساء والشيوخ والأطفال، وقال القائد اليهودي الذي أشرف على هذه العملية: «كان ذلك النهار يوم ربيع جميلاً رائعًا، وكانت أشجار اللوز قد اكتمل تفتح زهورها، ولكن

كانت تأتي من كل ناحية في القرية رائحة الموت الكريهة ورائحة الدمار ورائحة الجثث التي كنا ندفنها دفنًا جماعيًا في القبر».

وهكذا كان هذا اليوم الدموي في نظر القائد اليهودي «يومًا جميلاً رائعًا من أيام الربيع الذي تفتحت فيه الزهور»، وهذا ما يثبت أن اليهود يجدون نوعًا من «المتعة» في تعذيب العرب وإسالة دمائهم، ويؤكد هذا المعنى ما قاله «جاك دي رينيه» رئيس بعثة «الصليب الأحمر» في فلسطين سنة 1948، الذي قام بزيارة «دير ياسين» لوضع تقرير عما حدث، وقد جاء في هذا التقرير ما يلي بالنص:

«لم يرفض اليهود مساعدتي فحسب، وإنما رفضوا تحمل مسئولية ما يمكن أن يحدث لي، وكان اليهود يرتدون ملابس الميدان، وكان جميع أفرادهم من الشبان والفتيات مدججين بالسلاح من المسدسات إلى الرشاشات والقنابل اليدوية، وكان العدد الأكبر من هؤلاء الجنود لا يزالون ملطخين بالدماء وفي أيديهم خناجرهم الكبيرة، وقد اقتربت مني فتاة يهودية جميلة تطفح عيناها بالجريمة وعرضت يديها أمامي وهما تقطران دمًا، وكانت تحرك يديها بفخر واعتزاز كأنهما ميدالية أو نيشان من الذهب الخالص».

وهكذا كان القائد القاتل يرى أن يوم ذبح العرب في دير ياسين هو «يوم جميل رائع من أيام الربيع» أما الجندية الإسرائيلية الجميلة. فكانت تستعرض يديها اللتين تقطران دمًا في سعادة ونشوة وشعور بالانتصار.

إنه الاستمتاع اليهودي بالدم العربي، الذي ما زلنا نحس به حتى هذه اللحظة التي يقتلون فيها كل يوم عددًا من الفلسطينيين وكأنهم يصيدون العصافير في نزهة للتسلية والترفيه.

ويروي رئيس بعثة الصليب الأحمر في تقريره أيضًا بعض مشاهده الأخرى في «دير ياسين» فيقول: «حاولت دخول أحد المنازل فأحاط بي أكثر من 12 جنديًا يهوديًا مصوبين بنادقهم الرشاشة نحوي، ومنعني ضابط يهودي من التحرك قائلاً: إذا كان هناك موتى فسوف نحضر جثثهم إليك، فأثار كلامه غضبي الشديد، فقلت لهؤلاء المجرمين رأيي فيهم وهددتهم ودفعتهم جانبًا ودخلت المنزل، كانت الغرفة الأولى مظلمة وكل شيء فيها كان

مبعثرًا وليس فيها جثث، وفي الغرفة الثانية المليئة بالأثاث الممزق، وكل أنواع الشظايا رأيت بعض الجثث الباردة، وهنا تم القتل بواسطة الرشاشات والقنابل اليدوية والسكاكين.

وتكرر الأمر نفسه في الغرفة المجاورة، وعندما هممت بمغادرة المكان سمعت أصوات تنهدات، وبحثت عن مصدر الصوت مقلبًا الجثث فتعثرت بقدم صغيرة فيها حرارة، وكانت طفلة في العاشرة من عمرها تعرضت للتمزيق بقنبلة يدوية ولكنها كانت لا تزال على قيد الحياة، وعندما هممت بحملها حاول أحد الضباط اليهود منعي من ذلك، فدفعته جانبًا حاملاً كنزي الثمين، ثم واصلت عملي وأصدرت أوامر بإخلاء البيوت من الجثث، ولم أجد من الأحياء بعد الطفلة الصغيرة غير امرأتين عجوزين.

وكان في القرية مايزيد على أربعمائة شخص، وقد هرب ما يقارب الأربعين، وأما الباقون فقد تعرضوا للذبح دون تمييز وبدم بارد تمامًا، وعندما عدت إلى مقر «الوكالة اليهودية» في القدس واجهت زعماءها الذين يتصنعون عدم الرضا عن هذا العمل، ولكنهم لم يفعلوا شيئًا لمنع ارتكاب مثل هذه الجريمة التي لاتوصف»!

وهكذا تمت المذبحة، واختفت قرية «دير ياسين» من الوجود، حيث ضمها اليهود إلى ما يسمى الآن باسم «القدس الغربية»، ويقول «بيجن» في مذكراته «كان لأخبار دير ياسين نتائج كبيرة غير متوقعة فقد أصيب العرب بعد هذه الأخبار بذعر قوي لا حدود له فأخذوا بالفرار للنجاة بأرواحهم، وسرعان ما تحول هذا الهروب الجماعي إلى اندفاع هائج جنوني لايمكن السيطرة عليه، فمن أصل ثمانمائة ألف عربي كانوا يعيشون على أرض إسرائيل الحالية لم يبق سوى 165 ألفًا فقط».

وهكذا اختفت «دير ياسين» من الوجود في «يوم جميل رائع من أيام الربيع» على حد تعبير قائد المذبحة اليهودي، وقتل اليهود في هذا اليوم الربيعي الجميل أكثر من ثلاثمائة وستين عربيًا.

واعتبروا عملهم الإجرامي بطولة وانتصارًا يفخرون به، ولا تزال العقدة اليهودية التي تقوم على الاستمتاع بالدم العربي قائمة إلى اليوم.

عائلة من المجانين

عندما يتقدم الإنسان لأول مرة إلى طبيب ماهر ليعرف أسباب ما يعانيه من تعب، فإن أول ما يطلبه هذا الطبيب هو أن يعرف «التاريخ الصحي» للإنسان، وذلك قبل أن ينطق الطبيب بكلمة واحدة في تشخيص أوجاع الحاضر، فالتاريخ الصحي القديم يستطيع أن يلقي أضواءً على الحاضر، ويمكن أن يساعد مساعدة أساسية في تفسير ما يعانيه المريض في الوقت الراهن. وأي طبيب يعالج حالة من الحالات دون أن يعرف تاريخها الصحي، لابد أن يفوته الكثير، وربما أخطأ التقدير واتخذ قرارات تزيد المرض ولا تشفيه. هذه قاعدة مثل البدهيات عند كل طبيب مخلص لمهنته.. ماهر في عمله وراغب في أن تكون «روشتة» العلاج التي يكتبها لمرضاه هي «الروشتة» الصحيحة، أما الطبيب «المستعجل»، الذي يأخذ الأمور باستخفاف، ويثق بنفسه إلى حد الغرور، فإنه ينظر إلى ما يراه الآن، ولا يلتفت إلى الوراء، فإن قيل له: يادكتور إن المريض قد مات، وإن دواءك لم يكن فيه شفاء، قال في استعلاء ورضاء عن نفسه: أنا طبيب أعالج العليل، وليس لي صلة بعزرائيل! وما ينطبق على الطب هو نفسه ما ينطبق على كل مجالات الحياة الأخرى، فمن لا يعرف تاريخ الحالة التي يتعامل معها معرفة جيدة، فإنه لابد أن يخطئ، وإن أصاب في شيء، فسوف يكون ذلك عن طريق الحظ والمصادفة. وهما أمران خارجان تمامًا عن سيطرة الإنسان، فلا تتعامل مع شيء لا تعرف تاريخه.. فذلك طريق الندامة والخطأ الجسيم.

وقد مر علينا في مصر والعالم العربي مايقرب من ربع قرن، ونحن نبذل جهدنا مع أنفسنا لكي ننسى تاريخ إسرائيل تمامًا، أملاً في أن نتعامل مع الواقع القائم الآن، والذي

لا حيلة لنا فيه. ولا أقول إن هذا الأمر كان خطأ كله، فله ولاشك تفسير معقول، فقد أردنا بعد رحلة طويلة من التعب والإجهاد والتعطيل الكبير الذي أصابنا في الحضارة والتقدم، أن نعمل بقول الشاعر العربي القديم: «... حنانيك.. بعض الشر أهون من بعض»، و«حنانيك» هنا هي عبارة تعني «الاسترحام» وطلب المعذرة والغفران بسبب الاعتراف بأحد الشرور القائمة واحتمال هذا الشر، لأنه شر أهون من شر آخر أكبر وأوجع. والشر الذي كنا نتسامح معه ونغمض عيوننا عنه، هو الاعتراف بإسرائيل التي كانت قائمة على الخريطة حتى 4 يونيو عام 1967، وقد اعتبرنا أن «إسرائيل» تلك هي جريمة سقطت التهمة فيها بالتقادم، فلا مجال معها الآن للعقاب أو المحاكمة.

ولا أظن أن إنسانًا عاقلاً كان ينكر صواب هذا الموقف العربي برغم مرارة هذا الواقع، فنحن نتقبل هذه المرارة حتى نتجنب ما هو أشد مرارة في حاضرنا ومستقبلنا، أو كما قال الشاعر العربي: «.. بعض الشر أهون من بعض».

وقد كان لدينا ظن يقول لنا إن إسرائيل سوف تسعد بالموقف العربي الجديد، فقد أخذت ما تريد، أو ما كنا نظن أنها تريده. ولكن إسرائيل أثبتت أنها لا تقنع بما ابتلعته، والذي يبلغ أكثر من 70٪ من أرض فلسطين؛ ذلك لأنها تريد المزيد، فهي تريد القدس الشرقية، التي احتلتها عام 1967، وهي تريد أن تقيم إسرائيل أخرى عن طريق المستوطنات اليهودية المسلحة في الضفة الغربية وغزة، وهي ترفض تمامًا أن يعود اللاجئون الذين ما زالوا يعيشون في المخيمات البائسة الفقيرة المسحوقة، وهي لا ترفض فقط عودة اللاجئين إلى بيوتهم التي لا تزال قائمة كما هي في إسرائيل نفسها، بل ترفض عودة اللاجئين حتى إلى غزة والضفة الغربية، وكل فلسطيني يريد أن يعود إلى مناطق السلطة الفلسطينية لابد أن يستأذن إسرائيل، وإسرائيل تقول له دائمًا: ممنوع الدخول.

ولو أننا وضعنا أمام عيوننا «التاريخ الحقيقي» لإسرائيل والحركة الصهيونية لعرفنا الأسباب وأصبحنا «على نور» مما نراه من أحوال إسرائيل العجيبة. ومنذ «انتفاضة الأقصى» العظيمة بشجاعتها، والأليمة بضحاياها وشهدائها، والمؤثرة بما أحدثته من

اضطراب داخل إسرائيل.. منذ هذه الانتفاضة وأنا أحاول التقليب والبحث في «التاريخ الحقيقي» لإسرائيل، تمامًا كما يفعل الطبيب عندما يبحث ويدرس «التاريخ الصحي» للمريض.

وقد أوصلني البحث إلى الوقوف أمام الشخصية الرئيسية التي «اخترعت» فكرة «الدولة اليهودية» في أواخر القرن التاسع عشر، وهو «تيودور هرتزل» (1860 ـ 1903)، فهذا هو الزعيم المؤسس لهذه الدولة، وهو الرجل الذي لم يتوقف عند حدود الدعوة النظرية لإقامة إسرائيل، بل بذل جهدًا عمليًا خارقًا لبدء إنشاء الدولة وإتاحة الظروف الواقعية لقيامها.

وهذا الرجل «هرتزل» هو شخصية تتميز بالذكاء والحيوية والنشاط، ولكن الله حرمه من أي موهبة حقيقية تنفع الناس وتبقى في الأرض.

كان «أنانيًا» جدًا، وكان شديد الطموح، وكان يريد أن يكون له شأن في هذه الدنيا، وأن يحقق من وراء ذلك الثراء والشهرة المدوية، ولا شيء غير ذلك. وقد أراد «هرتزل» في أول الأمر أن يكون أديبًا وكاتبًا مسرحيًا معروفًا ومؤثرًا، لكنه لسوء حظه ـ وسوء حظنا أيضًا ـ أنه كان يعيش في عصر عمالقة المسرح العالمي مثل «إبسن» النرويجي (1828 ـ 1906) و«ستريندبرج» السويدي (1849 ـ 1912)، و«برنارد شو» الأيرلندي (1856 ـ 1950)، وغيرهم من عمالقة الفن المسرحي العظماء، لذلك اصطدم «هرتزل» بحائط صخري ضخم في عالم المسرح، فلم يجد لنفسه مكانًا إلا في آخر الصفوف، وهكذا لم ينجح «هرتزل» في أن يحقق أحلام الشهرة والثراء عن طريق الكتابة للمسرح، فقد حقق شيئًا من الشهرة وشيئًا من الثراء، لكنه وصل إلى ذلك كله بصورة لا ترضي طموحه الكبير، فقد كان يريد أن يكون «الأول» وهو غير قادر على ذلك، وبرغم أنه لم يكن يهوديًا متدينًا، وقد أعلن هو نفسه ذلك مرارًا، إلا أنه وجد الفرصة أمام نفسيته المغامرة متاحة لكي يطرح حلمه بإقامة «دولة يهودية»، ويدعو إلى ذلك، ويصبح زعيمًا للحلم «المجنون» الذي دعا إليه، خاصة أنه وجد أوروبا مستعدة

لتقديم العون له في هذا المجال؛ وذلك لسبب وحيد هو أن أوروبا كلها كانت تضيق باليهود ومشكلاتهم ومتاعبهم، وتريد أن تتخلص منهم وتلقي «ببلائهم» على الآخرين؛ فروسيا كانت تريد أن تتخلص من اليهود لأنهم مشاغبون يميلون ـ بسبب فقرهم وبؤسهم ـ إلى تكوين تنظيمات سرية ثورية تهدد أمن البلاد والعباد، وفرنسا كانت تموج بحركة واسعة قائمة على كراهية اليهود، لعدم ثقة الفرنسيين في ولاء هؤلاء اليهود لفرنسا، واستعدادهم لخيانتها والتآمر عليها في لحظات الشدة، وألمانيا كانت تضيق بالاضطراب الاقتصادي الذي كان اليهود يقومون فيه بدور «البطولة» وكانوا المسببين الأساسيين له، والإنجليز كانوا يضيقون باليهود أيضًا ويتمنون الخلاص منهم بأية وسيلة؛ لذلك كانت الفرصة متاحة إلى أبعد الحدود، لكي يكون «هرتزل» زعيمًا لشعبه اليهودي مستندًا في ذلك على أمل أوروبي كبير في أن يأخذ هذا الزعيم شعبه المزعج ويرحل من أوروبا كلها، ويخلص أوروبا نهائيًا من «الصداع اليهودي».

واندفع «هرتزل» الأناني و«غاوي» الشهرة والثراء في هذا الاتجاه الذي أتاح له أن يكون «بطلاً» على مسرح السياسة الدولية.

وكانت عين «هرتزل» أول الأمر متجهة إلى سيناء، فهي أول مكان فكر أن يقيم فيه دولة إسرائيل، لكن مصر كانت في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن مستعمرة بريطانية، وكان كل ما تنتجه مصر من خير يذهب إلى إنجلترا؛ لذلك رفض «كرومر» ممثل الاحتلال الإنجليزي مشروع إقامة «إسرائيل» في سيناء لا لشيء إلا لأن ذلك سوف يضر ضررًا بالغًا بالمصالح الإنجليزية.

وعرض الإنجليز على «هرتزل» أن يقيم دولته المنشودة في «أوغندا» ووافق «هرتزل» على ذلك، بل وتحمس له، لكن الإنجليز أعادوا النظر في الأمر لأن «أوغندا» كانت مستعمرة لهم تدر عليهم اللبن والعسل، فاستخسروها في «اليهود».

أما فلسطين فلم تكن تحت سيطرة الإنجليز حتى سنة 1918، وكانت تحت حكم السلطان التركي العثماني؛ لذلك شجع الإنجليز «هرتزل» على أن يتجه بأحلامه

الجنونية إلى فلسطين؛ لأنه لو أخذ فلسطين فسوف يأخذها من العثمانيين، ولن يصيب الإنجليز في ذلك أي ضرر.. وهنا نخرج بنتيجتين مهمتين: الأولى أن «هرتزل» مؤسس الصهيونية الحديثة، وصاحب أول دعوة معاصرة إلى إقامة الدولة اليهودية كان رجلاً طموحًا انتهازيًا بعيدًا عن التدين، وكان يريد فرصة للظهور والزعامة والنجاح مستغلاً في ذلك رغبة أوروبا في الخلاص النهائي من اليهود.

والنتيجة الثانية هي أن فلسطين لم تكن هدفًا ثابتًا لهذا الزعيم الطموح نصف المجنون «هرتزل» فقد كان متحمسًا لإقامة الدولة اليهودية في «سيناء» إن أمكن، وكان أشد تحمسًا لإقامة الدولة اليهودية في «أوغندا»، لكن المصالح الاقتصادية الإنجليزية وقفت ــ في آخر لحظة ــ سدًّا منيعًا في وجهه غير الكريم.

وهكذا فإننا عندما نعود إلى «التاريخ الصحي» القريب لإسرائيل سوف نجد أن «فلسطين» ليست أرضًا مقدسة بالنسبة لهم ولا يحزنون، لقد كانوا يبحثون عن «أي مكان» يقيمون فيه دولة لهم، وكانوا متحمسين لسيناء وأوغندا، لولا أن «الخزانة» البريطانية كانت عينها على مصر وأوغندا، ولا تريد شريكًا لها فيهما بأي صورة.. ولذلك وقعت فلسطين من «قاع القفة» لأنها في يد العثمانيين، وكان الإنجليز يعملون بهمة شديدة للقضاء على العثمانيين، ثم إن فلسطين عربية، والعرب كانوا عند الإنجليز فريسة سهلة لا يشعرون بأي ندم على التفريط فيهم لغيرهم من المفترسين، وهكذا نشأت إسرائيل.

ونعود إلى هذا الزعيم الأول صاحب «اختراع» إسرائيل في العصر الحديث وهو «هرتزل» فسوف نجد أن هذا الرجل الشرير، كان شديد الشك في جميع الناس، فهو يقول في إحدى رسائله لأحد أصدقائه: «أنا في أشد الحاجة إلى صداقة جيدة، وأوشك أن أنشر إعلانًا في الصحف أقول فيه: رجل في ربيع العمر يبحث عن صديق يفضي إليه بأسراره دون أن يخشى سخافاته وتفاهاته. لست أدري هل أنا شكاك أكثر مما يجب؟ هل أنا قليل الثقة بنفسي أكثر مما يجب؟ أم أن عيني ذات رؤية واضحة أكثر مما يجب؟ إنني

لا أجد صديقًا بالأوصاف التي أريدها هنا بين معارفي. فأحدهم غبي جدًا، والثاني غادر جدًا، والثالث يثير أكثر مشاعري حساسية عندما يحاول استغلال مودة قديمة بيننا.. قل لي، هل تشعر أنت أيضًا بمثل هذا الشعور نحو صديق جديد؟!.

إن «هرتزل» لا يثق بالناس.. وليس لديه صديق يأمن له و«هرتزل» أيضًا انتهازي عريق ولا يعبأ بمصائر الشعوب، فهو يكتب في مذكراته عن لقائه بالزعيم الوطني المصري العربي الكبير «مصطفى كامل» وكان ذلك في 24 مارس سنة 1897 حيث يقول: «زارني الشاب المصري مصطفى كامل الذي كان قد زارني من قبل.. زارني ثانية إنه في رحلة «أوروبية» أخرى لجمع المشاعر المؤيدة لقضية الشعب المصري الذي يسعى للخلاص من الاحتلال البريطاني. إن هذا الشاب ـ مصطفى كامل ـ يعطي انطباعًا ممتازًا، وهو مثقف وشديد الرقي وذكي وبليغ. وقد دونت اسمه في ذاكرتي، لأنه قد يلعب يومًا ما دورًا في سياسة الشرق.

وقد ألتقي معه مرة أخرى. إن مصطفى كامل سليل مضطهدينا الفراعنة في مصرايم «وهو اسم مصر في التوراة» يتنهد اليوم من عذاب الرق على يد الإنجليز، وتقوده طريقه إليَّ، أنا اليهودي، طالبًا مساعدتي الصحفية.. أشعر، مع أني لم أخبره بذلك، أنه مما يفيد قضيتنا اليهودية أن يضطر الإنجليز إلى الجلاء النهائي عن مصر، فإنهم سوف يضطرون حينذاك إلى أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند غير قناة السويس التي ستضيع منهم، أو على الأقل تصبح غير مأمونة. عند ذلك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم فسوف نشق لهم طريقًا من «يافا» إلى «الخليج الفارسي»، وبذلك يستغنون نهائيًا عن قناة السويس.

وهكذا كان «هرتزل» يستمع إلى الوطني المخلص مصطفي كامل.. وعقله يدبر لهذا الزعيم الشاب ولبلاده «مؤامرة تاريخية» تقضي على قناة السويس.

على أن القراءة المتأنية لحياة «هرتزل» مؤسس الصهيونية وإسرائيل تؤكد أنه كان رجلاً نصف مجنون.. أما عائلته فكانت كلها من المجانين.

تزوج «هرتزل» بلا حب من «جولي» لأنها كانت فتاة جميلة وغنية، وقد استثمر «هرتزل» ثراء زوجته أسوأ استغلال. وعانت زوجته «جولي» معه عذابًا أليمًا. أما أولاده الثلاثة «هانز» و«بولين» و«ترود» فهذا هو مصيرهم كما ترويه كتب التاريخ: فقد انتحر «هانز» بإطلاق الرصاص على نفسه في غرفة نومه بفندق كان ينزل فيه، أما «بولين» فقد أدمنت «المورفين» وكانت تتردد على عدد لايحصى من الأطباء النفسيين، كما كانت تتردد على النوادي الليلية لترقص في «هستيريا» وجنون لعلها تجد راحة نفسية لم تجدها أبدًا.. وانتهى أمرها بالموت في عز شبابها متأثرة باضطراب نفسها وإدمانها للمورفين والسهر المجنون.

أما الابنة الثالثة «ترود» فكانت مريضة بداء «العظمة»، وكانت تحرص على أناقتها الشديدة، وتردد في كل مناسبة وبدون مناسبة: «أنا ابنة هرتزل»، وانتهت إلى أن تكون نزيلة بمستشفى للأمراض العقلية، حيث ماتت سنة 1943، متأثرة بما كانت تعانيه من مرض نفسي.

هذا هو «هرتزل» «مؤسس الصهيونية الحديثة، وصانع الخريطة الأولى لإسرائيل، والذي تملأ صوره وتماثيله كل مكان في الدولة الصهيونية الآن. فهل هذا رجل يصلح لتأسيس دولة.. أو أنه لا يصلح في الحقيقة لأكثر من القيام بإنشاء مستشفى للمجاذيب»!.

إن «هرتزل» مؤسس إسرائيل هو مجنون أو نصف مجنون، وأبناؤه الثلاثة كلهم مجانين، وعلينا دائما أن نكون على وعي «بالتاريخ الصحي» لإسرائيل، فهي دولة أسسها مجنون من عائلة مجانين. وهذا معنى يجب أن نفكر فيه كثيرًا، وأن نستنتج منه ما ينبغي على العقلاء أن يستنتجوه.

«ملحوظة: كل النصوص والمعلومات الواردة في هذا المقال مصدرها «يوميات هرتزل» إعداد د. أنيس صايغ وترجمة «هيليدا شعبان صايغ» وكتاب «هرتزل» تأليف ديزموند ستبورت وترجمة الأستاذين فوزي وفاء وإبراهيم منصور».

أجمل مذكرات نسائية عربية

مدينة «نابلس» مدينة فلسطينية عريقة تقع على الضفة الغربية لنهر الأردن، وتبعد عن «القدس» بما لا يزيد على خمسة وستين كيلومترًا، ولهذه المدينة تاريخ معروف في النضال الفلسطيني ضد الصهيونية والاستعمار الإنجليزي معًا، وهي الآن مركز من المراكز الرئيسية للانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي، وفي هذه المدينة ولدت الشاعرة الفلسطينية الكبيرة «فدوى طوقان» في أسرة معروفة وعلي جانب من الثراء، فأسرة «طوقان» من أشهر العائلات الفلسطينية، وقد قدمت هذه الأسرة في العصر الحديث عددًا كبيرًا من العناصر القيادية في فلسطين والأردن، منهم السفراء والوزراء والشعراء والمفكرون.

في هذه الأسرة الكبيرة المتميزة بثرائها وثقافتها ولدت «فدوى طوقان». و«فدوى» الآن هي الشاعرة الأولى بين شاعرات العرب جميعًا، خاصة بعد أن انسحبت زميلتها الشاعرة العراقية المعروفة نازك الملائكة من الحياة الأدبية أكثر من عشر سنوات، أما فدوى فما زالت تكتب شعرها الجميل، تعبيرًا عن هموم الإنسان العربي بصورة قوية أصيلة.

على أن «فدوى طوقان» لم تصل إلى مكانتها الأدبية العالية بسهولة ويسر، كما قد يتصور الإنسان عندما يقرأ المعلومات الأولية عن حياتها، فما دامت عائلتها ميسورة ومليئة بالمثقفين والمفكرين والسياسيين والشعراء، فإن من الطبيعي أن تكون حياة

«فدوى» سهلة لينة، وأن يكون طريقها إلى النجاح في الأدب والمجتمع مليئًا بالورد. ولكن الحقيقة كانت على العكس من ذلك تمامًا، فقد عانت «فدوى» معاناة شديدة القسوة والمرارة، لكي تصل إلى ما وصلت إليه من مكانة رفيعة في الأدب العربي الحديث، وبذلت في سبيل ذلك جهودًا كبيرة، اعتمدت فيها على إرادة قوية وعزيمة نادرة، ولولا ما بذلته «فدوى» من جهود خارقة للتغلب على مصاعب حياتها وتنمية موهبتها وتعميق ثقافتها، لانتهت حياتها الأدبية منذ وقت مبكر، ولما استطاعت أبدًا أن تقدم كل هذه الثروة الفنية التي تتمثل في قصائدها الجميلة الرائعة.

إن قصة كفاح «فدوى» من أجل بناء شخصيتها وتحرير نفسها من القيود الكثيرة التي كانت تملأ حياتها، هي قصة نادرة تستحق منا أن نضعها أمامنا ونتعلم من مغزاها الكبير، فالنجاح في الحياة ليس إلا ثمرة للإرادة القوية والعمل المنتظم المخلص والصدق الكامل مع النفس، والنجاح لا يتحقق للإنسان دون كفاح طويل وشاق، والذين يعملون في إصرار وصبر هم وحدهم الذين يحققون النجاح في آخر الأمر، ولا يتحقق النجاح أبدًا لأصحاب الإرادة الضعيفة، والعزيمة المحدودة، والنفوس التي تستسلم للصعوبات، عند الطلقة الأولى في أول معركة من معارك الحياة. وعندما نقرأ شعر «فدوى طوقان» نحس بأن الحزن يملأ هذا الشعر ويسيطر عليه بقوة وعنف، وكان من الممكن أن نتصور أحزان «فدوى» على أنها نابعة كلها من مأساة فلسطين، فمنذ أن ولدت «فدوى» سنة 1917 ووطنها الفلسطيني يتعرض لمؤامرات مستمرة، أدت في نهاية الأمر إلى سيطرة اليهود على كل الأرض الفلسطينية، حتى أصبحت مدينة فدوى نفسها، وهي مدينة «نابلس» في الضفة الغربية، خاضعة للاحتلال الإسرائيلي، وفدوى ترفض أن تترك مدينتها، وترفض أن تترك بيتها الصغير الذي تعيش فيه وحدها منذ سنة 1965 إلى الآن(*)، فهي تصر ـ مهما كانت الظروف ـ على أن تبقى في مدينتها وبيتها وحديقتها حتى النهاية.

كان من الممكن أن نتصور أن المأساة الفلسطينية هي ـ وحدها ـ سبب أحزان «فدوى» التي تملأ قصائدها، والمأساة الفلسطينية كافية بأن تكون مصدرًا لأعمق

(*) (يناير 1991).

الأحزان، وخاصة بالنسبة لشاعرة موهوبة حساسة، عاشت هذه المأساة في مراحلها المختلفة، وشاهدت بعينها كل مامرت به هذه المأساة من مراحل مفجعة، ولذلك فنحن نفهم الحزن في القصائد التي تعبر فيها «فدوى» عن الوطن الفلسطيني وما يتصل به من هموم، مليئة بالدموع، ونجد أن إحساسها بالحياة، والذي تعبر عنه في شعرها هو إحساس مليء بالأسى، ونشعر في كثير من الأحيان أنها تعرضت في حياتها لأزمات عنيفة جعلت أشعارها مليئة بصور السجن والقهر والضياع، ومثل هذه الصور معناها أن الشاعرة تعاني مأساة أخرى بالإضافة إلى مأساة الوطن، وهذه المأساة الأخرى هي مأساة شخصية عميقة الجذور.

وقد ظلت مأساة «فدوى» الخاصة غامضة في كثير من جوانبها، حتى أصدرت فدوى أخيرًا كتابًا بعنوان «رحلة جبلية ـ رحلة صعبة» ـ وفي هذا الكتاب تروي الشاعرة الكبيرة قصة حياتها وتكشف في شجاعة وصدق أسرار حزنها ومعاناتها. وقد قرأت هذه الكتاب الجميل أكثر من مرة، وتذكرت وأنا بين صفحاته المختلفة ما كتبه أدباؤنا الكبار عن حياتهم، مثلما فعل طه حسين في كتابه «الأيام» وتوفيق الحكيم في كتبه «زهرة العمر» و«سجن العمر» و«عصفور من الشرق» وأحمد أمين في كتابه «حياتي»؛ فالشاعرة «فدوى طوقان» تحدثنا في كتابها عن قصة حياتها بنفس الجمال والعمق الذي نحس. به عند كبار أدبائنا الذين كتبوا عن أنفسهم، وعن الظروف التي مروا بها، والآلام المختلفة التي عانوا منها حتى استطاعوا أن يحققوا أهدافهم وينتصروا على المصاعب التي واجهتهم في بداية حياتهم. على أن كتاب «فدوى طوقان» يتميز على هؤلاء جميعًا في أنه مذكرات حقيقية، صادقة وصريحة وشجاعة، تكتبها أديبة عربية، فكل الذين كتبوا عن أنفسهم وآلامهم كانوا من الأدباء الرجال، أما فدوى فهي «امرأة» وهي فوق ذلك «امرأة شرقية» لم تولد في لندن أو باريس، وإنما ولدت في مدينة عربية، كما أنها لم تولد في النصف الثاني من القرن العشرين حيث حققت المرأة العربية لنفسها قدرًا واسعًا من التحرر والانطلاق، بل ولدت سنة 1917، وعاشت طفولتها وصباها وشبابها في العشرينات والثلاثينات والأربعينات. أي أن «فدوى» قد

عاشت في ظل أصعب الظروف التي عرفتها المرأة العربية المعاصرة، وقد كتبت «فدوى» مذكراتها بأمانة، وابتعدت فيها عن أي نوع من أنواع التظاهر والافتعال والهروب من الحقائق، كما كتبت هذه المذكرات بعذوبة شديدة، وقدمتها في أسلوب حلو ساحر بسيط، ولم تكن «فدوى» هي أول أديبة عربية تكتب عن حياتها، ولكنها في هذا الكتاب البديع كانت أكثر الجميع صدقًا وشفافية، فجاءت مذكراتها أجمل مذكرات نسائية عرفها الأدب العربي المعاصر، وسوف تظل هذه المذكرات عملاً بالغ الجمال والأهمية؛ لأنه يجمع بين القيمة الأدبية الكبيرة والقيمة الإنسانية والاجتماعية، وهو مزيج من التعبير عن أحاسيس الشاعرة وتصوير الواقع الاجتماعي بما فيه من تخلف وجمود ومصاعب ضخمة.

كانت بداية الألم في حياة «فدوى» قبل أن تولد. وكانت هي السابعة بين إخوتها العشرة. تقول فدوى: «خرجت من ظلمات المجهول لعالم غير مستعد لتقبلي. أمي حاولت التخلص مني في الشهور الأولى من حملها بي. حاولت وكررت المحاولة، ولكنها فشلت. عشر مرات حملت أمي، خمسة بنين أعطت إلى الحياة وخمس بنات، ولكنها لم تحاول الإجهاض قط إلا حين جاء دوري. هذا ما كنت أسمعها ترويه منذ صغري. كانت مرهقة متعبة من عمليات الحمل والولادة والرضاع، فقد كانت تعطي كل عامين أو كل عامين ونصف العام مولودًا جديدًا». وهكذا حملت أمها بها «على كره» وحين حاولت التخلص من هذا الرقم السابع أي «فدوى» فشلت الأم في ذلك وظل الجنين متشبثًا في رحمها تشبث الشجر بالأرض، وكأنما كان يحمل في تكوينه روح الإصرار والتحدي..

وعندما ولدت «فدوى» لم يكن والدها سعيدًا بها، فقد كان يريد «ولدًا» فجاءته «بنت»، ومثل بقية «أعيان» ذلك العصر في فلسطين، بل في البلاد العربية كلها، كان والد «فدوى» يريد لنفسه عائلة كبيرة قائمة على الأولاد لا على البنات، وهكذا ولدت «فدوى» في ظروف صعبة، فلا أمها كانت تريدها، ولا أبوها كان سعيدًا بمجيئها إلى الدنيا، ومن هنا تشير «فدوى» في مذكراتها إلى أن «الحزن» كان مصاحبًا لها حتى وهي

في بطن أمها، والمعروف أن الأحوال النفسية للأم في أثناء الحمل تؤثر تأثيرًا لاشك فيه على الجنين وتكوينه وأعصابه، ولذلك فإن هذه البداية في حياة «فدوى» وهي «جنين» كانت «نذيرًا» واضحًا بأنها سوف تتعرض لأحزان كثيرة.

وكانت «فدوى» في طفولتها ضعيفة الجسم بسبب «حمى الملاريا» التي تعرضت لها في سنواتها الأولى: «وكان شحوبي ونحولي مصدرًا للتنذر والفكاهة وإطلاق النعوت الجارحة عليَّ: تعالي يا صفراء، روحي يا خضراء»، وهكذا امتلأت طفولة «فدوى» بما كان يؤلمها ويسلب منها أي ثقة بالنفس «وفي ليلة القدر كنت أنزوي عند ركن في ساحة الدار المكشوفة أو عند شجرة من الأشجار وأرفع وجهي إلى السماء ضارعة إليها أن تجعل لخدي لونًا مشربًا بالحمرة، حتى يكفوا عن تسميتي بالصفراء والخضراء، فقد كانت التسمية تجرح إحساسي إلى درجة كبيرة»

وكان بيت «فدوى» الكبير مليئًا على الدوام بالزوار والولائم، ومع ذلك لم تجد طفولتها السعيدة في هذا الزحام، وكتبت عن هذه الطفولة تقول: «كنت أتلهف للحصول على شيء غير الطعام، حلق ذهبي أو سوار أو فستان جميل أو دمية.. كنت أتلهف للحصول على حب من أبي وأمي واهتمام خاص لم يحققاه لي في يوم ما». وتنتهي «فدوى» من الحديث عن طفولتها الأولى بقولها: «إن المشاعر المؤلمة التي نكابدها في طفولتنا نظل نحس بمذاقها الحاد مهما بلغ بنا العمر»

إن أحزان الطفولة التي تعبر عنها «فدوى» تكشف لنا عن حقيقة معروفة، كثيرًا ما ينساها الآباء والأمهات، وهي أن الطفولة مرحلة شديدة الحساسية، وأن من أخطر الأمور أن يتعرض الطفل للقهر المعنوي أو المادي، فمثل هذا «القهر» لابد أن يترك في شخصية الطفل آثارًا سلبية لا تنتهي حتى بعد أن يكبر ويتقدم به العمر. وهذه صورة ترسمها فدوى للفرق بينها وبين ابنة عمها «شهيرة» من حيث معاملة الأم لكل منهما فتقول: «كنت أنظر إلى زوجة عمي وهي تدلل شعر «شهيرة» تمشطه على مهل، وتتهامس معها بحديث الأم المهتمة بإشباع عاطفة ابنتها بشكل تلقائي

وغريزي، وكان هذا كله يحدث أمام بصري وسمعي، بينما كنت أتلقى الضربات على ظهري من قبضتي أمي العصبيتين بسبب ضيقها. بتململي بين يديها. كان تمشيطها لشعري سريعًا عصبيًا موجعًا، فلم تكن لتتعامل مع خصلاته المعقدة الطويلة بتمهل ورفق وبسبب «شهيرة» وقع عليَّ الظلم أكثر من مرة. كانت ابنة عمي تستعمل ضدي أحيانا سلاح الافتراء، حتى لقد عاقبتني أمي ذات يوم بدعك شفتي بالفلفل الحار. ورفعت صوتي بالبكاء المظلوم وأنا أقسم لها أنني بريئة. ولكن المفجع أنه ليس هناك دفاع ممكن ضد الافتراءات. لقد عانيت من أمي مثل هذه المواقف، وبقيت على مدى سنوات طويلة أراني في الحلم وجهًا لوجه مع أمي - حتى بعد وفاتها - هي صامتة وأنا يغمرني شعور بالقهر المكتوم وإحساس عنيف بالغيظ والظلم، أحاول الصراخ لأعبر لها عن ظلمها لي ولكن صوتي يظل مخنوقًا في حلقي فلا يصل إليها. هذا واحد من كوابيس كثيرة كانت تعتريني أثناء نومي باستمرار» ثم تعلق «فدوى» على هذا كله بقولها: «كثيرًا ما يتسربل الحب البنوي بملابس الكره. فبالرغم من أنني كنت شديدة الحساسية لمعاملة أمي التي كانت تبدو لي فظة قاسية غير أنني كنت في نفس الوقت شديدة الالتصاق بها نفسيًا، وأخاف أن تموت وتتركنا وحدنا، وفي ليالي القدر كنت أدعو الله أن يبقي ورقة حياتها خضراء عالقة على الشجرة التي في السماء».

وعندما خرجت «فدوى» من عالم الطفولة وأصبحت صبية على قدر من الوعي اكتشفت نوعًا آخر من الأحزان غير تلك الأحزان الطفولية الصغيرة، فقد أدركت أن هناك «حصارًا وقهرًا اجتماعيًا» مفروضين على المرأة في عائلتها، فكان الخروج من البيت والاختلاط بالآخرين من الأمور الممنوعة عليها وعلي كل نساء الأسرة، حتى ولو كن بنات صغيرات مثلها، وهكذا أصبح على «فدوى» أن تعيش داخل جدران بيتها كأنها في سجن معزول عن المجتمع، ومن خلال هذا الواقع الصعب كتبت «فدوى» تقول في صراحة قاسية: «ظللت أكره الانتماء إلى العائلة التي جعلني سوء الحظ من أفرادها. لقد كنت أفضل دائمًا الانتماء إلى عائلة أقل غنى وأكثر حرية».

وكان لفدوى عمة اسمها «الشيخة» وكانت هذه العمة تمثل الأوامر والنواهي العنيفة التي تتعلق بسلوك المرأة، داخل العائلة، وعن هذه «الشيخة» وتسلطها على نساء العائلة تعطينا «فدوى طوقان» في مذكراتها صورة بالغة الصدق والحيوية فتقول: «عند عمتي هذه كانت مقاييس الحلال والحرام، اللائق وغير اللائق، عجيبة غريبة. لقد كانت تصرخ في وجهي إذا رأتني مرتديةً ثوبًا قصيرًا: هيا، شمري عن فخذيك أكثر، ستدخلين جهنم أنت وأمك التي خاطت لك هذه الملابس المشينة. وكان هذا يشوش صفاء طفولتي وبساطتها، كما كان يصيب عقلي الصغير بالاضطراب.. أمن أجل ثوب قصير «تلبسه طفلة» يدخلني الله جهنم مع أمي؟ وكنت كلما خلوت بنفسي رفعت صوتي بالغناء: «كم بعثنا مع النسيم سلامًا، للحبيب الجميل حيث..»، وتدخل العمة كالزوبعة: اخرسي، أغلقي فمك، لم يبق إلا أن تصبحي مغنية.. وينكسر صوتي فجأة، وتتعلق الأغنية في الهواء مبتورة ناقصة. ولو اخترقت عمتي أعماقي في تلك الأيام لوقع بصرها على أمنية قابعة هناك تحمل كل تطلعي إلى أن أصبح مغنية أو راقصة، فقد كان اسم «مغنية» و«راقصة» يرتبط بالنسبة لي بأحب الأشياء إلى نفسي وهو الحرية، فالواحدة من أولئك المحترفات تملك حرية لا يملكها عالمي الذي أعيش فيه، فليس هناك من يفرض سلطته على المغنية، كما كان الغناء والرقص في نظري أجمل ما في الوجود».

وهذا الحديث الصريح الصادق «لفدوى طوقان» يذكرني بما جاء في مسرحية «عطيل» لشكسبير، فعندما ذهب «ياجو» الحاقد ليحرض «عطيل» على زوجته الجميلة البريئة «ديدمونة» قال له: إن زوجتك تغني وترقص، فرد «عطيل» عليه ردًا جميلاً حيث قال: هذه أشياء فاضلة للمرأة الفاضلة. وكلمة «عطيل» صادقة إلى أبعد الحدود، فالمرأة إذا كانت فاضلة، فإن هذا النوع من «المسرات»، مثل الغناء والرقص والاستمتاع بالموسيقى لا يؤذيها في شيء المهم أن تكون المرأة فاضلة بعيدة عن روح العبث والاستهتار.

ونمضي مع فدوى طوقان في رحلة عذابها، والتي تكتسب أهميتها وقيمتها من أنها لا تصور فدوى وحدها، وإنما هي تصوير لعذاب المرأة العربية في النصف الأول

من هذا القرن، وما كانت تعانيه من أجل أن تحقق حريتها وإنسانيتها، ومن أجل أن تتعلم وتعمل وتشارك في الحياة العامة مشاركة إيجابية، وما أكثر النساء العربيات اللواتي تعرضن لمثل ما تعرضت له فدوى في بدايات هذا القرن، حيث تتحدث فدوى عن حالتها التي تنطبق على الملايين غيرها ممن عشن في مثل تلك الظروف، تقول فدوى:

«في هذا البيت وبين جدرانه العالية التي تحجب كل العالم الخارجي عن جماعة «الحريم»، انسحقت طفولتي وصباي وجزء غير قليل من شبابي. أما الجو العائلي فيسيطر عليه الرجل كما في كل بيت، وعلى المرأة أن تنسى وجود لفظة «لا» في اللغة إلا حين شهادة «لا إله إلا الله، في وضوئها وصلاتها. أما «نعم» فهي اللفظة الببغاوية التي تتلقنها منذ الرضاع. لتصبح فيما بعد كلمة ملتصقة على شفتيها مدى الحياة. حق التعبير عن النفس محظور عليها، الضحك والغناء من المحرمات، ويمكن اختلاسهما بعد أن يغادر الرجال إلى أعمالهم. الاستقلال الشخصي مفهوم غائب لا حضور له إطلاقًا في حياتها».

وتدخل فدوى طوقان بعد ذلك المدرسة، وتبقى فيها أربع سنوات. وكانت متفوقة في دراستها، وبدأت مواهبها تتفتح وتلفت نظر مدرسيها، كما بدأت تحس ببعض التحرر من القيود العنيفة التي كانت تسحقها في داخل عائلتها المحافظة. وتصور فدوى فترة الدراسة في صورة جميلة فتقول:

«أصبحت المدرسة أحب إليَّ من البيت والمكان الأكثر ملاءمة لي، وفي المدرسة عرفت مذاق الصداقة وأحببته. كانت رفيقة مقعدي الدراسي تلميذة في مثل سني اسمها «عناية النابلسي، وكانت أحب صديقاتي إليَّ وأقربهن إلى نفسي، وقد بلغ من شدة تآلفنا أن ابتدعنا طريقة غريبة لتأكيد صداقتنا، فلجأنا ذات يوم إلى وخز إبهامينا، ولعقت هي قطرة الدم التي نفرت من أصبعي، كما لعقت قطرة الدم على أصبعها، وكان هذا توقيعًا على «أخوة دم لا انفصام لها».

هذه الحادثة الصغيرة تكشف لنا عن حنين «فدوى» العنيف إلى أن تكون على صلة بالدنيا والناس خارج نطاق العائلة، كما تكشف عن العواطف الإنسانية الدافئة التي يمتلئ بها قلبها منذ الطفولة والصبا الأول.

بعد سنوات الدراسة الأربع جاءت اللحظة الأليمة التي توقفت فيها «فدوى» عن الذهاب إلى المدرسة بأمر من أهلها أما سبب منعها من الدراسة فهو قصة حب صبيانية لم تعجب أحد إخوتها فأصدر أمره «السامي» يمنعها من الذهاب إلى المدرسة أو الخروج من باب البيت.

وهذه هي القصة كما ترويها «فدوى» فتقول:

«لفت نظري تفتح جسدي. خفت وخجلت. وأربكني نمو الصدر الذي أصبح الآن ملحوظًا، فكنت أعمل على إخفاء هذا النمو، ورحت أراقب الأمر كله بحياء شديد كما لو كان ذنبًا مخجلاً أستحق العقاب من أجله. عند وصولي تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئًا عن الحب على الإطلاق، فلم يكن هذا الموضوع مما يتناوله أفراد الأسرة على سمع منا نحن الصغار. وجاء الربيع، وعرفت هذا الشيء المسمى حبًّا، والذي ظل مثل الشرنقة يلتف حول وجودي إلى ما لا نهاية»

«هنا جاء جواب السؤال الذي حرمته عليَّ أمي، جاءني محمولاً على زهرة فل، عبقت رائحتها، وعلقت بجدران قلبي

ورائي الآن وأنا أستحضر تلك الحادثة عشرات الأعوام، ولكن حدة الانفعالات التي بعثتها في نفسي، والدهشة التي تولدت من تلك الانفعالات هي من الأشياء التي لا تنسى أبدًا، اكتشفت شيئًا جديدًا في نفسي وفي العالم، شيئًا غريبًا جدًّا، ووقفت مبهورة الأنفاس أمام دهشة الحب الأول. امتلأت الأعماق بعطر زهرة الفل الغامض العجيب، وحرك مشاعري شيء يستعصي على التفسير، وراح القلب يذوب تحت تأثير الأغاني المترعة بالعاطفية الشرقية الساخنة. منذ ذلك الحين ضربت أغاني محمد عبد الوهاب جذورها في قلبي وظل عندي سيد الغناء. كانت تلك الأغاني تعمل على

تكثيف شعوري الغائم المبهم، فقد كانت هذه أول مرة أحس فيها بدقات قلبي وتواثبه، كان يفوتني إدراك معاني الأغاني إدراكًا عقليًا، لكن مشاعري كانت تعب من الجو العاطفي للصوت والأغنية فترتوي وتزداد كثافة وتوهجًا.

فقدت شهيتي للطعام. ولأول مرة عرفت الأرق الجميل المليء بالأخيلة والتصورات الهائنة، ولأول مرة عرفت كيف يغطي وجه إنسان ما كل الوجوه الأخرى، ويكتسح الوجود بكامله.

كان غلامًا في السادسة عشرة من العمر، ولم تتعد الحكاية حدود المتابعة اليومية في ذهابي وإيابي. فما كان لمثلي أن تزوغ يمينًا أو شمالاً. كانت الطاعة من أبرز صفاتي، وكنت مسكونة دائمًا بالخوف من أهلي. كان التواصل الوحيد الذي جرى لي مع الغلام هو «زهرة فل» أرسلها إليَّ ذات يوم مع صبي صغير وأنا في طريقي إلى بيت خالتي. ثم حلت اللعنة التي تضع النهاية لكل الأشياء الجميلة. كان هناك من يراقب المتابعة، فوشي بالأمر لأخي «يوسف» ودخل يوسف عليَّ كزوبعة هائجة: قولي الصدق.. وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطب بها الآخرين، العنف والضرب بقبضتين حديديتين، وكان يتمتع بقوة كبيرة لفرط ممارسته رياضة حمل الأثقال.

أصدر حكمه القاضي بالإقامة الجبرية في البيت حتى يوم مماتي كما هددني بالقتل إذا أنا تخطيت عتبة المنزل، وخرج من الدار لتأديب الغلام.

عاد أبي ذات صباح إلى البيت لبعض شأنه وكنت أساعد أمي في ترتيب غرف النوم، وحين رآني سأل أمي لماذا لا تذهب البنت إلى المدرسة قالت: تكثر في هذه الأيام القصص حول البنات فمن الأفضل وقد بلغت هذه السن أن تبقى في البيت.

قال أبي: حسنًا وخرج!!

وهكذا أصبحت «فدوى طوقان» ممنوعة من الذهاب إلى المدرسة ومحكومًا عليها بالبقاء في البيت، بسبب قصة حب طفولية بريئة، لم تتبادل فيها كلمة واحدة مع

حبيبها. وكل ما فعله هذا الحبيب الصامت أنه يتابعها وهي ذاهبة إلى المدرسة أو وهي عائدة إلى البيت، كما أنه ارتكب جريمة أخرى هي أنه أرسل إليها «زهرة فل» مع صبي صغير.

تقول فدوى بعد الحادثة التي منعتها من الدراسة: «انزرعت في نفسي الغضة الطرية فكرة سيئة عن هذه النفس، خلقت فيَّ عادة السير وأنا مطأطئة الرأس لا أجرؤ على رفع عيني نحو الوجوه التي كانت تلقاني صباح مساء بالعبوس والكراهية. لقد شوهوني أمام نفسي، ولقد لفت نظر خالتي الطريقة غير الطبيعية التي صرت أتخذها وأنا أمشي أو أجلس، وأخذت تطلب مني باستمرار أن أرفع رأسي وأمشي بقامة منتصبة»

وفكرت «فدوى» في الانتحار بعد منعها من الذهاب إلى المدرسة وتحديد إقامتها وراء جدران البيت. وكانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالها هي أن تسكب على نفسها كمية من «الجاز» وتشعل النار في جسدها، ولكنها كانت «تخاف الألم الجسماني ولا تطيق تحمله» ففكرت في وسيلة أخرى وهي الانتحار بالسم، ولكن: «من يأتيني به؟ هذا بالإضافة إلى كونه يسبب آلامًا شديدة قبل الموت، وكان هذا كافيًا لتحويل ذهني عنه».

تقول فدوى:

«كان الانتحار هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أمارس من خلاله حريتي الشخصية المسلوبة. كنت أريد التعبير عن تمردي بالانتحار. الانتحار هو الوسيلة الوحيدة، هو إمكانيتي الوحيدة، للانتقام من ظلم الأهل».

«خلال هذه الشهور الصعبة كان يتردد عليَّ حلم بالذات، كنت أراني أركض في زقاق مظلم هربًا من عجوز يركض ورائي، تشي سحنته بروح التعدي والأذى.. ولكن جدارًا مسدودًا كان يحول بيني وبين الهرب، فأتحول إلى زقاق آخر لأجده مسدودًا كذلك، والعجوز يركض ورائي كوحش هائج وأنا ألهث رعبًا وتعبًا من الجري المستمر

بدون توقف، ثم أستيقظ غارقة في العرق، لاهثة الأنفاس، وصرت أنفر من النوم خوفًا من الأحلام الضاغطة».

ولكن فدوى لم تنتحر، وهي في نفس الوقت لم تستسلم للهزيمة، فبدأت تتعلم في بيتها وتستخدم شتى الوسائل الممكنة لكي تكسر الحاجز القائم بينها وبين الثقافة والحياة، واستطاعت أن تكتسب ثقافة واسعة تفوقت فيها على من تخرجوا في الجامعات العربية والأجنبية وتمكنت فدوى من إطلاق مواهبها الكامنة لتصبح من أكبر الشاعرات في تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى الآن وقصة كفاح فدوى وانتصارها على ظروفها الصعبة القاسية قصة جديرة بحديث جديد بعد هذه الرحلة مع العذاب والألم.

متاعب امرأة وحيدة

قلبي مرتعد بالخوف

أبدًا مرتعد بالخوف

أبدًا أرضي تهتز، تميد، تدور بلا محور من ينقذني من هذا الخوف؟

هكذا كتبت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان في قصيدة لها تصور فيها شعورها بالخوف الدائم، وهو الشعور الذي سيطر على حياتها، والذي بذلت جهودًا خارقة للتغلب عليه والتخلص منه. فقد عاشت فدوى طوقان طفولتها وصباها الأول في جو عنيف من القهر الاجتماعي، ومنعها أهلها من الاستمرار في التعليم وأخرجوها من المدرسة الابتدائية وحكموا عليها بأن تكون سجينة البيت، وذلك بعد أن اكتشفوا أن هناك صبيًا من صبيان مدينتها نابلس يتابعها في ذهابها إلى المدرسة وعودتها منها، وأن هذا الصبي قد أرسل إليها زهرة «فل» تعبيرًا عن عواطفه الصامتة نحوها. وهكذا أصبحت فدوى طوقان ممنوعة من «التعليم» وممنوعة من «الحب»، وممنوعة من الخروج من البيت، وكان عليها أن تواجه كل هذه المتاعب، وتحاول الانتصار في المعارك المختلفة ضد الذين يريدون أن يفرضوا عليها الجهل، وجمود الإحساس والعاطفة، والابتعاد عن نور الحياة وشمسها الدافئة.

وفي قصة حياتها التي اختارت لها عنوان «رحلة جبلية، رحلة صعبة»، تقدم فدوى طوقان نماذج عديدة للتجارب التي عانت منها أشد المعاناة في داخل أسرتها

الفلسطينية الكبيرة المحافظة. تقول فدوى: «كنت أحس دائمًا أنني تحت المراقبة، ولقد مزق ابن عمي الكبير فستانًا كنت أرتديه ذات مساء، ولم يكن الفستان يفتقر إلى الحشمة بحال من الأحوال، ولكن عيبه الوحيد أنه كان يكسبني مظهرًا جميلاً».

وتواصل «فدوى» تصوير متاعبها في ذلك الجو العائلي القاسي، وما تركه هذا الجو من آثار سلبية على تكوين شخصيتها بصورة عامة فتقول: «هذا العالم الذي كنت أعيش فيه، ظل شديد الوطأة على نفسي، حتى لقد سيطر عليَّ الشعور بالعبودية والقسر، أخذت أحس أن المساعدات المستأجرات في البيت «الخادمات» أكثر حرية وسعادة مني، وظللت أعجز وأضعف من أن أفرض نفسي على الأشياء والأمور التي كانت تجري من حولي، كنت على وعي بمهانة هذا الوضع وبعجزي عن تحطيمه والخروج من إطاره، وهكذا قام خصام لا هدنة فيه بين نفسي المقهورة بالكبت، وبين الواقع المتجهم الذي أحياه، مما أوجد في نفسي انقسامًا شقها إلى نصفين: نصف كان يبدو للأعين مستسلمًا خاضعًا، ونصف كان يبرق ويرعد تحت السطح ويكاد يدمر نفسه».

وتروي «فدوى» بعد ذلك قصة محاولتها تعلم اللغة الإنجليزية وكانت في الثانية والعشرين من عمرها فتقول: «في عام 1939 حانت لي الفرصة لتعلم الإنجليزية، وسمح أبي لي ولشقيقتي بأخذ دروس خصوصية لدى فتاة مسيحية كانت قد تخرجت حديثًا في مدرسة «الفرندز» في «رام الله». أخذنا الدرس الأول، ثم صدر القرار بالتوقف فقد اعترض بعض أرباب العائلة على هذا الأمر «الناشز» حين علموا به، وكان أبي حريصًا على إرضائهم».

ثم تتحدث «فدوى» عن التناقض الصارخ في حياة رجال العائلة فتقول: «كانوا يرتدون الزي الأوروبي، ويتكلمون التركية والفرنسية والإنجليزية، ويأكلون بالشوكة والسكين، ويقعون في الحب، ثم يقفون بالمرصاد كلما حاولت إحدانا تحقيق إنسانيتها عن طريق التطور الطبيعي أو التطلع إلى الأفضل والأحسن. كانوا يمثلون خير تمثيل جمود الإنسان العربي، وعجزه الكلي عن الاحتفاظ بشخصية واحدة غير مشطورة،

ظلوا يمثلون انقسام العربي شطرين: نصفًا مع التطور والتجارب مع روح العصر ومسايرة إيقاعات الحياة المعاصرة، ونصفًا مشلول الأقدام، مسكونًا بالأنانية المترسبة في نفس الرجل العربي بكل ما فيها من عنجهية شرقية تلك العنجهية التي ظل الرجال يعاملون بوحيها الإناث من ذوي قرباهم. وهكذا كان كل ما حولي يضغط عليَّ حتى جدران الدار الأثرية، كنت أحسها تجثم على صدري بكل ثقلها وشموخها، كم كنت أشتهي النوم تحت السماء، لا سقف من فوقي، ولا جدران من حولي، ولا أقارب بجانبي».

هذه هي بعض، الصور الأليمة التي رسمتها الشاعرة «فدوى طوقان» لنفسها وظروفها الصعبة. على أن «فدوى» كانت تملك في أعماقها إرادة الحياة والرغبة العميقة في التخلص من الصعوبات والتحرر من القيود التي تحد من حركتها، وقد قرأت فدوى يومًا حكمة للفيلسوف الصيني «كونفوشيوس». فحفظتها بل وكتبتها على ورقة، وألصقت الورقة على باب «دولابها» من الداخل حتى لا يراها أحد غيرها، وهذه الحكمة الجميلة تقول:

«حتى صغار الطير يمكنها أن تطير لو أرادت، فليس في الوجود مستحيل أمام الإرادة التي لا تقهر».

وقد اعتمدت فدوى على إرادتها، واستمدت التشجيع والحماس من حكمة الفيلسوف الصيني، وقررت ألا تستسلم أبدًا لظروفها الصعبة، وكانت قد أحست في بداية تفتحها للحياة أنها تملك موهبة شعرية، ولذلك اختارت فدوى أن يكون الشعر هو طوق النجاة بالنسبة لها وأخذت تحلم بأن ينقذها «الشعر» من الرغبة الملحة في الانتحار والتخلص من الحياة، وأن يملأ حياتها بشيء من الأمل والتفاؤل، بدلا من اليأس والتشاؤم، وتقول «فدوى» عن حبها للشعر وتعلقها به بعد منعها من الذهاب إلى المدرسة: «كنت أقوم بأعمال المنزل وبجيبي دائمًا قصيدة للحفظ أكوي قمصان إخوتي وبنطلوناتهم، وأنا أحفظ الشعر، أرتب الأَسِرَّة وأنا أحفظ الشعر، وأملأ المصابيح بسائل الاشتعال وأنا أحفظ الشعر. لم تكن الإضاءة بالطاقة الكهربائية متوافرة في «نابلس» في تلك الأيام، بعكس المدن

الأخرى في فلسطين، فقد كان المجلس البلدي قد قاطع مشروع «روتنبرج» اليهودي حين خصت حكومة الانتداب البريطاني شركة «روتنبرج» بمنح توليد الطاقة، وكان ذلك في العشرينيات، وقد بقي سكان نابلس يستضيئون بمصابيح الغاز حتى الأربعينيات».

وإذا كانت فدوى قد اكتشفت حبها للشعر، فقد كان أمامها مشكلة أساسية هي: كيف تتعلم كتابة الشعر، وكيف تحصل على ثقافة شعرية واسعة تمكنها من ذلك، وكيف تدرس أصول الشعر وقواعده؟ إنها أسيرة في بيتها لا تستطيع الذهاب إلى المدرسة أو الاتصال بأستاذ يعلمها وينير لها الطريق.

والموهبة وحدها لا تجدي في الشعر ولا في أي فن من الفنون، ولابد من الدراسة إلى جانب الموهبة وإلا فإن الموهبة تذبل وتموت. وهنا تظهر مصادفة من المصادفات القليلة الحسنة في حياة «فدوى طوقان»، فقد كان أخوها «إبراهيم طوقان» شاعرًا موهوبًا وكان يكبرها باثنتي عشرة سنة، وقد درس إبراهيم بالجامعة الأمريكية في بيروت، وكان واسع الثقافة مستنير العقل، طيب القلب، بعيدًا عن التعصب والتشدد في معاملة المرأة داخل أسرته، وقد أحب «فدوى» وأحس بمشكلتها وشعر بالعطف العميق عليها، واقتنع أن من حقها أن تتعلم وتجد الفرصة للتفتح الذهني والوجداني. بعد أن قضت تقاليد العائلة بحرمانها من التعليم المنتظم في المدارس. وكان إبراهيم طوقان من أفضل شعراء فلسطين في جيله، بل لعله كان أفضل هؤلاء الشعراء جميعًا، ورغم أنه توفي صغيرًا، في السادسة والثلاثين من عمره فقد استطاع أن يترك أثرًا قويًا في الحركة الأدبية والوطنية في فلسطين، فكان صوتًا شعريًا للثورات الفلسطينية المتتالية في الثلاثينيات ضد الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية، ولإبراهيم طوقان قصائد مشهورة يحفظها الفلسطينيون جيلاً بعد جيل. ومن أشهر هذه القصائد قصيدة «الفدائي» التي يقول فيها:

هو بالباب واقف

والردى منه خائف

فاهدئي يا عواصف

خجلاً من جراءته

صامت لو تكلما

لفظ النار والدما

قل لمن عاب صمته

خلق الحزم أبكما

وأخو الحزم لم تزل

يده تسبق الفما

لا تلوموه، قد رأى

منهج الحق مظلما

وبلادا أحبها

ركنها قد تهدما

وهكذا جمع إبراهيم طوقان في شخصيته بين الوطنية والإنسانية والثقافة والموهبة، وقد رأى الوضع «التعيس» الذي تعيش فيه أخته «فدوى» فقال لها ذات يوم: سأعلمك نظم الشعر وكانت فدوى في الثالثة عشرة من العمر، وكان أخوها في الخامسة والعشرين، وكان ذلك سنة 1930. وتحدثنا «فدوى» عن هذه اللحظة العزيزة في حياتها فتقول: «سكبت أمي الطعام لأخي، ولكنه ترك الغرفة، ولحقت به، وارتقينا معًا السلم المؤدي إلى الطابق الثاني حيث غرفته ومكتبته. وقف أمام رفوف الكتب وراح ينقل عينيه فيها باحثًا عن كتاب معين، أما أنا فكان قلبي يتواثب في صدري وقد كتمت أنفاسي اللاهثة. دقيقتان، وأقبل عليٌّ وفي يده كتاب «الحماسة» لأبي تمام. ونظر في الفهرس ثم فتح الكتاب عند صفحة بالذات. قال: هذه القصيدة، سأقرؤها لك وأفسرها بيتًا بيتًا ثم تنقلينها إلى دفتر خاص وتحفظينها غيبًا، لأسمعها منك هذا المساء عن ظهر

قلب. ونزلنا إلى غرفة الطعام، وفي قلبي عالم جديد يضطرب بالانبهار والتوقع. في المساء أسمعته القصيدة غيبًا دون خطأ أو تلكؤ في تلاوتها».

«حين أويت إلى فراشي ذلك المساء كنت أحتضن بين ذراعي دفترًا ذا لون حشيشي باهت، وقلمًا أزرق اللون وعيدًا من أعياد الشعور. ها أنا أعود إلى الدفاتر والأقلام والدراسة والحفظ. ها أنا أعود إلى جنتي المفقودة. وعلى غلاف دفتر المحفوظات تلألأت بعيني هذه الكلمات التي كتبتها بخطي الرديء، خط التلميذة في الثالثة عشرة من عمرها:

الاسم ـ فدوى طوقان

الصف ـ شطبت الكلمة وكتبت بدلا منها المعلم: إبراهيم طوقان.

الموضوع ـ تعلم الشعر

المدرسة ـ البيت.

ولم تكن هذه في عيني كلمات، بل كانت شموسًا وأقمارًا. قبلها كانت حياتي واقفة لا تسير مع الزمن ولا أعرف ماذا أفعل بها. أما الآن فها هي حياتي تتحرك، وها هو إيقاعها يسرع، وها أنا أشعر بتجددي وبعودة الثقة بالنفس من جديد».

وهكذا وجدت «فدوى طوقان» نفسها عندما وجدت هدفًا لها، أحبته بإخلاص وعاشت من أجله، وقد حررها هذا الهدف، وهو حب الشعر ودراسته، من الأفكار المتشائمة السوداء التي كانت تملأ رأسها وقلبها، والتي كادت تقودها إلى الانتحار والتخلص من الحياة، وهي مازالت على أعتاب الحياة. ومن خلال تجربة «فدوى طوقان» هذه نستطيع أن نهتدي إلى معنى من أجمل معاني السعادة في هذه الدنيا. فمهما أحاط الظلام بنا، ومهما امتلأ طريقنا بالمصاعب والمتاعب، فإن علينا ألا ننسى لحظة أن من الضروري أن تكون حياتنا مرتبطة بهدف واضح محدد، نحبه ونؤمن به ونعمل من أجله، حتى لو كان هذا الهدف صغيرًا ومحدودًا، فكل هدف هو شمعة

تضيء حياة الإنسان، وتوفر له النور في قلبه وعقله، وهذا الهدف وحده هو الذي يحمل السعادة إلى النفس ويعطيها قوة الصبر والتحمل، ويقدم للإنسان نوعًا من الرضا والاقتناع بأن حياته، مهما كانت بسيطة، هي حياة لها معني وقيمة. وحول هذه الفكرة تقول فدوى طوقان: «لا أذكر من الذي قال إننا لو نظرنا إلى مخلوق سعيد لوجدناه يبني منزلا أو يضع لحنًا أو يربي طفلاً أو يزرع أرضًا. ذلك أن تلمسنا للسعادة لا يكون إلا خارج أنفسنا». نعم، فالسعادة الحقيقية لا تتحقق لأي إنسان إلا إذا وجد هدفًا خارج نفسه، يبذل من أجله جهدًا، ويتعب في سبيل تحقيقه، أما الذين يحبسون أنفسهم داخل أنفسهم فلن يعرفوا طريق السعادة ولن يستطيعوا أبدًا أن يلمسوا بأيديهم بهجة الحياة وعذوبتها وما فيها من دفء كبير.

لقد كانت المصاعب في حياة «فدوى» كثيرة وكانت هناك قيود مفروضة عليها، ولم يكن أمامها سوى أن تعيش سجينة منزلها حتى يأتي إليها الزوج الذي يختاره الأهل ويرضون به فتذهب إلى داره لتعيش في سجن جديد. ولكن «فدوى» كانت تحلم بمصير آخر، هو الحرية والمعرفة وكانت تحلم بأن تحب، وإن تزوجت فلا يكون زواجها إلا بمن يختاره قلبها، لا بمن يختاره الأهل والأقارب، وكان حرمانها من الذهاب إلى المدرسة كفيلاً بأن يقضي على كل أحلامها، ولكنها ظلت تبحث عن نافذة تفتحها على حياتها، حتى وجدت هذه النافذة في حب الشعر وقراءته ودراسته، وكان القدر رحيمًا بها حينما وضع في طريقها أخاها الطيب الحنون «إبراهيم»، فقد امتلأ قلبه بالعطف على أخته الضعيفة المكسورة فأعطاها من وقته وثقافته وجهده، ما عوضها عن آلامها في بيتها الذي يشبه السجن ويحرمها من كل معاني الحرية والسعادة.

وقد وصفت «فدوى طوقان» تسلل أشعة السعادة الدافئة إلى حياتها في هذه الفترة وصفًا جميلاً، حيث تقول: «كنت أستيقظ مع الفجر أو قبله، فأعد قهوتي وآخذ مقعدي أمام دفتر التمارين وأمضي في العمل. كان هذا العمل الدراسي كل صباح شيئًا أتطلع إليه قبل النوم، وأفيق عند الفجر وقد ألقى التفكير بعملي الدراسي وهجه على ساعات الصباح كلها، فكانت تلك الساعات تزهر بالحيوية والنشاط النفسي، ولم يكن ينغصها

إلا استيقاظ أفراد الأسرة الواحد بعد الآخر، وكانت أسرة كبيرة تزيد على عشرين إنسانًا، ومع يقظة كل هؤلاء تبدأ الحركة والأصوات المختلطة بصراخ الأطفال وضجيج «بوابير» الجاز ـ البريموس ـ العديدة والتي كانت تؤدي وظيفتها في وقت واحد».

كانت الساعات المكرسة للدراسة في الصباح الباكر هي التي تجعل يومي كله حافلاً بالنشاط والمتعة. وأصبح الشعر شغلي الشاغل في يقظتي ونومي، في وجداني وضميري، أصبح حبي الذي ظل طيلة حياتي حبًا صوفيًا، ليس بالمعنى الديني، بل بما في الحب من شدة وبما يبعثه في أعماقي من نشوة باهرة، كان الانكباب على الدراسة هو عالم الخلاص».

«في استغراقي في عالمي الجديد عرفت مذاق السعادة. كنت مستغرقة في عملية خلق نفسي، وبنائها من جديد، والبحث الطموح عن إمكانياتي وقدراتي، مما شكل ثروة وجودي. إن عادة إعطاء أحسن ما لدينا، ووعينا بأن أيام حياتنا لا تهدر عبثًا، يعطينا الشعور بتملك النفس، وبالسلام والهدوء».

«بالرغم من أنني كنت لا أزال تحت الإقامة الجبرية، فإن الدراسة وحفظ آلاف الأبيات من الشعر العربي القديم قد غسلت نفسي من العذاب واجترار مشاعر الشفقة على الذات والإحساس بالظلم. أصبح الشعراء الجاهليون والأمويون والعباسيون يعيشون معي، يأكلون ويشربون ويقومون بأعمال المنزل ويستحمون ويتحدثون إليَّ وأتحدث إليهم. لم أحبهم كلهم في وقت واحد، بل كنت أستغرق في حب شاعر واحد كل مرة، حتى إذا استنفدت ما عنده شعرت بالاكتفاء والحاجة إلى شاعر آخر، واكتشاف عالم جديد. وهكذا».

لقد تغلبت «فدوى» إذن على جانب أساسي من مشاكل حياتها، وهو جانب «التعليم» و«الثقافة» والحصول على هدف تحبه وتقبل عليه بحماس وقوة، وكان هذا الهدف هو حبها للشعر وإقبالها على دراسته

ثم تقدمت فدوى خطوة أخرى إلى الأمام فبدأت تكتب الشعر، وكانت قصائدها الأولى تعبيرًا عما تحس به من مشاعر الأسى والحزن وغير ذلك من العواطف التي

تملأ قلبها وتمثل انعكاسًا للحصار الشديد الذي تعاني منه. وكانت «فدوى» تخاف من نشر شعرها في الصحف والمجلات بتوقيعها الصريح، ففي ذلك نوع من «الفضيحة» في نظر أهلها وبيئتها المحافظة. كيف تكتب فتاة من هذه العائلة الكبيرة شعرًا عن الحب، وكيف تقول للناس إنها تحلم بهذا الحب أو تتمناه أو تعيش مع أحلامه المختلفة. ذلك كان خروجًا على الأخلاق الاجتماعية لايغفره أحد، وفي نشر هذا الشعر نوع من «تلويث» سمعة المرأة وسمعة العائلة في وقت واحد.

واهتدت «فدوى» إلى حل ينجو بها من هذا المأزق الجديد. فقد قرأت في كتاب «الأغاني» للأصفهاني أن «يحيى البرمكي» وزير هارون الرشيد كان يملك جارية اسمها «دنانير» وقد ألهم ذلك «فدوى» بأن تنشر قصائدها العاطفية تحت اسم مستعار هو «دنانير» وعن هذا الاسم المستعار تقول فدوى:

«كنت أوقع قصائدي الغزلية باسم «دنانير» وأبعث بها إلى مجلة «الأمالي» البيروتية، وإلى مجلة «الرسالة» القاهرية حينا آخر. كانت كلمة الحب تقترن في ذهني بصورة الفضيحة والعار، فهذه هي الصورة التي طبعتها في نفسي البيئة المحيطة بي منذ الصغر، وحين فكرت لأول مرة في نشر مقطوعتين لي في مجلة «الأمالي» أخذت من كتاب الأغاني، بكل ما أحمله من سذاجة وبراءة، قول أبي الفرج الأصفهاني، عن الشاعرة «دنانير» جارية يحيى البرمكي: «وكانت دنانير شريفة وعفيفة» وجعلت من هذه العبارة مدخلاً للمقطوعتين الشعريتين أحتمي بها من عار الحب، ولكي أؤكد للقارئ أن شعر الحب لا ينفي صفة العفة والشرف عن الأنثى قائلة ذلك الشعر».

وكانت «فدوى طوقان» توقع أيضًا باسم مستعار آخر غير اسم «دنانير» هو «المطوقة» وقد اشتقت هذا الاسم «من اسم أسرتها طوقان» كما أن هذا الاسم المستعار كان يحمل تعبيرًا عن الظروف والأوضاع التي تعاني منها هذه الشاعرة الحساسة الصادقة، فالمطوقة هي المقيدة والخاضعة للحصار من كل جانب.

وشيئًا فشيئًا أصبحت «فدوى طوقان» مشهورة ومعروفة في الحياة الأدبية العربية، وقد منحتها الشهرة والنجاح الأدبي شيئًا من الحصانة، وأصبحت تملك قدرًا من الحرية لم

تكن تملكه من قبل، وبدأت تنشر شعرها باسمها الصريح، ووجد أهلها في شعرها ما يفخرون به ويعتزون، خاصة تلك الأشعار الوطنية التي تعبر عن هموم أهل فلسطين وأحزانهم الكبيرة، أما الحب، وشعر الحب، فقد بقيا في حياة «فدوى» نوعًا من المتاعب الرئيسية. لم تكن «فدوى» تستطيع أن تحقق أي اتصال مباشر بالآخرين، وأن تبني معهم علاقات حب «واقعية»، وكانت فدوى تصر على أن يكون زواجها ـ إن تزوجت ـ قائمًا على الحب والاختيار الحر من جانبها وكان أهلها يرفضون كل الرفض أن تتزوج من خارج أسرتها أو طبقتها الاجتماعية وكانوا يرفضون أن تتزوج بعد قصة حب يعرفها الجميع ويسمعون بها وظل أهلها حتى بعد شهرتها ونجاحها الأدبي، يراقبون تصرفاتها واتصالاتها بالآخرين، ويفرضون عليها الأوامر الصارمة بقطع أي اتصال بشخص غريب، من ذلك أنها بعد أن قرأت بعض قصائد الشاعر المصري الكبير علي محمود طه كتبت إليه تعبر عن تقديرها لشعره وإعجابها به، وقد رد الشاعر على رسالتها، وبعث إليها بنسخة من ديوانه «ليالي المَلاَّح التائه»، وكان علي محمود طه في ذلك الحين، سنة 1940، نجمًا ساطعًا في سماء الشعر العربي، واستمرت المراسلات الأدبية بين «فدوى» و«علي محمود طه» لفترة قصيرة وكانت «فدوى» سعيدة بهذه المراسلات سعادة كبيرة، ثم فجأة تتلقى فدوى «أمرًا من بعض أرباب العائلة بقطع أواصر تلك المراسلات الأدبية مع الشاعر المصري»، بالرغم من أن هذه المراسلات لم تكن إلا مراسلات أدبية خالصة، وقد انقطعت هذه المراسلات بالفعل لأن فدوى اضطرت ـ رغم إرادتها ـ إلى التوقف تمامًا عن الرد على رسائل «علي محمود طه» دون أن تشرح له سبب التوقف، وتقول «فدوى» عن هذه القصة: «كان الحديث في تلك الأيام عن حقيقة أوضاعي التعيسة يملؤني ذلاً وهوانًا، ولذلك كنت أوثر كتمان تلك الأمور، وهكذا مضى المرحوم علي محمود طه إلى العالم الآخر «سنة 1949» دون أن يعرف شيئًا عن الحقيقة المؤلمة».

وهناك نموذج ثان لعلاقة نشأت بين فدوى وشاعر مصري آخر هو «إبراهيم نجا»، وكان شاعرًا رقيقًا من جيل «فدوى» أو أكبر منها بقليل، وقد توفي أوائل السبعينيات بمرض تليف الكبد، ولكن العلاقة التي نشأت بين «فدوى» و«إبراهيم نجا» عن طريق الرسائل

فقط، دون أي لقاء مباشر بينهما، تحولت إلى عاطفة رومانسية مشتعلة في قلب فدوى وقلب إبراهيم، وكان هذا الحب من بعيد وعن طريق الكلمات، فهي الطريقة الوحيدة المتاحة للحب في حياة «فدوى» فهو حب يمكن إخفاؤه وكتمانه وإبعاده عن الأنظار، ومع ذلك فبعد فترة من تبادل الرسائل بين «فدوى» و«إبراهيم نجا»، كتبت «فدوى» إلى إبراهيم رسالة، أطلعني عليها إبراهيم ـ رحمه الله ـ قبل وفاته، وفي هذه الرسالة تقول «فدوى»:

«ماذا أقول؟ أنا خائفة، إن قلبي يكاد ينفجر في صدري مما يملؤه، أنا لا أستطيع أن أقوم بكل هذا العبء، فخذ أنت بيدي ناشدتك الله، وأعني على مقاومة هذه العواطف الجامحة، أتوسل إليك أن تقطع رسائلك عني.. لا، لا أريد أن تكتب إليَّ بعد اليوم، كن عوني على هذا البلاء العظيم، إنني أضيق به، ولا أطيق له احتمالا، فوداعًا، برغم قلبي أقولها، إنها كلمة أجد فيها مذاق الموت، سأذكرك ما عشت. سيحن إليك قلبي مادام في قلبي نسمة حياة».

وهكذا انتهت العلاقة العاطفية التي نشأت بينها وبين الشاعر المصري، وهي علاقة بدأت على الورق وانتهت على الورق وهذه القصة نفسها تكررت في حياة «فدوى» عدة مرات، فكانت تنشأ بينها وبين بعض الأدباء والشعراء علاقات عاطفية عن طريق الرسائل المتبادلة، دون أن يكون بين الاثنين أي لقاء واقعي، وينتهي الأمر دائمًا بالفشل والقطيعة وتوقف الرسائل.

استطاعت «فدوى» أن تتغلب على جانب من متاعبها، وهو الجانب الخاص بالتعليم والثقافة، حيث توسعت في مطالعتها وأتقنت اللغة الإنجليزية ثم سافرت إلى لندن ودرست هناك دراسات حرة، وبقيت في لندن حوالي سنتين، وكانت هذه الفترة على قصرها مليئة بالدراسة والبحث والتعرف على الحضارة الأوروبية تعرفًا عميقًا مباشرًا، ولم تُضِعْ «فدوى» دقيقة واحدة دون أن تستفيد منها وتضيف إلى ثقافتها وروحها شيئًا جديدًا.

ولكن الشيء الذي لم تستطع «فدوى» أن تجد له حلاً نهائيًا هو «الحب»، فقد ظل الحب مطلبًا روحيًا عميقًا من مطالبها الأساسية، وكان ذلك من حقها كإنسانة ذكية مثقفة

وفنانة موهوبة، كما أنها كانت على الدوام تتمتع بجمال هادئ ولكنه جمال واضح تزيده رشاقتها سحرًا وفتنة، ومع ذلك كله، فإنها لم تستطع أبدًا أن تصل إلى الحب الناجح، فمن يهواه قلبها مرفوض دائمًا من العائلة ومن تفكر فيه العائلة أو تختاره لها مرفوض من قلبها، ولذلك اتخذت فدوى قرارها النهائي بألا تتزوج، وأن تعيش وحيدة حتى اليوم، ولكنها حررت نفسها من المخاوف، وأصبحت تجد في قصائدها الجميلة، ومحبة الناس لهذه القصائد، دفئًا وعزاء لها عن أي ارتباط كان يمكن أن تفرضه الظروف عليها ويكون سببًا لتعاستها الدائمة. وقد زاد «فدوى طوقان» رضًا عن نفسها أنها أصبحت اليوم رمزًا جميلاً من رموز فلسطين، فالفلسطينيون يحفظون شعرها ويرددونه في أوقات المحنة، ويجدون فيها ما يقويهم ويدفعهم إلى مواجهة ظروفهم الصعبة بشجاعة وصبر. وقد كان «موشى ديان» يقول: «إن كل قصيدة تكتبها فدوى تخلق عشرة فدائيين». وهو قول صحيح. لأن شعر فدوى هو تعبير نبيل وصادق عن روح الإصرار والمقاومة في أرض فلسطين المحتلة. وقد كان تأثير أشعار «فدوى» الواسع على الناس هو الثمن الذي تقاضته عن آلامها الشخصية والعامة. فقد كان شعرها العاطفي تعبيرًا عن الحرمان والدعوة إلى تحرير المرأة العربية وعاطفتها الإنسانية من القيود الثقيلة التي تفرضها التقاليد الخاطئة. كما جاء شعرها السياسي تعبيرًا بالغ الجمال والعمق عن التمسك بالحقوق العادلة للإنسان العربي الفلسطيني، ومازالت فدوى تعيش في بيتها بمدينة نابلس بالضفة الغربية، حيث تعتبر هذه المدينة مركزًا أساسيًا من مراكز الانتفاضة ضد الاحتلال الإسرائيلي، وقادة إسرائيل ينظرون إليها على أنها محرضة رئيسية بقصائدها الوطنية لمشاعر أبناء الانتفاضة، وكلما تقدم المشفقون على فدوى والمحبون لها بنصيحة إليها لكي تخرج إلى بلد عربي آخر حرصًا على حياتها قالت لهم:

«أموت على عتبة بيتي ولا أصبح لاجئة في بلد آخر».

ليس لهم حائط ولا طوبة

من أصعب الأمور في هذه الدنيا وأقساها أن يتعامل إنسان صاحب «نية طيبة واضحة مستقيمة» مع إنسان آخر صاحب نية «سيئة غامضة ملتوية». فأصحاب النيات الحسنة يميلون إلى تصديق ما يسمعونه، ولا يعملون شيئًا في الخفاء أو الظلام، ولا تقبل نفوسهم أن يلعبوا بالحقائق أو يحاولوا تغييرها حتى تصبح الأمور سهلة أمامهم. أما أصحاب النيات السيئة فإنهم على العكس من ذلك تمامًا، فهم يستمدون قوتهم وقدرتهم على تحقيق النجاح من الكذب والتلفيق والمناورة والاستهتار وبرودة المشاعر في نفوسهم وقلوبهم، وهم من عشاق العمل في الظلام، والطعن في الظهر، والاحتيال والتآمر. فأصحاب النية السيئة يعتمدون على زاد لا ينفد من «الأخلاق السيئة»، والتي لايخجل صاحبها من الاعتماد عليها مادامت تحقق له منفعته وتصل به إلى الهدف الذي يريده. وعندما نبتعد قليلاً عن التحليلات السياسية فسوف نجد أمامنا تلك «الظاهرة الإسرائيلية» التي تقوم كلها على «سوء النية» وما يصحب ذلك من قدرة غير محدودة على الكذب والتآمر والتبجح والعمل في الظلام ومخالفة كل ما له علاقة بالضمير والأخلاق الإنسانية الراقية وإسرائيل لا تقيم وزنًا للحقائق الثابتة والقوانين المتفق عليها. وعندما تصطدم مصالحها بأي شيء من ذلك فإنها تنسف كل ما أمامها لتستمر في تنفيذ خططها الخاطئة والقائمة على الشر وسوء النية. وأكثر ما تستهين به إسرائيل هو تلك العبارة الخادعة التي نسميها باسم «الشرعية الدولية»، فليس عند إسرائيل شرعية سوى شرعية الظلم الذي تفرضه علينا وشرعية الدم العربي

الذي تستبيحه بغير حق وبغير حدود. فكل ما يصدر من قرارات نسميها باسم قرارات الشرعية الدولية ليست لها قيمة عند قادة إسرائيل أكثر من قيمة ورق «التواليت» الذي يستخدمه الناس ثم يلقون به في سلة المهملات أو يلقونه فيما هو أهون من ذلك.

وقد تعامل العرب مع إسرائيل منذ أواخر السبعينيات وحتى الآن، أي منذ أكثر من عشرين سنة، بمنطق واحد هو منطق «حسن النية»، لكنهم اصطدموا دائمًا بسوء نية إسرائيل، فقد أراد العرب أن يضعوا ستارًا حول ما حدث حتى 4 يونيو سنة 1967، ومن ذلك استيلاء إسرائيل على أراض عربية ليست لها، حسب قرار التقسيم المعروف بالقرار 181 الصادر عن هيئة الأمم سنة 1947، فقد استولت إسرائيل على ما يقرب من 70٪ من أرض فلسطين ولم يبق للعرب في الضفة وغزة أكثر من نحو 30٪ من الأرض الأصلية، ومع ذلك تحاول إسرائيل أن تنتزع أجزاء أخرى مما بقي للعرب، وعلى رأس هذه الأجزاء القدس الشرقية التي تعتبرها كل القرارات الدولية أرضًا محتلة، وجزءًا لا يتجزأ من أرض فلسطين.

كانت نية العرب حسنة، وظنوا أنهم قادرون على استعادة أرضهم التي كانت لهم قبل عدوان 5 يونيو سنة 1967، وظنوا أن إسرائيل سوف تستجيب لذلك، وتبدأ رحلة السلام الحقيقي والاندماج في المنطقة، وتتعامل مع جيرانها كما يتعامل خلق الله مع بعضهم البعض في أمان واعتدال وحرص على المصالح المتبادلة.

لكن إسرائيل لا تريد ذلك ولا تقبله، وحسن نية العرب خلال السنوات العشرين الماضية لا قيمة له عند قادة إسرائيل لأنهم يريدون المزيد من التوسع والسيادة على أرض ليست لهم. وفي 28 سبتمبر الماضي(*) بلغ الاستهتار الإسرائيلي أقصى حد عندما قام «شارون» باقتحام حرم المسجد الأقصى ومعه قوة كبيرة مسلحة من جيش الدفاع الإسرائيلي، قيل إن عدد أفرادها بلغ ثلاثة آلاف، ويقول «باراك» إن عدد أفراد هذه القوة كان سبعين فردًا، وهو في ذلك من الكاذبين،

(*) 28 سبتمبر سنة 2000.

لأننا رأينا مع العالم كله زيارة «شارون» على شاشة التليفزيون وكان معه مسلحون ليس عددهم سبعين بأي حال من الأحوال، فهم أمام العين المجردة يزيدون على ذلك أضعافًا مضاعفة، و«شارون» ليس سوى «وحش بشري»، وهو مجرم حرب بكل المعايير، ولو كانت «محاكم جرائم الحرب» عادلة ونزيهة لحاكمته على مذبحة «صابرا وشاتيلا» التي خطط لها وأشرف عليها وقتل فيها ما يقرب من خمسة آلاف فلسطيني مدني في يوم واحد، ومن المعروف حتى بشهادة الأجانب الذين سجلوا هذه المأساة، أن «شارون» قد دفن الكثير من ضحاياه أحياء، حيث كان جنوده يأمرونهم بحفر قبورهم، ثم يدفنونهم فيها وهم أحياء، وأية محاكمة عادلة لشارون سوف تدينه إدانه كاملة، وأقل عقوبة يستحقها هي الإعدام.

وقد قال «شارون» حول زيارته لحرم المسجد الأقصى كلامًا كثيرًا، منه أنه يهودي وأن من حقه أن يزور ما يسميه اليهود باسم «حائط المبكى» وهو ما نسميه ــ نحن المسلمين ــ باسم «حائط البراق». واليهود يزعمون بغير دليل من التاريخ أن هذا الحائط هو ما بقي من الهيكل الذي بناه سليمان عليه السلام في الفترة ما بين 967 و960 قبل الميلاد. ومن الثابت في جميع المراجع التاريخية أن هذا الهيكل قد تم تدميره بصورة نهائية على يد الرومان سنة 70 ميلادية، وأن الهيكل لم يبق من آثاره شيء بعد هذا التاريخ. أما الحائط الموجود الآن فهو «حائط البراق»

وهو جزء من الحائط الغربي للحرم الشريف في القدس، و«البراق» هو اسم الدابة ذات الأجنحة التي صعد عليها محمد «ﷺ» ليلة الإسراء وطار بها من الكعبة في مكة إلى بيت المقدس.

وقد ادعى اليهود ملكية هذا الحائط وأطلقوا عليه، اسم «حائط المبكى» أي الحائط الذي يبكون أمامه تعبيرًا عن الندم على تدمير «هيكل سليمان» على يد الرومان، وقد كان هذا الادعاء اليهودي بملكية «حائط البراق» سببًا في نشوب ثورة فلسطينية شاملة سنة 1929، وأدت هذه الثورة إلى اشتباكات مسلحة عنيفة في القدس نفسها بين

العرب واليهود، وعندما بلغت هذه الاشتباكات درجة عالية من العنف تدخلت بريطانيا التي كانت تسيطر على فلسطين في ذلك الوقت تحت اسم «الانتداب البريطاني» فاقترحت الحكومة البريطانية تشكيل لجنة دولية لدراسة الوضع الخاص بحائط البراق، أو حائط المبكى كما يسميه اليهود، وتم تشكيل هذه اللجنة بالفعل من ثلاثة أعضاء من السويد وسويسرا وإندونيسيا، وكان تشكيل هذه اللجنة بطلب من بريطانيا حيث صدر بها قرار من «عصبة الأمم» التي كانت في ذلك الوقت تقوم بدور «هيئة الأمم المتحدة» الآن.

وقد أشار الأستاذ الكبير أحمد فراج إلى قرارات هذه اللجنة الدولية في برنامجه الناجح المعروف «نور على نور» ولكن قراءة نص التقرير الذي أصدرته تلك اللجنة الدولية، ووافقت عليه بريطانيا «حامية» إسرائيل في ذلك الوقت، تثبت أن إسرائيل تحاول «تزوير التاريخ» ونسف كل القرارات الدولية التي لا تحقق لها مطالبها غير المشروعة والقائمة على الكذب والافتراء، والتقرير الذي أصدرته اللجنة الدولية بشأن حائط البراق هو «وثيقة هامة» جدًا يجب أن تكون في يد العرب الآن ويجب أن تكون جزءًا لا يتجزأ من الوثائق المعلنة أمام الدنيا كلها والخاصة بحقوق العرب الثابتة ـ بشهادة العالم ـ في القدس الشرقية، ولا يجوز أبدًا أن تبقى هذه الوثيقة الأساسية قائمة على صفحات الأوراق القديمة، لأن إظهار هذه الوثيقة يثبت أن كل ما قاله مجرم الحرب شارون في اقتحامه حرم المسجد الأقصى الشريف هو كذب وتزوير وخداع، فليس لليهود حائط هناك، وليس لهم «طوبة» وليس لهم «ذرة من التراب».

وقصة هذه الوثيقة ذات الأهمية البالغة تقدمها إلينا بوضوح وتفصيل «الموسوعة الفلسطينية» في جزئها الثاني صفحة 136، وهذا هو ما جاء في الموسوعة «وصلت اللجنة الدولية إلى القدس في 19 يونيو سنة 1930 حيث بدأت عملها الذي استمر شهرًا كاملاً، عقدت فيه اللجنة 33 جلسة، واستمعت إلى وجهات نظر الفريقين: العربي واليهودي، كما استمعت إلى شهادات 52 شاهدًا قدمهم الفريقان اللذان زودا اللجنة أيضًا بإحدى وستين وثيقة، وكانت المشكلة الرئيسية التي واجهت اللجنة في ذلك الوقت تتمثل في

محاولة الصهيونية قلب الوضع القائم بالنسبة للأماكن المقدسة، إذ قام اليهود بالتركيز على «حائط البراق» ولجئوا إلى أساليب تدريجية تصاعدية تساعدهم على تأكيد ادعائهم بأن اليهود هم الذين يملكون «حائط البراق» أو «حائط المبكى» كما يسمونه.

وقد تمثلت خطة اليهود في إحضار الكراسي والمصابيح والستائر ووضع هذه الأدوات أمام الحائط ليجعلوا منها حجة تمكنهم من ادعاء حق ملكية الأرض التي يضعون عليها هذه الأدوات، وتثبت بعد ذلك أنهم يمتلكون الحائط نفسه».

«وقد انتهت اللجنة الدولية من وضع تقريرها في مطلع شهر ديسمبر 1930، ووصلت في تقريرها إلى استنتاجات حصلت على موافقة الحكومة البريطانية وعصبة الأمم معًا، وبذلك أصبح هذا التقرير «وثيقة دولية» مهمة تثبت حق الشعب العربي الفلسطيني، في حائط البراق، وأهم هذه الاستنتاجات الواردة في التقرير الدولي مايلي:

1- تعود ملكية الحائط الغربي للحرم الشريف إلى المسلمين وحدهم، ولهم وحدهم الحق العيني فيه، لأنه يؤلف جزءًا لايتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك «الوقف الإسلامي» وتعود للمسلمين أيضًا ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام «المحلة» المعروف باسم «حارة المغاربة» المقابلة للحائط وذلك لكون الرصيف موقوفًا حسب الشريعة الإسلامية لجهات الخير والبر.

2- أن أدوات العبادة أو غيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط، بالاستناد إلى أحكام هذا التقرير، أو بالاتفاق بين الفريقين، لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون من شأنها إنشاء أي حق «عيني» لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له.

3- لليهود حرية السلوك إلى الحائط الغربي لإقامة التضرعات في جميع الأوقات مع مراعاة الشروط الواردة في هذا التقرير.

4- يتم منع إحضار أي خيمة أو ستار أو ما يشبههما من الأدوات إلى الحائط.

5- ليس مسموحًا لليهود ولا من حقهم نفخ البوق بالقرب من الحائط».

هذا هو نص تقرير اللجنة الدولية والذي صدر في ديسمبر سنة 1930، وقد علقت الموسوعة الفلسطينية على التقرير بقولها: «.. وهكذا أثبتت اللجنة الدولية، بالرغم من وجود الانتداب البريطاني في فلسطين وشراسة الهجمة الصهيونية الاستعمارية في ذلك الوقت، أن «حائط البراق» هو أثر إسلامي مقدس، وأن كل حجر فيه مع الرصيف المقابل والمنطقة الملاصقة له داخل أسوار القدس الشرقية هي ـ كلها ـ ممتلكات عربية وأوقاف إسلامية، وأنه لا حق إطلاقًا لليهود في ملكية أي ذرة من ذراته، وأن كل ما لليهود من حق هو إمكان زيارة الحائط فقط، وهذه الإمكانية مصدرها التسامح العربي الإسلامي فقط». هذه هي الوثيقة التي لم يصدرها العرب، وإنما أصدرتها لجنة دولية منذ سبعين سنة «ديسمبر سنة 1930»، وأقرت بها الحكومة البريطانية وعصبة الأمم، ولكن إسرائيل القائمة على «سوء النية» المبيتة ضد كل ما هو عربي تتجاهل هذه الوثيقة وتتعامل معها باستهتار، وتطلق وحشها المفترس «شارون» ليقتحم حرم المسجد الأقصى ومعه جنود مسلحون، وذلك لكي يفرض «بلطجته» المعهودة على العالم، ويقول بما هو مخالف للحقيقة والتاريخ وهو أن اليهود لهم حق في حائط البراق وساحة المسجد الأقصى معًا. ولكثرة ما ارتكبه «شارون» من جرائم ثابتة ضده، فإنه فقد كل إحساس بالمسئولية، وفقد الضمير، وأخذته «العزة بالإثم» فاعتدى على مقدسات العرب والمسلمين، وانتهك حقوقهم الثابتة، والتي شهد بها حتى الذين وجهوا إلى العرب إساءات قاتلة، ومنهم بريطانيا المسئولة الأولى عن «إنشاء إسرائيل» وتربيتها وتدليلها وإطعامها وتسليحها حتى أعلنت من نفسها دولة على أرض ليست لها سنة 1948، حيث تركت بريطانيا المسئولية بعد ذلك لأمريكا.

وكل هذه التجارب تثبت أن اسرائيل ليس لديها أي قدر ولو ضئيلاً من حسن النية، وليست لديها خطة سلام حقيقية. وبذلك تكون أفكار العرب القائمة على حسن النية والأمل في أن تستجيب إسرائيل لدعوة السلام، وإخراج هذه المنطقة من الفوضى والاضطراب، هي كلها من الأمور التي تدخل في باب الأحلام غير الواقعية،

فإسرائيل لا تعبأ بالقوانين والحقائق الثابتة، وهي لا تعبأ باليد الممدودة إليها بالسلام من جانب العرب، وهي الدولة الوحيدة في العالم التي ترفض حتى الآن أن تكون لها «خريطة» حتى لا يقول أحد هذه هي الخريطة التي تحددت لك مثل بقية دول العالم، والخروج على هذه «الخريطة» هو عدوان على الآخرين، وكلما سألهم أحد عن «الخريطة» أخرجوا له «التوراة» وقالوا له هذه خريطتنا تدل علينا، فالله ـ كما تقول التوراة ـ قد أعطانا أرض فلسطين، فهي لنا منذ ثلاثة آلاف سنة. ومع ذلك تقوم دعاية إسرائيل والذين يساندونها وبخاصة أمريكا على أن إسرائيل هي دولة ديمقراطية حديثة تقوم على قوانين مدنية وليست دينية. ثم ترفض إسرائيل حتى الآن أن يكون لها «دستور» يحدد شخصيتها ويرسم حدود سلطتها ويمكن للآخرين أن يحاسبوها بما يقوله هذا الدستور. فهي دولة بلا خريطة ولا دستور، أي أنها لا تزال وحشًا منطلقًا في غابة ليست لها أسوار، وهي تريد أن تبتلع ما ليس لها، وتريد أن تسيطر على شعوب أخرى وتخضعهم لسلاحها وإرهابها. فكيف يمكن التعامل مع دولة لا خريطة لها ولا دستور؟. وكيف يمكن استئناس وحش جائع من وحوش الغابة، يدعي على الله كذبًا أنه أعطاه الحق في أن يسفك دماء الأبرياء بغير حساب ولا خوف من عقاب؟.

إن «انتفاضة الأقصى» اليوم هي أصدق تعبير عن رفض الفوضى التي تمثلها إسرائيل، وتساندها في ذلك قوة عظمى هي أمريكا.. والانتفاضة هي الرد الطبيعي على دولة لا تريد أن تعترف بشيء مما يراه العالم حقًا وعدلاً، فهي دولة بلا خريطة ولا دستور ولا ضمير. وليس أمام الفلسطينيين في المقابل سوى أن يقدموا دماءهم ليرسموا بها خريطة بلادهم ويكتبوا دستورهم، ولابد للخريطة المكتوبة بالدم، والدستور الذي حروفه دم أيضًا، أن يكونا في النهاية رادعين لإسرائيل التي لم تجد من يردعها فأوغلت في الاستهتار التاريخي إلى حدود لم يعد يحتملها أحد.

شهداء ومنتحرون

بعض شيوخنا العلماء الأجلاء الأكابر يدينون العمليات الانتحارية التي يقوم بها عدد من شباب فلسطين ضد اليهود، وجهة نظر هؤلاء العلماء الأفاضل الذين يستنكرون هذه العمليات تقوم على منطق له قوته ولديه حجته، فالانتحار أو قتل النفس مرفوض من الناحية الدينية، والذين يقتلون أنفسهم يسقطون في خطيئة دينية يحرمها الله. وبذلك تكون العمليات الانتحارية حرامًا من الوجهة الشرعية الخالصة. ومن ناحية أخرى فإن العمليات الانتحارية متهمة بأنها موجهة ضد المدنيين، والإسلام ـ في حدود علمي ـ لايجيز قتل الأسير ولا قتل الذين لايحملون سلاحًا، أي هؤلاء الذين نسميهم باسم «المدنيين» في لغتنا العصرية. وهذا الموقف الذي ينتهي إلى قتل المدنيين فيه شبهة الإرهاب الذي ينكره الدين والقانون والضمير الإنساني.

وهذه كلها «التباسات» تجعل القضية غامضة ومضطربة. ولذلك فلا بأس من الوقوف أمام هذه الالتباسات ومحاولة فهمها بصورة صحيحة حتى نتمكن في النهاية من إصدار حكم عادل.. لها أو عليها.

وأول ما يمكن ملاحظته حول العمليات الانتحارية هو أن التسمية التي تحملها تبدو تسمية خاطئة، وقد انسقنا جميعًا إلى استخدام هذه التسمية في كل أجهزتنا الإعلامية، وفي كل أحاديثنا أيضًا، ولم نتوقف لحظة واحدة لمراجعة هذه التسمية والتعرف على مدى ما فيها من صواب أو خطأ. والحقيقة أن عبارة «العمليات

الانتحارية» هي التي تؤدي إلى إدانة بعض علماء الدين لها فما دام الأمر فيه «انتحار» فذلك يؤدي إلى خطيئة صريحة يرفضها الدين، ولذلك فمن الضروري أن نستبعد تمامًا عبارة «العمليات الانتحارية» وأن نضع مكانها عبارة أخرى هي «العمليات الاستشهادية» نسبة إلى «الاستشهاد» وبذلك يكون الذين يقومون بمثل هذه العمليات هم «شهداء» وليسوا «منتحرين» ونحن لو فعلنا ذلك دون أن يكون لدينا دليل قوي على ضرورة هذا التغيير المطلوب، فإننا بذلك نكون قد فعلنا ما فعله «جحا» في قصة شعبية عندما قيل له إن «علبة السكر» تجمع النمل حولها بصورة مزعجة، فما كان منه إلا أن كتب على «علبة السكر» كلمة «ملح» واعتبر أنه بتغيير الاسم من «السكر» إلى «الملح» قد وضع حلاً للمشكلة وهو بالطبع حل ساذج ومضحك، فالنمل لايقرأ ولا يكتب، وسوف يظل النمل يتجمع حول السكر حتى لو كتبنا عليه أنه «طرشي»!

ولكن المسألة في العمليات الانتحارية التي ندعو إلى تغيير اسمها إلى «العمليات الاستشهادية» ليست بهذه الشكلية أو هذه السذاجة، وليست عملاً من أعمال الضحك على النفس. فالشاب الذي يخفي قنبلة في ملابسه، ويقوم بتفجيرها بين أعدائه، فيؤدي ذلك إلى قتله وقتل بعض أعدائه.. هذا الشاب لايحمل في ضميره نية «الانتحار» وإنما هو يتحرك بدافع «الاستشهاد» من أجل قضية عادلة يؤمن بها، ويرى أنها قضية تتعرض لظلم غير عادي، كما أنه يرى أهله وهم يعانون من الجوع، ويعيشون في العراء بعد هدم بيوتهم، ويتعرضون لحصار رهيب يمنع أي عون من الوصول إليهم، والأطفال الصغار يموتون برصاص جيش مسلح بأحدث الأسلحة، وهذه الوقائع تحدث أمام عين هذا الشاب كل يوم دون أن يرى أمامه أي وسيلة لمنعها أو ردع الذين يقومون بها فهؤلاء الأعداء يخوضون في دماء الشعب الفلسطيني بحرية كاملة، ولا يعبئون بشيء على الإطلاق، وأحد زعماء إسرائيل وهو الحاخام عوفيديا يوسف ـ وأصله مصري للأسف ـ يردد علنًا في مواعظه الدينية أن «العرب أشرار، ومحظور علينا ـ أي على اليهود ـ أي رحمة تجاههم، ويجب ضربهم بالصواريخ وتدميرهم لأنهم مجرمون ملاعين، وننتظر من الله أن يمحو اسم العرب من الوجود وينتقم منهم، ويبيد نسلهم، ويحطمهم ويبعدهم عن العالم كله»

وصاحب هذا الكلام وهو الحاخام ـ عوفيديا يوسف» ليس شخصًا عاديًا يمكن المرور على كلامه ـ كما يقال ـ مر الكرام وهو ليس من نزلاء مستشفى المجانين في إسرائيل أو في غيرها، ولكنه زعيم روحي لحزب «شاس» ثالث أكبر حزب في إسرائيل، وهذا الحزب له فيما أعلم خمسة أعضاء في مجلس الوزراء الإسرائيلي الحالي برئاسة شارون.

وكلام «عوفيديا يوسف» الذي يعلنه ويكرره دون أن يحاسبه أحد عليه هو كلام مستمد من «تراث إسرائيلي» معروف للجميع، فمنذ قيام إسرائيل سنة 1948 بل وقبل ذلك بسنوات كان زعماء اليهود يرددون هذا الكلام، فنجد «بن جوريون» الذي أعلن بصوته قيام دولة إسرائيل ليلة 15 مايو سنة 1948 يقول «إن اليهود سوف يعملون على الترحيل الجماعي الإجباري للسكان العرب في فلسطين» و«جوزيف ويتز» أحد زعماء إسرائيل في المرحلة الأولى من إنشائها يقول «إن فلسطين لن تتسع لكلا الشعبين العربي واليهودي، ولابد من إفراغها من أي وجود عربي» وقد أعدت القيادات الإسرائيلية منذ سنة 1947 مشروعًا أطلقت عليه اسم مشروع «داليت» وكان هذا المشروع قائمًا على «تطهير فلسطين من كل القوى المعادية لليهود أو التي يمكن أن تحمل عداءً كامنًا لهم» وتعلق جريدة «الفيجارو» الفرنسية في مقال لها بعددها الصادر في 17 فبراير الماضي ترجمة الأستاذة نوال شفيق على مشروع «داليت» هذا بقولها «كان يكفي أن يكون الفرد عربيًا حتى يكون عند القيادات اليهودية «قوة معادية» ولقد تم استخدام اليهود في الحديث عن الفلسطينيين تعبيرات مثل «الطرد» و«السرطان» و«التطهير العرقي» و«الأشواك» وتمت ممارسة الإرهاب ضد الفلسطينيين بصورة منتظمة، كما تم شن عمليات وحشية عديدة ضدهم لإقناع الأحياء منهم بالفرار من بلادهم وكان اليهود كلما اقتحموا منطقة عربية طلبوا من العرب الاستسلام أو الانتحار، وكانت التعليمات للجيش الإسرائيلي تقول: «ينبغي طرد السكان العرب فورًا دون مراعاة لأعمارهم».

هذا هو بعض التراث اليهودي الحديث الذي يمثل موقف إسرائيل من العرب، وهو التراث الذي يجد فيه «الحاخام عوفيديا يوسف» زعيم حزب «شاس» مصدرًا للإلهام بما

يقوله ويردده ضد العرب، والمسألة لا تقتصر على الكلام وحده، فالقتل الإسرائيلي للفلسطينيين مستمر منذ سبتمبر الماضي إلى اليوم، وقد بلغ عدد الشهداء الفلسطينيين ما يقرب من خمسمائة شهيد معظمهم من الأطفال والشباب، أي بمعدل حوالي ثلاثة شهداء كل يوم خلال أيام الانتفاضة التي وصلت إلى مائتي يوم تقريبًا.

وهذا ما تعترف به الصحف الغربية التي ليست معروفة بالتعاطف مع القضية الفلسطينية، ولكن الحقائق تفرض نفسها على الجميع، ولا يمكن لأحد أن يتنكر لها، وإن كان الإسرائيليون لا يقيمون وزنًا لهذه الحقائق، لأنهم يشعرون أنهم أقوى من الجميع، وهم لا يعبئون بأي شيء آخر. والغريب أن بعض الإسرائيليين أنفسهم ـ وهم أقلية قليلة جدًا للأسف ـ يسجلون اعتراضهم على ما يحدث للفلسطينيين ومنهم سياسي إسرائيلي كبير اسمه «آهارا زيسلنج» الذي قال: «إن اليهود يتصرفون الآن مثل النازيين في عهد هتلر، وهو أمر يزلزل كياني» ولكن مثل هذا الإسرائيلي الذي «أوجعه» ضميره يمثل نسبة ضئيلة جدًا بين الإسرائيليين الذين انتخبوا «شارون» بأغلبية ساحقة، رغم أن شارون «لا يعدو أن يكون في أي قانون سوى سفاح ومجرم حرب.

عندما يرى الشبان الفلسطينيون ما يجري لهم ولأهلهم وأرضهم، وعندما يصبحون عاطلين وجائعين ومهانين، وعندما يسمعون كل يوم ما يهددهم بالقتل الجماعي والإبادة التامة.. عندما يحدث هذا كله، فماذا يمكن أن ننتظر من هؤلاء الشبان؟ وهل يلام هؤلاء الشبان عندما يقررون «الاستشهاد» في سبيل توقيع بعض العقاب على عدوهم لعله يرتدع أو يشعر بأنه لن يقوم بإبادة العرب دون مقاومة منهم؟ إن نفسية هؤلاء الشبان العرب هي نفسية «شهداء» وليست نفسية «منتحرين» وصفهم بالانتحار ظلم لهم، وفيه خروج تام على المنطق. ولذلك فإن وصف العمليات التي يقومون بها بأنها «عمليات انتحارية» هو خطأ ينبغي أن نتجنبه ونبتعد عنه، فالوصف العادل الصحيح هو أن هذه العمليات هي «عمليات استشهادية».

ومن هنا لا يستطيع أي اتهام موجه إلى هؤلاء الشهداء أن يقف على قدميه، لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الأخلاقية. كما أن الإدانة الدينية لهذه العمليات ليس لها ما يساندها أو يبررها على الإطلاق. وفي القرآن الكريم آيتان صريحتان تقولان: ﴿ . . . . **لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (الممتحنة: 8، 9).

ومن الطريف أن إسرائيل طبعت يومًا نسخة من القرآن الكريم وحذفت منها هذه الآية الكريمة. والنص القرآني السابق واضح وصريح ولا مجال لأي قول بعده. فكيف يرى بعض علماء الدين أن «العمليات الاستشهادية» هي «عمليات انتحارية»، ثم يحكمون على من يتحمل مسئوليتها بأنه خارج على الدين والشرع؟. إن في الآيتين الكريمتين السابقتين ردًا على كل ما يقال في هذا المجال.

بقي ما يقال من أن «العمليات الاستشهادية» تؤدي إلى قتل المدنيين وهو ما لا يجيزه الدين، ولا تجيزه القوانين ولا مبادئ الأخلاق.

وهنا لابد من التنبه إلى أن المجتمع الإسرائيلي بأكمله هو مجتمع عسكري بصورة شاملة، وكل قادر على حمل السلاح في إسرائيل هو جندي في الجيش، والبعض هم جنود عاملون، أما الباقي فهم من جنود الاحتياط الذين يتم تدريبهم العسكري على أعلى المستويات، ويجري استدعاؤهم للحرب في أي لحظة. والمواطنون الإسرائيليون في المستوطنات الإسرائيلية المقامة فوق الأراضي الفلسطينية هم جميعًا مواطنون مسلحون، أي أنهم عسكريون في ثياب مدنية والقوانين الإسرائيلية تبيح لهؤلاء المواطنين أن يستخدموا السلاح ضد الفلسطينيين في أي لحظة، رغم أنهم في الأصل مقيمون على الأراضي الفلسطينية، ومغتصبون لها، وهم لا يتوقفون عن التوسع والاستيلاء على أراض جديدة وطرد أهلها منها.

فلا مجال إذن للقول بأن العمليات الاستشهادية تؤدي إلى قتل مدنيين، فالمجتمع الإسرائيلي كله مجتمع عسكري حتى الآن، ولا يمكن التفرقة فيه بين مدنيين وعسكريين.

وهكذا فإن الشهداء الذين يقومون بعمليات استشهادية لايصح أبدًا وصفهم بأنهم «منتحرون» وأنهم يخالفون الدين بالانتحار. والقول بأن عملياتهم تؤدي إلى قتل مدنيين عليه رد واضح، فالاسرائيليون هم الذين جعلوا إسرائيل مجتمعًا عسكريًا بالكامل، ولسنا نحن الذين فرضنا عليهم هذا الطابع العسكري الشامل لكل شيء. وإذا كان هناك من يستحق الاتهام بأنه لا يفرق بين المدنيين والعسكريين فالمتهم هنا هو إسرائيل، فهي تقوم بتجريف الأراضي الزراعية الفلسطينية، وتقوم بهدم المنازل السكنية، وتقوم بضرب السيارات المدنية بالصواريخ.

وتضع جميع الفلسطينيين تحت «إرهاب» الجيش الإسرائيلي الذي يتصرف كما يشاء دون رادع أخلاقي أو قانوني أو ديني. وإسرائيل ترفض رسم حدود مقبولة لها حتى الآن، وترفض العودة إلى ما كانت عليه حتى 4 يونيو سنة 1967، أي أنها مصممة على أن تبتلع مزيدًا من الأرض العربية، رغم أن ما بقي من أرض فلسطين في يد العرب لايزيد على 22٪ من أرض فلسطين، بينما يسيطر الإسرائيليون حتى قبل 5 يونيو 1967 على ما يقرب من 78٪ من هذه الأرض، والإسرائيليون يستكثرون على العرب تلك النسبة الضئيلة الباقية في أيديهم «22٪»، ولذلك فهم يقيمون المستوطنات بشراسة وإصرار على الظلم فوق النسبة المتواضعة الباقية من أرض فلسطين في يد العرب. بالإضافة إلى ذلك كله فإن الأراضي التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية ليس فيها جيش من أي نوع، بل فيها شرطة محدودة التسليح ومهمتها حفظ الأمن داخل مناطق السلطة الفلسطينية، والفلسيطنيون ممنوع عليهم تمامًا أن يتملكوا طائرة حربية أو دبابة أو صاروخًا أو سفينة عسكرية. كما أن الفلسطينيين لا يتلقون أي معونات عسكرية من أي جهة، لا من الدول العربية ولا من غيرها، بينما تنهال المساعدات العسكرية على إسرائيل، وبخاصة من جانب أكبر دولة صانعة للسلاح في التاريخ وهي أمريكا، فمخازن

السلاح الأمريكي مفتوحة على آخرها لإسرائيل، بينما كل مخازن العالم مغلقة في وجه الفلسطينيين. وعلى عكس المجتمع الإسرائيلي الذي هو مجتمع عسكري بالكامل، فإن أراضي السلطة الفلسطينية هي مجتمع مدني بالكامل، وهي مجتمع مدني تنقصه أي حماية عسكرية، وقد رفضت أمريكا بكل قسوة واستهتار أن تكون هناك قوات دولية فوق الأرض الفلسطينية لحماية الفلسطينيين، رغم أن مثل هذه القوات لن تكون تحت سيطرة الفلسطينيين، وقد استخدمت أمريكا «الفيتو» ضد قرار مجلس الأمن بإرسال قوات دولية إلى غزة والضفة الغربية، وكأن أمريكا بذلك تعلن ضرورة بقاء الفلسطينيين «فريسة» يتسلى الإسرائيليون بصيدها كل يوم.

والصورة واضحة أمام الجميع الآن، فأمريكا بقوتها الاستثنائية تحمي المعتدي ـ إسرائيل ـ من أي عقاب، وتمدها بكل مساعدة مادية أو معنوية تحتاج إليها، وإذا قامت أمريكا بلوم الإسرائيليين فإن هذا اللوم لا يتجاوز العتاب الرقيق المهذب للحبيب الإسرائيلي المدلل، أما المشهد الفلسطيني العام، والذي يراه العالم كل لحظة فهو مشهد «جنازات» يومية، أي أنه مشهد شعب يقوم بدفن أبنائه وقد وصل الأمر إلى درجة يمكننا القول فيها دون أي مبالغة إن أراضي السلطة الفلسطينية أصبحت مقبرة كبيرة، وإن الحياة في تلك الأراضي هي «مأتم» مستمر منذ سبعة شهور هي عمر انتفاضة الفلسطينيين الجديدة.

وفي هذه الظروف غير الإنسانية تأتي العمليات الاستشهادية التي يقوم بها شباب فلسطينيون بلغ بهم اليأس حده الأقصى. وهذه العمليات الاستشهادية في آخر الأمر هي عمليات محدودة، وهي عمليات ليست موجهة إلى مدنيين، بل هي عمليات موجهة إلى المجتمع الإسرائيلي الذي يحمل الطابع العسكري بالنسبة لجميع أفراده ومواطنيه بلا استثناء، بما في ذلك النساء ورجال الدين.

وفي تاريخ الإسلام وفي عصر النبي ﷺ كانت تجري مثل العمليات الاستشهادية، وأذكر في هذا المجال شخصية الشهيد، «أبو دجانة» الذي مات قتيلاً في غزوة «أحد».

فقد وقف هذا الشهيد النبيل موقفًا اختاره بنفسه وإرادته، وكان هذا الموقف لا مجال فيه لشيء آخر غير أن يموت صاحبه قتيلاً في سبيل ما آمن به. فقد انهزم المسلمون في المرحلة الثانية من المعركة، واتجه المشركون إلى شخص النبي ﷺ يريدون قتله، فألقى «أبو دجانة» بجسمه على الرسول ﷺ، وإذا بالنبال التي يوجهها المشركون تصل كلها إلى ظهر «أبو دجانة»، ويشفق الرسول ﷺ على «أبو دجانة» فيقول له ما معناه: إن النبال كلها في ظهرك.. فيرد على النبي قائلا: لا بأس. وكان «أبو دجانة» في هذا الموقف يعلم أنه مقتول لا محالة. ولكنه كان يريد أن يفتدي النبي ﷺ. وقد حقق ما أراد، فنجا النبي ﷺ ومات «أبو دجانة» شهيدًا بإرادته واختياره. فهل يمكن أن يقال عن مثل هذا الموقف الاستشهادي إنه «انتحار»؟. طبعًا لا يمكن. فهذا استشهاد صادق بكل معنى الكلمة. وقصة «أبو دجانة» رائعة ومثيرة لأرفع المشاعر بما فيها من تفاصيل بديعة تثبت أن هذا الرجل المؤمن دخل معركة «أحد» وهو عازم على ألا يخرج منها إلا شهيدًا.

ومن هنا فأنا أجد أن بعض علمائنا الكبار الأجلاء الذين وصفوا «العمليات الانتحارية» بأنها «حرام» عليهم أن يراجعوا ما أفتوا به، فالعمليات الانتحارية هي في حقيقتها عمليات استشهادية. وقد أخطأنا جميعًا في أحاديثنا وإعلامنا ونحن نخلط بين «الاستشهاد» و«الانتحار». وعلينا أن نعيد النظر في هذا الخطأ لتصحيحه، أما الفتاوى التي تصف هذه العمليات بأنها حرام، فلعل أصحابها الأجلاء يعيدون النظر فيها أيضًا. وليس في كل هذا تبرير أو تحريض، ولكنه محاولة لتفسير ما يحدث، ودعوة لنظرة عادلة إليه.

أحبه الجميع إلا حساده!

كثيرًا ما أشعر بأن بين بعض الأشخاص وبيني صداقة حميمة، برغم أنني من الناحية الواقعية لم أكن على صلة خاصة بهم، ولا أكون قد التقيت معهم على الإطلاق. ومثل هذه العلاقة الحميمة العجيبة تنشأ عن طريق متابعتي لهؤلاء الأشخاص في أقوالهم وأعمالهم، فإذا نشأ نوع من التعاطف بيني وبينهم، واصلت متابعتي لهم حتى أصبحوا جزءًا من حياتي، أتعامل معهم على البعد تعامل الصديق مع الصديق، وأنظر إليهم نظرة المحب مع الذين يحبهم حبًا صافيًا وحقيقيًا. وفي هذه الحالة فإن ما يصيب هؤلاء الأصدقاء الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني يؤثر في نفسي أشد التأثير. فإن كان ما أصابهم خيرًا سعدت بذلك وامتلأت نفسي بالفرح والانشراح. وإن أصابهم شر حزنت أشد الحزن وامتلأت نفسي بالآلام والهموم، لأن ما يتعرض له هؤلاء الأصدقاء الأحباء الذين لا أعرفهم يصيب مشاعري القوية نحوهم إصابة مباشرة.

ومن هؤلاء الأصدقاء الذين كنت أتابعهم بحب وشغف وإعجاب الزعيم الفلسطيني الراحل فيصل الحسيني، والذي توفي فجأة في الكويت يوم الخميس آخر مايو عام 2001. وبرغم أن الظروف قد أتاحت لي أن أتعرف على عدد كبير من قادة فلسطين في الجيل الحالي وعلى رأسهم ياسر عرفات ومنهم أبو إياد وكمال ناصر وعبد الوهاب الكيالي وغسان كنفاني وغيرهم.

إلا أنني لم أتعرف على فيصل الحسيني، ولم يسعدني الحظ بأي لقاء معه. إلا أنني برغم ذلك كنت أحس أنني أعرفه معرفة شخصية قوية. فقد كنت أتابع مواقفه الثابتة في الدفاع عن عروبة القدس، فهو ابن القدس، وعائلة الحسيني هي من أقدم وأعرق العائلات «المقدسية» بل إن هذه العائلة الكبيرة الأصيلة تكاد تكون تلخيصًا وافيًا ودقيقًا لتاريخ فلسطين المعاصر كله، فقد تحملت هذه العائلة العظيمة عبء الدفاع عن فلسطين منذ أوائل القرن العشرين، ومنذ أن ظهرت في الأفق الدولي ملامح المؤامرة الكبرى لتهويد فلسطين، وتحويل اسمها إلى إسرائيل. وقد أعلنت هذه المؤامرة عن نفسها بوضوح منذ صدور ما يسمى باسم «وعد بلفور»، وهو الوعد الذي أعلنه رسميًّا باسم الحكومة البريطانية وزير الخارجية الإنجليزي جيمس أرثر بلفور «1848 ـ 1930» في 2 نوفمبر سنة 1917، وقد جاء هذا الوعد على شكل رسالة أرسل بها «بلفور» إلى المليونير اليهودي «اللورد روتشيلد» أحد الزعماء المؤسسين للحركة الصهيونية الحديثة، والذي كان يحمل الجنسية الإنجليزية، ونص هذا الوعد شائع ومعروف، ولكن لا بأس من إعادة نشره بنصه الكامل، ففي ذلك ما يذكرنا ببداية المأساة على يد إنجلترا. والوعد الإنجليزي المشهور يقول: «عزيزي اللورد روتشيلد ـ يسعدني كثيرًا أن أنهي إليكم نيابة عن حكومة جلالة الملك ـ أي ملك إنجلترا ـ التصريح التالي تعاطفًا مع أماني اليهود الصهيونيين التي قدموها ووافق عليها مجلس الوزراء. إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل ما في وسعها لتحقيق هذا الهدف، وليكن مفهومًا بجلاء أنه لن يتم شيء من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية للجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين أو بالحقوق والأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى. إنني أكون مدينًا لكم بالعرفان لو قمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني» «النص من موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ـ تأليف وإشراف الدكتور عبد الوهاب المسيري».

وطبعًا تم تحقيق الجزء الأول من هذا «الوعد» وهو إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، أما الجزء الثاني وهو «عدم الإخلال بالحقوق المدنية للجماعات غير

اليهودية» فقد نفضت إنجلترا يدها من هذا الجزء وسمحت باستخدام جميع الأساليب غير القانونية وغير الإنسانية ضد «الجماعات غير اليهودية» وهو تعبير بالغ الالتواء والانحطاط في وصف العرب، وهم شعب فلسطين الأصلي. فلم يكن العرب في فلسطين «جماعات غير يهودية» بل كانوا شعبًا يملك هذه البلاد ويسكنها منذ آلاف السنين، ولكن تعبير «الجماعات غير اليهودية» هو تعبير صادق عن الأساليب السياسية الإنجليزية الملتوية التي تقوم على الغموض وتحميل الكلمات والعبارات أكثر من معنى واحد. وهذا كله صورة من سوء النية وخراب الذمة السياسية عند «بلفور» ومن ساندوه لإصدار هذا الوعد الذي لا حق له في إصداره، لأن فلسطين لم تكن من ممتلكاته الخاصة، ولا من ممتلكات بلاده، ولم يكن يحق له أو لغيره أن يتصرف فيها ويمنحها لمن يشاء.

ولعل ظهور أسرة «فيصل الحسيني» «1940 ــ 2001» على مسرح التاريخ الفلسطيني الحديث يكون مرتبطًا بوعد «بلفور». فقد كان هذا الوعد الإنجليزي بداية للشر الكبير الذي أصاب فلسطين. وكان لابد أن تظهر مقاومة لهذا الشر. وهنا ظهرت أول شخصية بارزة في أسرة «الحسيني» وهو «موسى كاظم الحسيني» «1853 ــ 1934»، جد «فيصل الحسيني». وتاريخ هذا الجد العظيم في النضال هو تاريخ في غاية القوة والأصالة والإشراق. فقد عينه الإنجليز رئيسًا لبلدية القدس مع بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين، وذلك لعلمه وكفاءته ومكانة أسرته العريقة في القدس. وكانت السلطات البريطانية قد اشترطت عليه عند تعيينه في هذا المنصب الرفيع ــ كما تقول الموسوعة الفلسطينية ــ ألا يشتغل بالسياسة». ولكن السياسة في ذلك الوقت لم تكن هواية للتسلية يمكن التخلي عنها بسهولة. بل كانت السياسة هي الوطنية، وكان الوطن نفسه يتعرض للضياع ويتم التخطيط لتسليمه لليهود على أيدي الإنجليز وكان «موسى كاظم الحسيني» لها»، فلم يتردد، واستقال من منصبه ليكون رئيسًا «للمؤتمر العربي الفلسطيني» وهو أول تنظيم فلسطيني للمقاومة بعد صدور «وعد بلفور»، وقاد «موسى كاظم الحسيني» المظاهرات الكبرى ضد الإنجليز والصهيونية منذ سنة

1920. وقد أعلن «المؤتمر الوطني الفلسطيني» بقيادة موسى كاظم الحسيني «بطلان وعد بلفور» وطالب بإلغائه ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وطالب المؤتمر أيضًا بتكوين حكومة وطنية مسئولة أمام برلمان ينتخبه شعب فلسطين، ونادى المؤتمر بتوحيد فلسطين مع شقيقاتها من الدول العربية الأخرى. وسافر موسى كاظم الحسيني إلى إنجلترا سنة 1922 لعرض القضية الفلسطينية على الرأي العام البريطاني، وحقق بعض النجاح في ذلك، ولكن القوة الصهيونية التي كان تملك من التأثير السياسي والاقتصادي أكثر بكثير مما يملكه الفلسطينيون أدت إلى أن يصدر «مجلس العموم» البريطاني قرارًا في 4 يوليو سنة 1922 يؤيد فيه سياسة الحكومة البريطانية القائمة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وعاد موسى كاظم الحسيني إلى ساحة المقاومة والنضال، وظل على موقفه المخلص الشجاع حتى وفاته. وتقول عنه «الموسوعة الفلسطينية: «كان موسى كاظم الحسيني هو الأب الجليل للحركة الوطنية الفلسطينية طوال السنوات التي قضاها رئيسًا للجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني، وترأس خلال هذه الفترة جميع الوفود التي ذهبت إلى لندن لإقناع حكومتها بالتخلي عن سياسة وعد بلفور. وفي سنة 1933 قاد المظاهرات في القدس، وكان في الثمانين من عمره، وفي هذه المظاهرات أصيب بجراح تم نقله على أثرها إلى المستشفى، وتوفي في السنة التالية، أي سنة 1934».

ولم يكد «موسى كاظم الحسيني» يرحل عن الساحة حتى ظهر البطل الثاني في «الأسرة الحسينية» العظيمة وهو «عبد القادر الحسيني» ابن «موسى كاظم الحسيني» وقد شهد عبد القادر بعض المراحل في كفاح والده. وعندما مات الوالد كان عبدالقادر في السادسة عشرة من عمره، فهو من مواليد 1908. وقصة كفاح «عبد القادر الحسيني» منذ شبابه وحتى استشهاده سنة 1948 وهو في الأربعين من عمره هي قصة طويلة ومملوءة بالحيوية والروعة والإرادة الوطنية القوية. وأتوقف أمام بعض الصفحات في هذه القصة اعتمادًا على الموسوعة الفلسطينية الصادرة في أربعة مجلدات كبيرة تحت إشراف الدكتور أنيس صايغ سنة 1984. فقد التحق عبد القادر الحسيني بكلية

العلوم في الجامعة الأمريكية بالقاهرة «وفي القاهرة اتصل بالحركة الوطنية المصرية واقترب من حزب الوفد المصري القديم، كما مارس نشاطه السياسي من خلال رابطة «الطلبة الشرقيين» واكتشف مدى خطورة الدور السياسي الذي كانت تلعبه الجامعة الأمريكية في ذلك الوقت، فانتهز فرصة حفل تخرجه وتخرج زملائه الذي أقامته الجامعة في صيف 1932. ووقف خطيبًا في الحضور، وبينهم الوزراء ورجال السلطة، فكشف زيف الدور العلمي الذي تزعم الجامعة الأمريكية القيام به، وطالب المصريين بمقاطعة الجامعة الأمريكية، وبعد عدة أيام وزع بيانًا تفصيليًا على الصحف المصرية، ضمنه اتهاماته للجامعة الأمريكية، وعلي أثر ذلك أصدرت الحكومة المصرية في عهد إسماعيل صدقي «باشا» أمرًا بطرد عبد القادر الحسيني من مصر مع نهاية سنة 1932».

بعد ذلك عاد عبد القادر الحسيني إلى فلسطين وشارك في جميع الانتفاضات الثورية التي حدثت بها حتى قيام حرب 1948 بين العرب واليهود. وفي خلال هذه الفترة الطويلة تنقل عبد القادر الحسيني بين العراق وسوريا والسعودية وألمانيا، ثم عاد إلى القاهرة في بداية سنة 1946، وقد أمرت حكومة «السعديين» في مصر بإبعاده سنة 1947 بسبب نشاطه السياسي وتجميعه للأسلحة وتدريبه بعض الفلسطينين والمصريين «استعدادًا لمحاربة اليهود».

ولكن قرار الحكومة المصرية بإبعاد عبد القادر الحسيني سنة 1947 لم يتم تنفيذه بسبب الضغوط التي مارستها القوي الوطنية المصرية على الحكومة».

«وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين في 29 نوفمبر سنة 1947 أعلن الفلسطينيون تشكيل منظمة مسلحة للجهاد المقدس، وتم اختيار عبد القادر الحسيني قائدًا عامًا لهذه المنظمة، فانتقل من مصر إلى فلسطين وألف «مجلس قيادة الثورة» وكانت خطة عبد القادر الحسيني تنحصر في:

1- اعتماد الشعب الفلسطيني على نفسه.

2- طلب الإمداد العسكري من الأقطار العربية.

3- إعلان قيام حكومة عربية فلسطينية. وبالرغم من ميل ميزان القوى العسكري إلى صالح العصابات الصهيونية في نواحي التدريب والحجم والتسليح، فإن قوات «الجهاد المقدس» بقيادة عبد القادر الحسيني تمكنت من إحراز انتصارات كبيرة، وكان أهم هذه الانتصارات السيطرة على منطقة القدس بالكامل، والتحكم في خطوط المواصلات التي تربط بين أغلب المستعمرات الصهيونية في فلسطين».

ثم جاءت لحظة النهاية في تاريخ هذا البطل الشهير «ففي أواخر شهر مارس سنة 1948 توجه عبد القادر الحسيني إلى دمشق، طلبًا للسلاح من جامعة الدول العربية، لكن رجاءه خاب، وفي أثناء غيابه عن القدس سقطت قرية «القسطل» في أيدي العصابات الصهيونية المسلحة، فعاد عبد القادر الحسيني ومعه ستون بندقية إنجليزية قديمة وعشرة مدافع رشاشة وعدد قليل من القنابل، هي كل ما استطاع انتزاعه من الجامعة العربية ولجنتها العسكرية، بالإضافة إلى ثمانمائة جنيه فلسطيني حصل عليها من الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا. ووصل عبد القادر إلى القدس صباح يوم 7 إبرايل 1948 فنظم هجومًا مسلحًا على قرية «القسطل» واستطاع أن يسترد القرية العربية من أيدي اليهود في اليوم التالي أي في 8 إبريل 1948، ولكن هذا القائد استشهد أثناء المعركة وكان في الأربعين من عمره».

وعندما استشهد عبد القادر الحسيني سنة 1948 كان ابنه «فيصل» في الثامنة من عمره. وقد بدأ اسم فيصل يلمع بالتحديد بعد عدوان 1967، واستيلاء اليهود على القدس. فقد وقف «فيصل» ليواصل دور أسرته «الحسينية» في حماية القدس والدفاع عنها. وقد جعل «فيصل» من القدس رسالته الأساسية، بحكم أنه ابن هذه المدينة، وأنه ورث عن أبيه وجده ذلك الإحساس الكامل بالمسئولية تجاه القدس، فمن هذه المدينة كان كفاح الأسرة «الحسينية» يبدأ وكان إليها يعود، وكان الاستيلاء على القدس هدفًا غاليًا وثمينًا جدًّا عند اليهود، وخاصة الجزء الشرقي من المدينة والذي يوجد فيه المسجد الأقصى، حيث يقول اليهود إن المسجد الأقصى، قد أقيم فوق المكان الذي كان فيه هيكل سليمان، ولذلك فإن المتطرفين اليهود وعلى رأسهم

شارون يخططون لإعادة بناء «الهيكل» مكان المسجد الأقصي إن استطاعوا أن يهدموه، ولصعوبة تحقيق هذا الهدف وهو الهدم الكامل للمسجد الأقصى فإنهم يستعدون بخطط أخرى، منها إقامة الهيكل في نفق تحت المسجد الأقصى، ومنها بناء الهيكل في حرم المسجد الأقصى، أي في الساحة المكشوفة الموجودة أمام المسجد، وهذا هو التخطيط الذي يتبناه شارون ويقف وراءه ويستعد بتنفيذه في أول فرصة متاحة له. واليهود يرددون في صلواتهم بصورة دائمة قولهم «نلتقي العام القادم في أورشليم» وكلمة «أورشليم» هي الاسم العبري للقدس، وقد تغيرت هذه العبارة فأصبح اليهود المعاصرون بعد ظهور الصهيونية الحديثة يقولون في صلواتهم «العام القادم نعيد بناء أورشليم»، والمقصود بإعادة البناء هنا هو إعادة بناء هيكل سليمان الذي هدمه الرومان بصورة كاملة ونهائية حوالي سنة 70 ميلادية، فلم يعد له وجود منذ ألفي سنة تقريبًا. وموقف اليهود من القدس يفسر تركيزهم الشديد على هذه المدينة، وضغوطهم المستمرة القاسية من أجل إفراغها من كل العرب الذين هم أصحاب المدينة وهم أهلها المقيمون بها منذ مئات السنين. وهنا يظهر العبء الثقيل الذي تحمله «فيصل الحسيني»، إذ كان فيصل منذ 1967 هو «المواطن العربي الأول في القدس»، ولم يأخذ هذا الموقع الرفيع المتقدم لمجرد أنه عميد الأسرة «الحسينية» ووريث نضالها الطويل في الدفاع عن القدس وحمايتها من السقوط النهائي في أيدي اليهود، بل أخذ «فيصل» هذه المكانة بفضل نضاله اليومي المستمر الذي لا تردد فيه.

فمنذ 1967 وحتى وفاته يوم الخميس آخر مايو سنة 2001، كان فيصل الحسيني يتعرض للسجن، وتحديد الإقامة، ويتقدم المظاهرات، ويعاني من كل أساليب التعذيب «والبهدلة» من الضرب إلى إلقاء الغازات الكثيفة على بيته، بحيث تصبح كل نسمة هواء يتنفسها أهل هذا البيت الكريم ملوثة بالغازات الغريبة الغامضة التي يستخدمها اليهود ضد المدنيين العرب.

وقد قال ياسر عرفات إن هذه الغازات التي تعرض لها فيصل الحسيني قبل وفاته بثلاثة أيام عندما كان يقود إحدى المظاهرات ويمشي في المقدمة تركت تأثيرها القاتل

على قلب فيصل الحسيني وكانت من أسباب موته المفاجئ ولاشك أن ما تعرض له فيصل من أذى مستمر واضطهاد متواصل على يد اليهود كان هو السبب الأساسي لما أصاب جسمه من تعب وإرهاق، وأدى إلى الأزمة القلبية التي قضت عليه.

كان فيصل الحسيني وجهًا جميلاً طيبًا، وكان ـ على صلابته ـ من كبار الصابرين المتسامحين الذين لا يتحدثون إلا في وضوح وتهذيب بل وعذوبة شديدة. فقد كان فيصل مثالاً رائعًا للتسامح والصبر مع الإيمان الثابت وعدم التفريط في أي حق من الحقوق أو في أي ملليمتر من مدينته الحبيبة القدس. وقد أسس منذ سنوات ما أصبح معروفًا في العالم كله باسم «بيت الشرق»، وهو مقر لحكومة عربية شعبية ليس لها طابع رسمي، كان يتولى حل مشاكل المواطنين العرب في القدس في جميع المجالات، وكان «بيت الشرق» منبرًا يرتفع منه صوت أهل القدس في التعبير عن أنفسهم والدفاع عن مصيرهم المهدد بالعدوان اليهودي المستمر. وكان كبار السياسيين في العالم يزورون هذا البيت برغم المعارضة المستمرة لهذه الزيارات من جانب إسرائيل. وقد حاولت الشرطة الإسرائيلية يومًا أن تمنع الرئيس الفرنسي «شيراك» من زيارة «بيت الشرق» ولكنه غضب غضبًا شديدًا وأصر على إتمام الزيارة برغم مقاومة اليهود.

كل من عرفوا فيصل الحسيني أجمعوا على أن نفسه كانت مثل وجهه، جميلة ومضيئة ومشرقة، وقد أجمعت الآراء على أنه كان مثلا عاليًا للأخلاق الرائعة الصافية النقية من كل شر وسوء. ولعله الزعيم الفلسطيني الوحيد الذي اضطر اليهود إلى أن يشهدوا له بأنه صاحب شخصية متحضرة راقية، فقد كان يفاوضهم أحيانًا فيجدون منه صلابة في الرأي وقوة في الحجة، مع تهذيب كامل في التعبير عن آرائه دون غموض أو التواء ودون توتر أو عصبية.

وقد مات الحسيني في الكويت حيث كان يقوم بأول محاولة من نوعها لإنهاء الخصومة بين الكويت والسلطة الفلسطينية، وهي الخصومة القائمة منذ 1990، حيث وقفت منظمة التحرير من الكويت موقفًا لم يتوقعه أهل الكويت، وحيث لا تزال الآثار

السلبية لهذا الموقف حية في نفوس الكويتيين إلى الآن. وقد كان فيصل الحسيني هو وحده القادر على أن يبدأ هذه المحاولة الصعبة. لأن الحسيني لم يجرح بالقول ولا بالفعل أحدًا من العرب، سواء كانوا من الكويتيين أو غيرهم.

إذا صح وصف حياة إنسان بالشاعرية، أي الرقة واللطف والعذوبة والصفاء والنقاء، فإن هذا هو ما ينطبق تمامًا على فيصل الحسيني. وبرغم أن رسالته في الحياة هي المقاومة والنضال والصبر على الأذى وإحياء الثقة بالمستقبل في نفوس العرب اليائسين، إلا أن هذا كله لم يفقد «فيصل الحسيني» صفاءه ولا هدوء صوته ولا نقاءه ولا شاعريته التي كانت تضيء وجهه الطيب الجميل. وتضيء أيضًا كل جوانب شخصيته الرائعة.

لقد عاش فيصل الحسيني حياته كلها محبوبا من الجميع إلا حساده. ومن الغريب أنه كان له حاسدون يضيقون بحب الناس له والتفافهم حوله وتفاؤلهم به، وبما كان يثيره في نفوسهم من الصبر والإصرار على المقاومة في ظروفهم الصعبة القاسية. والحاسدون الذين أغاظهم ذلك الإجماع على الحب الغامر الذي كان يلقاه فيصل الحسيني في كل مكان وأغاظهم كذلك احتماله الشديد للآلام والمتاعب.. لعل روح «فيصل» الطيبة المتسامحة الكريمة تقول لهم ما قاله المتنبي في بيته الشهير:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه

أني بما أنا باك منه محسود؟

أو لعل روح «فيصل» تقول ما قاله «أبو تمام»:

أحبابه، لم تفعلون بقلبه

ما ليس يفعله به أعداؤه؟

زعماء في أثواب الشعراء

كان «لينين» «1870 ـ 1924» قائد الثورة الروسية سنة 1917 يقول إنه استطاع أن يفهم فرنسا من روايات كاتبها الفنان الكبير بلزاك «1799 ـ 1850» أكثر مما فهمها من كل كتب التاريخ. وكثيرًا ما أتذكر هذه العبارة وأنا أقرأ الشعر الفلسطيني الحديث بمدارسه المختلفة، فالمأساة الفلسطينية لم يسجلها المؤرخون وإنما سجلها الشعراء، لأن التاريخ الدقيق يحتاج إلى وقت طويل وقدر كبير من الهدوء والاستقرار حتى يصبح قابلاً للكتابة بدقة وأمانة، ولكن المأساة الفلسطينية لا تزال حية، والجراح الفلسطينية لا تزال تنزف، والمعاني التي تطرحها هذه المأساة على ضمير الإنسان هي معان تتجدد كل يوم، وفي هذه الحالة لا يستطيع أن يلمس «النار» بأصابعه إلا الشعراء.. والشعراء أولاً قبل غيرهم من أهل الفنون، فالكتابة الروائية أو المسرحية ـ على سبيل المثال ـ ليس من السهل أن تنضج على النيران التي يزداد لهيبها اشتعالا على الساحة الفلسطينية. والرواية والمسرحية مثل كتب التاريخ تحتاج جميعًا لكي تشتعل إلى نيران أهدأ من هذه النيران التي لا يشتعل فيها الشعر والشعراء. ولعل ذلك هو ما جعل الشعر هو أول الفنون التي عرفتها الإنسانية، فالشاعر لا يحتاج إلى بحث أو دراسة أو وثائق أو مراجعات أو معلومات، بل يحتاج إلى تجربة إنسانية تلسعه وتؤثر على وجدانه وتحركه فينطق بما في هذا الوجدان من مشاعر وانفعالات. ومن الثابت في تاريخ الآداب الإنسانية كلها أن «الأوائل» جميعًا كانوا من الشعراء. فالأول في الأدب اليوناني كان شاعرًا وهو «هو ميروس» «القرن الثامن قبل الميلاد» وقد كان يتغنى بالشعر حتى وهو يروي قصصه وحكاياته وملاحمه وكان

النقاد والمؤرخون اليونانيون يقولون عنه: «إنه البداية والنهاية، وإنه معلمهم ونبيهم، بعث نهضتهم، وخلق منهم أمة قوية تؤمن بدين واحد، وتتخذ لغة واحدة». وأول الأدب الإنجليزي هو الشاعر «تشوسر» «1340 ـ 1400» صاحب «حكايات كانتربري»، ويمكن أن يكون شيكسبير «1564 ـ 1616» هو الأول مكررًا في الأدب الإنجليزي. و«تشوسر» و«شيكسبير» هما اللذان وضعا الأساس الأول والراسخ للأدب الإنجليزي والشخصية الإنجليزية. والأدب العربي لا يختلف عن غيره من الآداب العالمية، فأول الأدب العربي شاعر هو امرؤ القيس «497 ـ 545»، فبه يبدأ الأدب العربي وبه تبدأ رحلة هذا الأدب في التاريخ الذي يمتد إلى حوالي ألف وخمسمائة عام حتى الآن. ولعلنا لا ننسى هنا أيضًا أن الأدب الإيطالي بدأ بشاعر كبير أيضًا هو دانتي «1265 ـ 1321» ودانتي ليس واضع الأساس للأدب الايطالي فقط، ولكنه مثله مثل تشوسر وشيكسبير في اللغة الإنجليزية هو واضع الأساس للغة الإيطالية أيضًا، والذي لولاه لما استطاعت هذه اللغة أن تتطور لتصبح على ما هي عليه الآن. وهكذا يبدو لنا أن الشعراء الكبار هم زعماء أيضًا لشعوبهم. ولولا هؤلاء الشعراء لعجزت الشعوب عن أن تجد بين أفرادها تلك الخيوط الحريرية التي تربط بين الناس والأجيال في الشعب الواحد، ولعجز هؤلاء المواطنون أن يجدوا رابطة روحية عميقة تربط بينهم وبين الأرض التي يعيشون فيها. ولذلك فليس من المبالغة أن نقول إن طاغور «1861 ـ 1941» شاعر الهند الكبير هو الذي قام بأشعاره المضيئة شخصية الهند الحديثة، وإذا كانت الشخصية الهندية مدينة لنهرو في جانبها السياسي، فهي مدينة في جانبها الروحي لطاغور وأشعاره الإنسانية الرائعة، والتي كانت مادتها وفلسفتها وأنغامها كلها مستمدة من روح الهند المبعثرة، فجمعها الشاعر الكبير في قصائده وجعلها «هندا» ذات روح واحدة وهذا ما يقال أيضًا عن شاعر باكستان العظيم محمد إقبال «1873 ـ 1938» فلولا «إقبال» ما كانت باكستان تملك شخصية روحية تمكنها من إقامة دولة مستقلة لها وزن في التاريخ الحديث. و«إقبال» الشاعر هو الذي وَحَّدَ باكستان من الناحية الروحية أما الذي وحدها من الناحية السياسية فهو الزعيم محمد علي جناح «1876 ـ 1948». وفوق هؤلاء جميعًا كانت ترفرف روح غاندي

«1869 ـ 1948» بجناحيها المليئين بالحنان، فغاندي هو الأب بالنسبة للجميع، فهو الشاعر والسياسي والزعيم الروحاني، والذي كانت أحلامه كلها تتجه إلى عدم تقسيم الهند إلى هند وباكستان، ولكن التقسيم حدث، ثم انقسمت باكستان إلى «باكستان» و«بنجلاديش»، وتوشك الهند أن تنقسم مرة أخرى إلى «هند» و«كشمير»، وفي تاريخ فارس أيضًا سوف نجد أن شاعرها الكبير أبو القاسم الفردوسي «932 ـ 1020» مؤلف ملحمة «الشاهنامة» الشهيرة هو الذي أنقذ اللغة الفارسية من الموت، وأحياها بعد أن أوشكت أن تختفي وتزول، وبإحياء اللغة الفارسية استطاعت إيران أن تظهر إلى الوجود بشخصيتها القومية الخاصة، وما أداه الشاعر الفردوسي لإيران واللغة الفارسية يشبه تمامًا ما أداه «دانتي» لإيطاليا واللغة الإيطالية، وإن كان فيما قام به «الفردوسي» ما يحزننا ـ نحن العرب ـ بعض الحزن، لأن الفردوسي في «الشاهنامة» حرص على أن تخلو ملحمته الشعرية من أية كلمة عربية، وكانت اللغة الفارسية قائمة في كثير من ألفاظها على الاستعانة باللغة العربية، وكانت الألفاظ العربية تملأ اللغة الفارسية، فجعلها الفردوسي لغة فارسية خالصة، ونفى الكلمات العربية منها، وبذلك أقام أساسًا قويًا مستقلاً لهذه اللغة، وأقام معها أساسًا قويًا آخر للقومية الفارسية، وقد عاش الفردوسي كما أشرنا بين 932 وسنة 1020، أي منذ حوالي ألف سنة، وبعد أن قامت اللغة الفارسية على أقدامها بفضل «شاهنامة» الفردوسي، عادت هذه اللغة لتستعين باللغة العربية وتقتبس منها ألفاظًا كثيرة، ولكن اللغة الفارسية فعلت ذلك وهي قوية ومستقلة بفضل أشعار الفردوسي. فالشعراء الكبار زعماء مؤسسون للدول والشعوب، وخاصة عندما يظهرون في أوقات الأزمات التاريخية التي تتعرض فيها هذه الدول والشعوب لتحولات كبيرة وصراع حاد بين الوجود والبقاء أو التلاشي والزوال.

وفلسطين تدخل في هذا الإطار.

فقد بدأت فلسطين تظهر بقوة على الخريطة العربية والعالمية منذ أواخر القرن التاسع عشر، أما قبل ذلك فقد كانت جزءًا من سورية، وكانت تسمى باسم «سورية الجنوبية» وإن لم تفقد اسم «فلسطين» أبدًا لأنه اسم تاريخي قديم، والسبب في الظهور الحديث

لفلسطين هو قيام الحركة الصهيونية التي وضعت عينها على هذه الأرض، وحددت لنفسها هدفًا أساسيًا هو الاستيلاء عليها باعتبارها الأرض التي كان يعيش عليها اليهود منذ ثلاثة آلاف سنة، وهي الأرض التي أقام عليها داود وسليمان مملكة إسرائيل الصغيرة، في ذلك التاريخ البعيد. وعملت الحركة الصهيونية بجد ونشاط حتى استطاعت أن تفتح باب الهجرة الواسعة لليهود إلى فلسطين، واستطاعت الصهيونية أن تمول هذه الهجرة الوافدة من شتى أنحاء الأرض، وأن تشتري الكثير من أراضي فلسطين بالإغراء المادي والقوة العسكرية والإجبار للأهالي على البيع إن لم يبيعوا طائعين، ثم تحالفت الصهيونية تحالفًا وثيقًا مع الاستعمار الغربي وكانت الأهداف الصهيونية تلتقي مع الأهداف الاستعمارية إلى حد التطابق، وكان العرب مغلوبين على أمرهم وخاضعين للاستعمار الغربي الذي كان يتصرف في أمورهم كما يشاء، وبعد انهيار الإمبراطورية التركية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة 1918، أصبحت يد بريطانيا مطلقة تمامًا في فلسطين. وبدأت المأساة الفلسطينية تدخل منذ ذلك التاريخ في مرحلة عملية بالغة الخطورة، مستندة إلى التحالف الكامل بين بريطانيا واليهود، وأخذت أجزاء كثيرة من أرض فلسطين تتسرب من أيدي العرب حتى جاءت سنة 1948، فأعلن اليهود إقامة دولة إسرائيل، وإسرائيل الأولى التي قامت سنة 1948 لا تزيد على ثلث إسرائيل القائمة الآن، فقد توسعت إسرائيل وتخطت الحدود المرسومة لها في قرار التقسيم الدولي سنة 1947، وضمت إليها مدنًا لم تكن لها في هذا القرار مثل «عكا» و«حيفا» و«القدس» ولا تزال إسرائيل تتوسع حتى الآن عن طريق المستوطنات التي تقيمها في غزة والضفة الغربية، حتى أصبح أهل فلسطين محصورين في شريط ضيق صغير من أرضهم، ومع ذلك فإسرائيل تنازعهم على هذا الشريط المحدود، وترفض حتى اليوم أن تعترف به كوطن نهائي للفلسطينيين الذين فقدوا ثلاثة أرباع وطنهم الأصلي، ولم يبق لهم إلا هذا الجزء الصغير الذي يعيشون عليه الآن ويحاولون إقامة دولتهم فيه.. حتى بعد هذا كله فاليهود يعاندون ولا يريدون أن يتركوا مترًا واحدًا للفلسطينيين يتحركون فيه بأمان وسلام.

وقد كانت الفترة ما بين سنة 1918، وهي تاريخ انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبداية الانتداب البريطاني على فلسطين، وبين سنة 1948، وهو تاريخ إعلان قيام دولة

إسرائيل، هي فترة الميلاد القاسي للشعر الفلسطيني الحديث، ففي تلك الفترة كانت الأرض الفلسطينية تتسرب أمام العيون مترًا بعد متر، وكانت هناك خيانات وصفقات يقوم بها بعض من فقدوا ضمائرهم وانقطعت صلتهم بشعب فلسطين وفضلوا أن يكونوا من أصحاب الأموال على أن يكونوا من أصحاب الأوطان والضمائر، ومن ذلك ما يذكره أحد شعراء الجيل الفلسطيني الأول وهو الشاعر الكبير «أبو سلمى» في ديوانه الكامل حيث يقول في مقدمة قصيدته «حمام الوادي»:

«وادي الحوارث أراض خصيبة تبلغ مساحتها 33 ألف دونم يقع على الساحل بين حيفا ويافا، وقد باعه «آل التيان» اللبنانيون لليهود بثمن صوري يبلغ 41 ألف جنيه فلسطيني، وفي سنة 1933 قامت الحكومة البريطانية بإجلاء سكان الوادي وكانوا كلهم من العرب ويبلغ عددهم 1500 نسمة، وقد تم طردهم مع مواشيهم بالقوة بعد أن قتل الجنود البريطانيون بعض الأهالي، وكان شيخ عرب وادي الحوارث اسمه الشيخ «إسماعيل الحوفي». وهذه القضية نفسها، أي قضية بيع الأرض تحت تهديد السلاح أو بإغراء المال، هي التي دفعت أحد شعراء الجيل الأول في فلسطين إبراهيم طوقان «1905 ـ 1941» إلى كتابة قصيدة شهيرة عن الذين يبيعون الأرض لليهود وفيها يقول:

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعًا
بالمال لكنما أوطانهم باعوا

قد يعذرون لو أن الجوع أرغمهم
والله ما عطشوا يومًا ولا جاعوا

ولقمة العار عند الجوع تلفظها
نفسي، لها عن قبول العار رداع

تلك البلاد إذا قلت: اسمها «وطن»
لا يفهمون، ودون الفهم أطماع

يـــابـــائـــع الأرض لـــم تـــحـــفـــل بـــعـــاقـــبـــة

ولا تـــعـــلـــمـــت أن الـــخـــصـــم خـــداع

فـــكـــر بـــمـــوتك فـــي أرض نشـــأت بـــهـــا

واتـــرك لـــقـــبـــرك أرضًـــا طـــولـــهـــا بـــاع

وفي هذه القصيدة لإبراهيم طوقان نقرأ بيته الشهير:

أعـــداؤنـــا مـــنـــذ أن كـــانـــوا صـــيـــارفـــة

ونـــحـــن مـــنـــذ هـــبـــطـــنـــا الأرض زراع

ولاشك أن بائعي الأرض هؤلاء كانوا أقلية، ولكنها كانت أقلية شديدة الخطر في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ فلسطين والتي تمتد ما بين 1918 و1948، وقد ارتكب هؤلاء البائعون للأرض جريمة، ولكن مما يخفف من إدانتهم أنهم لو لم يبيعوا الأرض مختارين لأرغمهم الإنجليز واليهود بقوة السلاح على ذلك، وهذا ما كان يحدث في العادة.. فإما أن تبيع باختيارك وإما أن يتم انتزاع الأرض منك بالقوة وقتلك إذا لزم الأمر. والخطأ الأساسي الإجرامي كان قائمًا أساسًا في القوانين التي فرضتها بريطانيا على فلسطين بقصد وسوء نية وتخطيط واسع للشر القادم في المستقبل. فلا يوجد بلد في العالم يسمح ببيع أراضيه للأجانب دون أن تكون هناك ضوابط وحدود تمنع تحول أرض بلد من البلدان إلى يد أجانب من خارج هذا البلد. فمثل هذا القانون ــ الذي لا وجود لمثله في أي بلد من بلدان العالم ــ معناه أن يصبح مواطنو هذا البلد غرباء عن بلدهم بالتدريج، ويصبح الغرباء هم المسيطرون على هذا البلد كما حدث في فلسطين.

المهم أن المأساة الفلسطينية كانت «تتشكل» بصورة يومية منذ سنة 1918 إلى سنة 1948 وهي سنة الذروة في المأساة الفلسطينية. أي سنة إعلان قيام دولة إسرائيل. في تلك الفترة التي تبلغ حوالي ثلاثين سنة، كانت الأحداث اليومية تتوالى بسرعة وبصورة مفجعة جدًا، وفي هذه الأجواء المأساوية كان الميلاد القاسي لشعر فلسطين في الجيل

الأول من شعرائها المعاصرين، والثلاثة البارزون في هذا الجيل، والذين يمكن اعتبارهم روادًا مؤسسين لحركة الشعر الفلسطيني المعاصر وهم: إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى «عبد الكريم سعيد الكرمي». فقد ظهر هؤلاء الشعراء في ثلاثينيات القرن الماضي، أي القرن العشرين، وشاهدوا تفاصيل المأساة وهي تنسج خيوطها خيطًا خيطًا، وربما لم يخطر على بالهم أبدًا، رغم وعيهم وإحساسهم بالخطر، أن الأمور سوف تنتهي إلى ما انتهت إليه من قيام إسرائيل وسيطرة اليهود على ثلاثة أرباع فلسطين. وقد كان ظن هؤلاء الشعراء الكبار المؤسسين لتاريخ الشعر الفلسطيني الحديث، أن مقاومة ما يجري أمامهم سوف تكون كفيلة بالوقوف في وجه المحنة ووضع حد لها. وقد وصلت مقاومة الفلسطينيين إلى قمتها سنة 1935، بإعلان حرب شعبية ضد الإنجليز واليهود بقيادة الشيخ المجاهد «عز الدين القسام» «1882 ـ 1935» وبعد استشهاد «القسام» في نوفمبر «تشرين الثاني» 1935 استمرت الثورة ووصلت إلى درجة عالية من النضج والقوة سنة 1936، وأوشكت هذه الثورة أن تنجح في تحقيق أهدافها وإقامة حكومة وطنية عربية فوق أرض فلسطين، وأن تنقذ الكثير من الحقوق العربية قبل أن تتعرض للضياع الكبير، ولكن المؤامرة على ثورة 1936 كانت قوية ومحكمة، واشترك فيها عدد من الحكام والسياسيين في الأقطار العربية الأخرى خارج فلسطين، وكان العقل المدبر لهذه المؤامرة هو السياسي العراقي الشهير نوري السعيد، فأصدر هؤلاء السياسيون العرب بيانًا شهيرًا يقولون فيه بالنص: «لقد تألمنا كثيرًا للحالة السائدة في فلسطين فنحن ندعوكم للإخلاد للسكينة، حقنًا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم».

والخطاب في هذا البيان موجه إلى ثوار فلسطين سنة 1936. وقد تبنت «اللجنة العربية العليا» في فلسطين بقيادة الحاج أمين الحسيني هذا البيان، وأذاعته على الجماهير الفلسطينية الثائرة في 11 أكتوبر «تشرين الأول» سنة 1936، مع بيان باسم اللجنة العربية العليا أعلنت فيه تلبية النداء ودعت الأمة العربية الكريمة في فلسطين إلى الإخلاد إلى السكينة وإنهاء الإضراب والاضطرابات ابتداء من يوم الاثنين الموافق 12 أكتوبر «تشرين الأول» 1936.

وهكذا وقعت ثورة 1936 الفلسطينية الكبرى في «مصيدة الخداع البريطاني» بمساهمة بعض الزعماء العرب ومنهم زعماء فلسطينيون، ولاشك أن بعض الزعماء العرب الذين اشتركوا في عملية تهدئة الثورة كانوا يتصورون أنهم على حق، وكانوا يتصورون أن بريطانيا جادة بالفعل في تحقيق شيء من العدالة المنشودة للفلسطينيين، إذ إن هؤلاء الزعماء لم يدركوا بوضوح أن بريطانيا هي التي تخطط بصورة كاملة ودقيقة وقائمة على الكذب والخداع لإتمام المشروع الصهيوني فوق أرض فلسطين، وذلك على حساب أصحاب الأرض الأصليين من العرب. وهكذا وقع العرب فيما تعودوا أن يقعوا فيه حتى الآن، وهو تصديق الوعود التي يسمعونها من القوى الكبرى، ظنًا منهم أن الكبار لا يكذبون ولا يخدعون. بينما قامت سياسة الدول الكبرى تجاه العرب في القرن العشرين كله على الكذب والمراوغة والخداع والعدوان على الحقوق الأساسية.

في هذا المناخ المأساوي القاسي ولد الشعر الفلسطيني الحديث، وظهر الجيل الأول من رواده، وهم الثلاثة الذين أشرنا إليهم من قبل: إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى. أما إبراهيم طوقان فقد مات سنة 1941 قبل أن تبلغ المأساة قمتها، فأما عبدالرحيم محمود فقد استشهد سنة 1948، أما أبو سلمى فقد امتد به العمر حتى سنة 1980، وأتيح له أن يشهد الكثير من فصول المأساة ويعبر عنها في أشعاره الجميلة الرقيقة، فقد شهد أبو سلمى مأساة 1948، وفيها خرج من مدينته حيفا إلى دمشق، على أساس أنه سيعود إلى بيته في حيفا خلال أسبوعين، وحمل معه مفاتيح بيته ومكتبه، فقد كان يعمل بالمحاماة، على أنه لم يعد إلى بيته ولا إلى بلده أبدًا وحتى وفاته بعد اثنين وثلاثين عامًا من خروجه. وقد بقيت معه مفاتيح البيت والمكتب حتى النهاية. ومع هذا الشاعر، وقصائده الجميلة الصادقة المليئة بالغضب والسخرية والحنين والحنان، هذا هو الميلاد القاسي للشعر الفلسطيني الحديث، والذي يمكن اعتباره ـ دون أية مبالغة ـ هو الوثيقة الأولى التي تسجل بصدق وقوة وأمانة كل فصول المأساة الفلسطينية، وهي المأساة المستمرة إلى اليوم. فالشعراء في فلسطين أسبق من المؤرخين، وهم المصدر الأساسي لمعرفة الحقائق فيما حدث، وما كان متوقعًا أن يحدث في المستقبل.

مع الشاعر الذي أنساني.. أحزاني!

عندما تنزف جراح الفلسطينيين بقسوة وعنف أجد نفسي مثل المريض المصاب بالسير أثناء النوم، فأنا أتجه على الفور ودون تفكير أو تدبير إلى الشعراء الفلسطينيين الذين أحبهم: سميح القاسم ومحمود درويش وفدوى طوقان، بل أتجه أبعد من ذلك إلى أشعار إبراهيم طوقان وأبو سلمى وعبد الرحيم محمود من شعراء الجيل الفلسطيني السابق، ومن يتفضل بزيارتي الآن في بيتي سوف يجد هؤلاء الشعراء يحيطون بي في كل مكان حتى في غرفة نومي، فدواوين أشعارهم أمامي في كل ناحية من نواحي البيت.. فوق مكتبي وإلي جانب سريري، فأنا لا أستغني عن قراءة أشعارهم في الصباح والمساء، وأحلم بهم وأنا نائم، بل أحلم بهم وأنا يقظان، والوجوه التي أعرفها من هؤلاء الشعراء الأحباء لا تفارقني.. الأحياء منهم والراحلون على حد سواء. وعلى رأس هؤلاء الشعراء من الراحلين الشاعر «أبو سلمى» والذي أتيح لي أن أصادقه صداقة حميمة جدًا في الستينيات والسبعينيات، وحتى وفاته في دمشق سنة 1980 عن ثلاثة وسبعين عامًا، فهو من مواليد مدينة «طولكرم» سنة 1907. وكنت قبل تعرفي على «أبو سلمى» أقرأ بعض قصائده المتناثرة التي يتاح لي أن أحصل عليها في جريدة أو مجلة أو في كتاب عن تاريخ الأدب الفلسطيني المعاصر، وأحببت شعره لبساطته وصدقه ودفئه واقترابه الحميم من القلب، وقد قرأت هذا الشعر وأنا في عز «انهماكي» المتحمس في حركة الدفاع عن الشعر الجديد، أو ما كنا نسميه في الخمسينات والستينات باسم «الشعر الحر»، وقد كان «الشعر الحر» يتعرض في تلك الفترة لمقاومة

شديدة من كثير من الأدباء، حتى الكبار منهم مثل العقاد، والذين كانوا يرون في حركة «الشعراء» دعوة إلى الفوضى الشعرية في الأدب العربي، وكان الذوق العربي العام خاضعًا لتأثير هؤلاء الأدباء الكبار، فلم يكن ميلاد الشعر الجديد أو الشعر الحر يسيرًا، بل كان ميلاده عسيرًا جدًا، ومن هنا كان حماسي وحماس أمثالي من أبناء الجيل في الخمسينات والستينات لحركة الشعر الجديد أشبه بالحماس الوطني الذي يتعرض للعدوان والقهر، فيختار المقاومة والاندفاع في الدفاع عن نفسه وعن رؤيته المختلفة وذوقه الشعري الخاص وحريته في أن يبتكر أشكالاً وأنغامًا جديدة غير مألوفة في التراث الشعري العربي المألوف. ودائمًا عندما تكون هناك قضية جديدة وليدة تتعرض للرفض والمقاومة من القوى الراسخة القائمة، تحدث مبالغات شديدة، سواء في جانب الرفض والاعتراض أو في جانب الدفاع والمقاومة. وقد بالغنا نحن المدافعين عن الشعر الجديد وأخذنا نهاجم تراثنا الشعري العربي هجومًا عنيفًا، وأذكر أن أول مقال نشرته مجلة الآداب البيروتية سنة 1953، وكنت لا أزال طالبًا في الجامعة كان عنوانه «الماضي المرفوض»، وفيه أهويت ـ بحماقة ومراهقة فكرية ـ على التراث العربي وأعلنت ـ هكذا ببساطة ـ نفض يدي منه لأنه عبء ثقيل وعائق يحول بيننا وبين التقدم والنهوض والحرية والقدرة على الابتكار والتجديد. وكلما تذكرت هذا المقال ضحكت من نفسي أو ضحكت عليها، فقد كانت هذه المبالغات وأمثالها اندفاعًا مني ومن كل أبناء جيلي على التقريب في محاولة لأن نجد لأنفسنا مكانًا في الزحام الأدبي نقف فيه، حيث كنا نشعر أننا نعيش في «أزقة أدبية» ضيقة، ونشعر أننا محاصرون، وكأننا «يهود» في «جيتو» أو في مكان منعزل ضيق يتكدسون فيه منفصلين عن العالم خارج هذا «الجيتو»، وكان الفرق بيننا وبين اليهود أن اليهود كانوا يتعمدون عزل أنفسهم في «جيتو» يجمعهم ويحفظ لهم قوتهم حتى يتمكنوا من الانقضاض على العالم بعد ذلك بأنيابهم وأظافرهم، وللأسف فإن اليهود لم يجدوا من ينقضون عليه إلا الأمة العربية التي يشهد لها الجميع ـ حتى اليهود أنفسهم ـ بأنهم الأمة الوحيدة التي لم تضطهد اليهود على مر التاريخ كله، بينما اضطهدهم الألمان والروس والإنجليز والفرنسيون

والرومان والفرس والأتراك العثمانيون.. إلا العرب الذين كانوا بهم رحماء، وفي ظلهم عاش اليهود في أمن وكرامة، وكان جزاء العرب أسوأ الجزاء.

كانت حركة الشعر الجديد وأنصارها والمدافعون عنها من أمثالي معزولين في «جيتو أدبي» كنا مرغمين عليه، ولم نكن مختارين له. وأنا آسف جدًّا في هذا التشبيه المستمد من صورة «الجيتو اليهودي»، فهو تشبيه يقفز إلى الذهن من واقع الأحوال العربية التي نعيشها في صدام دموي مع الأخطبوط العنصري الصهيوني «اليهودي النازي»، وهو الصدام الذي يفرض نفسه علينا في هذه الأيام غير السعيدة.

وأعود إلى تلك الفترة في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات حيث كنا متعصبين للجديد في الشعر، وكان تعصبنا رد فعل للحصار الأدبي المفروض علينا من القوى الأدبية الجبارة القائمة، ويكفي أن أقول إن الحملة على الشعر الجديد في مصر كان يقودها العقاد وعزيز أباظة وزكي نجيب محمود، وغيرهم من كبار الأدباء أصحاب النفوذ الأدبي الذي امتد إلى نفوذ آخر الحياة العملية. وكان العقاد في ذلك الوقت هو رئيس «لجنة الشعر» في المجلس الأعلى للآداب، وكان «يؤشر» على كل قصيدة من الشعر الجديد بأنها «ليست شعرًا، وتحال إلى لجنة النثر»، وفي مؤتمرات الأدباء ومهرجانات الشعر التي كان يعقدها المجلس الأعلى للآداب، كان يوسف السباعي وهو المسئول عن هذا المجلس، يفرض على الشعراء الشبان الذين يختارهم للمشاركة في المؤتمرات والمهرجانات أن يكتبوا قصائدهم «بالشعر العمودي» حتى يمكن السماح لهم بالمشاركة، وكان هؤلاء الشعراء ـ ومنهم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ـ يستجيبون لما يطلبه يوسف السباعي، ليس من باب الخضوع، ولكن من باب التحدي؛ إذ كانوا يريدون بذلك أن يقولوا إنهم قادرون كل القدرة على كتابة الشعر العمودي والتفوق فيه، وإنهم لم يكتبوا شعرهم الجديد عن عجز وإنما عن قصد وتعمد؛ لأن الشكل الجديد للقصيدة هو الشكل الذي يعبر عن العصر الجديد وتجاربه الكبرى المختلفة في الحياة والثقافة والأدب عن كل ما سبقه من عصور.

ولعل مما يفيد في هذه الذكريات التي يحكمها «التداعي الحر» أن أشير إلى ظاهرة مهمة تكشف عن أحد المعاني العميقة في فكرة «الوحدة العربية» الأصيلة والبعيدة عن السياسة وعن كل الآراء النظرية التي تناصر «العروبة» أو تنكرها. هذه الظاهرة التي أعنيها تتصل بما يمكن أن نسميه باسم «الجغرافيا الأدبية» الحية، فهذه الجغرافيا الأدبية هي برهان لايمكن إنكاره على سلامة العروبة وأصالتها، إن لم يكن بالاقتناع العقلي، فعلى أساس الاحتياج الواقعي العملي الذي لا غنى عنه. فعندما كانت لبنان والشام عمومًا خاضعة لضغط الاستعمار التركي العثماني في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حدثت هجرة أدبية وفكرية واسعة من لبنان، والشام بوجه عام، إلى مصر، حيث كانت مصر خاضعة للاستعمار الإنجليزي، وكان الاستعمار الإنجليزي من ناحية الحرية الفكرية والأدبية أرحم بكثير من الاستعمار العثماني، فقد بلغ الجمود والتعصب والتخلف العقلي بالأتراك إلى حد استخدام الاضطهاد الديني ضد الأدباء والمفكرين المسيحيين ـ لمجرد أنهم مسيحيون ـ وخاصة في لبنان. وكان هذا النوع من التعصب الأعمى بعيدًا عن قلب مصر وعقلها في ظل الاحتلال الإنجليزي، الذي كان ـ كما قلت ـ أرحم من الاحتلال التركي العثماني، وكما يقول الشاعر العربي القديم فإن «.. بعض الشر أهون من بعض»، فالشر الإنجليزي على عنفه كان أهون بكثير من الشر العثماني، وقد احتضنت مصر في تلك الفترة «الهجرة الأدبية والفكرية» اللبنانية والشامية بصورة عامة.

وعندما ظهرت حركة الشعر الجديد في مصر في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات لم تجد عند ظهورها بيئة مرحبة بها في مصر، بل وجدت اعتراضًا ومقاومة ونفورًا حتى من الذوق الأدبي العام السائد، وهنا تظهر نعمة «العروبة» التي يمكن أن نقول عنها إنها «عبقرية المكان العربي» أو عبقرية «الجغرافيا الأدبية العربية»، فقد احتضنت لبنان احتضانًا شديدًا حركة الشعر الجديد في مصر، ولذلك كانت الدواوين الشعرية الأولى لكل الشعراء البارزين في حركة الشعر الجديد من المصريين منشورة في لبنان، وللحق فقد تبنت «دار الآداب» بالتحديد نشر كل

الدواوين الأولى لصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي وأمل دنقل ومحمد عفيفي مطر وغيرهم من الشعراء البارزين في تيار الشعر الجديد. وهكذا كان للجغرافيا الأدبية العربية عبقريتها، واستطاعت هذه العبقرية بسبب التنوع الكبير الذي تنطوي عليه أن تتيح للربيع أن يملأ الأرض بأزهاره على بقعة من الخريطة الأدبية؛ إذ هبط الخريف على بقعة أخرى بأوراقه الصفراء. وقد انتهى الأمر باستقرار الحركة الشعرية الجديدة التي ظهرت بقوة في أواسط الخمسينات والستينات، وإن كانت لها تباشير ومقدمات سبقتها في النصف الأول من القرن العشرين. والغريب أنه بعد استقرار حركة الشعر الجديد أو الشعر الحر وحصولها على الاعتراف الأدبي الواسع بها، أن تحركت الأحداث سريعًا بإيقاع لاهث، ولم يكد القرن العشرون يشرف على الانتهاء حتى كانت هناك حركة أدبية جديدة قد ظهرت لتعلن الثورة على حركة الشعر الحر، وتعتبرها حركة «قديمة» و«كلاسيكية» وتحتاج إلى تغيير من الجذور، وهذه الثورة هي «ثورة على الثورة»، فقد كان الشعر الجديد ثورة، ولكنه في نظر الثائرين اليوم بحاجة إلى ثورة أخرى.. ولكن عليه.

نترك هذا كله ونعود إلى الشاعر الذي استولى على قلبي في الستينات والسبعينات وهو الشاعر الفلسطيني الكبير «أبو سلمى» ـ وهذا هو اسمه الأدبي الذي اشتهر به ـ أما اسمه الأصلي فهو «عبد الكريم سعيد الكرمي»، ابن العلامة الفلسطيني الشهير «الشيخ سعيد الكرمي»، واسم «الكرمي» مستمد من اسم مدينة «طولكرم»، وهي المدينة التي تنتمي إليها هذه العائلة الكريمة ذات الجذور الثقافية والوطنية العالية.

عندما تعرفت على قصائد «أبو سلمى» ثم تعرفت على شخصه وتعلقت به بعد ذلك وامتلأ قلبي حبًا له ـ شاعرًا وإنسانًا ـ كنت مازلت أعيش في مرحلة الحماس العنيف لحركة الشعر الجديد. ولم يكن «أبو سلمى» من أصحاب الشعر الجديد في شيء، بل كان أقرب ما يكون إلى مدرسة الشعر الرومانسي الذي كان من أعلامه علي محمود طه وإبراهيم ناجي وإلياس أبو شبكة وعمر أبو ريشة وغيرهم. ومع ذلك، فقد وجد شعر «أبو سلمى» الطريق إلى قلبي وذوقي، وكان شعره يهزني روحيًا، ولم أشعر أنني أرتكب

«خيانة أدبية» بحبي لهذا الشعر الذي ليس من المدرسة الجديدة. وأنا أحد أنصارها المتحمسين والمحامين المدافعين عنها. وقد تعلمت أدبيًا من هذه التجربة مع شعر «أبو سلمى» وغيره من الشعراء القدماء والمعاصرين الذين وجدتهم يثيرون إعجابي ومحبتي ويملئون «عيني» الأدبية، رغم أنهم ليسوا من المدرسة التي أنا «مسجل» فيها وشديد الانتماء إليها.. تعلمت من هذه التجربة أن الحدود الأدبية بين ألوان الفن هي حدود مفتوحة وحرة أو يجب أن تكون كذلك، وأن حكاية «الستار الحديدي» لا تنفع شيئًا في الفن والأدب، وأنك إذا آمنت بمدرسة أدبية وفنية جديدة، فمن الظلم لنفسك وللفن أن تغلق قلبك وذوقك في وجه المدارس الأخرى، ففي الفن الحقيقي هناك عناصر أساسية وجوهرية، مهما تعددت المدارس واختلفت الأشكال، ولابد أن تبقى الحدود الأدبية مفتوحة وغير صارمة، فلا خطر على «الأمن الثقافي» أبدًا من هذه الحدود المفتوحة، بل الخطر هو التعصب وإغلاق كل مدرسة أدبية لكل أبوابها ونوافذها على نفسها، فذلك اختناق يمنع الهواء وأشعة الشمس. وأذكر هنا حديثًا نبويًا شريفًا يقول للمسلمين الأوائل ما معناه: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» أي من كان منكم فاضلاً في جاهليته فهو فاضل في إسلامه، وليس مجرد الانتماء إلى القديم أو إلى الجاهلية ـ في الزمان أو المكان ـ مانعاً من أن يكون عنصر الإنسان فاضلاً أو أصيلاً. وهذه القاعدة التي تنطبق على أهل العقيدة تنطبق على أهل الفن أيضًا، فالجمال والأصالة الروحية في الفن تبقى على ما هي عليه، رغم تعدد المدارس والعصور والمذاهب، ومن هنا فهمت وتقبلت إعجابي ومحبتي لشعر «أبو سلمى» رغم أنه ينتمي إلى مدرسة أخرى غير مدرستي الأدبية التي كنت ومازلت متحمسًا لها، وقد زادتني معرفتي الشخصية بالشاعر «أبو سلمى» محبة له ولفنه الجميل. فقد كان أبو سلمى من أجمل الشخصيات الإنسانية التي عرفتها في حياتي، وعلى كثرة ما تعرضت للمشاعر الخادعة التي اكتشفت بعدها أنني واهم في محبتي لبعض الناس الذين صدمتني الحياة فيهم، فلم أشعر لحظة واحدة بأنني مخدوع في شخصية «أبو سلمى»، وقد ظلت علاقتي قائمة معه منذ أوائل الستينات حتى وفاته سنة 1980 نلتقي مرة في

القاهرة ومرة في دمشق، ونقضي معًا ساعات طويلة أو أيامًا متتالية. وكان لقائي به يملأ روحي بالهدوء والسكينة، فكنت أجد معه المتعة والصفاء النفسي الكامل. فقد كان إنسانًا طيبًا صاحب عاطفة قوية ولكنها «منضبطة» وكان يتعامل مع الناس بالنية الحسنة، ولكنه مع ذلك لم يكن «ساذجًا»، ولم يكن قابلاً لأن يخدعه أحد، وكان شديد الذكاء، ولكن ذكاءه لم يكن فيه مكر أو دهاء، ولم يكن من هؤلاء الأذكياء الذين يستخدمون ذكاءهم في خدش الآخرين أو جرحهم أو إحراجهم، بل كان ذكاؤه مليئًا بالحنان واللطف والحياء، وكان موسوعة في المعرفة والذوق، يتكلم بحكمة وعاطفة وإيقاع، فيروي لك ما صادفه من تجارب واسعة في الحياة والأدب دون ثرثرة أو استطراد إلى ما هو ثانوي وغير ضروري، لأنه لم يكن من «هواة» الكلام في «الفاضي والمليان»، بل كان من أساتذة الكلام الذين يعرفون متى ينطقون ومتى يصمتون. فهو فنان في الحديث كما كان فنانًا في الشعر، ومفتاح فنه في شخصيته وأدبه هو البساطة والصدق والابتعاد عن كل ماهو استطراد زائد عن الحاجة. وكان له ذوق رفيع في اختيار أصدقائه والمحيطين به، فأصدقاؤه الذين أتيح لي أن أتعرف بعدد منهم على يديه كانوا مثل قصائده في الجمال والعذوبة، فقد كان «أبو سلمى» ينتقي هؤلاء الأصدقاء بمقياسه الروحي والذوقي والأخلاقي، فكانوا صورة قريبة من صورته، وفيها ملامح من هذه الصورة. وليس معنى ذلك أن أصدقاءه كانوا هم الذين يتفقون معه في كل شيء.. على العكس تمامًا، فقد كان فيهم الكثير من التنوع الذي تحبه النفس وترضاه، والمهم أن يكونوا من نفس معدنه هو.. في الثقافة والذوق والأخلاق والاهتمام الروحي بالجوانب العالية في الحياة . ولا أنسى تلك الليلة التي أمضيتها مع «أبو سلمى» في بيته بدمشق، حيث حقق لي ـ في تلك الليلة ـ رغبتي في التعرف على الشاعر العربي السوري الكبير «بدوي الجبل»، وقضينا تلك الليلة وأنا أنصت إلى أحاديث من أمتع أحاديث العمر، وكنا في تلك الليلة التي امتدت حتى الفجر خمسة: أبو سلمى وزوجته وأنا وزوجتي وكان خامسنا هو بدوي الجبل الذي كان هو «مطرب الليلة» بينما كان «أبو سلمى» هو «المخرج الفنان»، وقد طربنا كثيرًا ونحن نستمع إلى

أشعار «بدوي الجبل» وأحاديثه الغريبة المتنوعة الفاتنة، وكان «أبو سلمى» و«بدوي الجبل» يتشابهان في الرقة والتهذيب الروحي واتساع التجربة الإنسانية والأدبية، ولعل تلك الليلة كانت ـ في ذاكرتي ـ تجسيدًا لعصر من «الصداقات الكبرى» في الحياة الأدبية العربية لم يعد له وجود الآن، حيث لم نعد نسمع أو نرى أو نلتقي بصديقين حميمين متأثرين ببعضهما روحيًا أكبر التأثر رغم ما بينهما من اختلافات ظاهرة، فقد كان «أبو سلمى» أكثر انضباطًا وحذرًا من بدوي الجبل الذي كان فيه اندفاع ساحر، وكانت فيه جرأة «طفولية» لا تعبأ كثيرًا بالمحاذير والمخاطر، ولكنه كان يغامر مغامراته كلها وهو راض ومبتسم، وأحيانًا يكون ساخرًا بلا مرارة حتى من نفسه.

تلك صفحات من الذاكرة.

وذلك هو الشاعر الكبير «أبو سلمى» الذي عدت إليه بقوة وأنا أتابع الفصول اليومية للمأساة الفلسطينية الراهنة. وقد عدت إلى «أبو سلمى» كما يعود «المريض» إلى الدواء الذي يعرف أنه يحمل إليه الشفاء، فأخذت أقرأ أشعاره وأتذكر لقاءاتنا المتعددة المختلفة، وأستحضر طيفه الوديع البديع، وأحس به لايزال حيًّا بيننا يحنو علينا ويواسينا وينسينا كل ما يأكل قلوبنا من أحزان. فقد كان «أبو سلمى» من «الواثقين» أصحاب اليقين، وكان يرى نهاية نهر الآلام، وقد شرب من هذا النهر كثيرًا، ولكن ما شربه من نهر الآلام هذا لم يفقده توازنه أو صفاء روحه، أو يقينه بأن هذه الآلام لها نهاية، وأن الفجر لابد أن يطل على الحياة بعد الظلام الشديد، ويحمل معه الندى والأمل والتفاؤل.

شاعر فلسطيني.. أصله مصري.. من اليمن!!

يروي الشاعر الفلسطيني الكبير أبو سلمى «1907 ـ 1980» جانبًا مؤثرًا من قصة حياته في مقدمة أعماله الكاملة التي نشرتها «دار العودة» في بيروت في مجلد واحد سنة 1978. وفي هذه المقدمة يقول أبو سلمى: «كنت أحفظ أشعاري المخطوط منها والمطبوع في الصحف والمجلات، في أدراج مكتبي في عمارة «الكرمليت» بحيفا حيث كنت أعمل محاميًا، ولم أكن أحتفظ في داري الكائنة في شارع «البساتين» في «حي الألمانية» إلا بالقليل النادر مما نظمت وكتبت. ولما بدأت الاضطرابات في حيفا أرسلت زوجتي ـ ومعها ولدي ـ إلى أسرتها في «عكا»، وبقيت وحدي في «حيفا»، ولما اشتدت الاضطرابات لم أستطع الذهاب إلى عكا إلا بزورق بخاري عن طريق البحر، حيث كانت المستعمرات الإسرائيلية منثورة عن طريق البر. وسقطت حيفا بتاريخ 22 إبريل «نيسان» سنة 1948 في أيدي الإسرائيليين، ولم أستطع أن آخذ معي إلا رواية شعرية لي عن «عز الدين القسام» وثورة 1936 ومعها مقدمة لها بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني. وبتاريخ 28 إبريل «نيسان» سنة 1948 غادرت «عكا» إلى «دمشق» ومعي مفاتيح البيت والمكتب للعودة السريعة خلال أسبوعين، كما وعدت الدول العربية، ولكن عكا سقطت في أيدي الأعداء في 16 مايو «أيار» سنة 1948، أي في اليوم التالي لإعلان قيام دولة إسرائيل، وبقيت مدن فلسطين وقراها تتساقط واحدة تلو الأخرى، وتتساقط معها الكرامة العربية، ولا تزال المفاتيح تنتظر العودة مع أصحابها إلى فلسطين!!».

ثم يقول أبو سلمى: «سكنت دمشق، المدينة العربية الغالية على العرب وعلى قلبي، فقد تعلمت في مدارسها الابتدائية والثانوية، وكنت مع القافلة الأولى من الطلاب الذين قدموا فيها أول امتحان للبكالوريا. ابتعدنا عن فلسطين، ولكننا حملناها في قلوبنا أينما سرنا. وبقينا على صلة وثيقة بالأرض والأهل، كما بقي الأهل هناك على صلة بنا، وكان الشعر الفلسطيني أحد جسور العودة».

هذا بعض ما يقوله الشاعر «أبو سلمى» عن محنته، التي هي صورة من محنة وطن «فلسطين». والحقيقة أن محنة أهل فلسطين تكاد تكون محنة واحدة، وقصة مشتركة، والذين اضطروا إلى الخروج من بلادهم لديهم جميعًا «مفاتيح» بيوتهم، وكان لديهم أمل حي في نفوسهم بأنهم سوف يعودون؛ لأن ما حدث لهم شيء لا يقبله العقل، ولكنهم لم يعودوا، وتبينوا مع الأيام أن ما هو «غير معقول» قد حدث وأصبح واقعًا مستقرًا، أما ما هو «معقول»، أي العودة إلى بيوتهم وبلادهم التي ولدوا فيها وعاشوا عليها هم وآباؤهم وأجدادهم مئات السنين.. هذا «المعقول» قد تبدد وضاع في أكبر مأساة عرفها القرن العشرون، بل ربما كانت إحدى المآسي الكبرى القليلة التي عرفها التاريخ الإنساني كله، بهذه الصورة المثيرة للألم والدهشة. فقد جاءت مجموعات متفرقة من البشر في شتى أنحاء العالم ليطردوا شعب فلسطين ويحلوا محله.. ورغم أننا في العالم العربي قد تعودنا على هذه المأساة، فأصبحت وكأنها أمر طبيعي يستطيع الإنسان أن «يتعايش» معه ويراه واقعًا أمامه.. إلا أن أي تفكير هادئ في فصولها العجيبة يثير أشد الدهشة، ويستفز العقل والمشاعر الإنسانية، ويدفعنا إلى سؤال حائر هو: كيف حدث هذا؟ وكيف تقبل العالم أن تقع مثل هذه الكارثة ضد شعب بأكمله؟ وسوف نجد في الإجابة على هذا السؤال الاستنكاري ما هو أشد هولاً منه، فأقوياء العالم قد وقفوا إلى جانب هذا الوضع «غير المعقول» وساندوه، ولا يزالون يساندونه إلى الآن.

على أية حال فهذه كلها أمور أصبحت معروفة للجميع، حتى التلاميذ الصغار في المدارس الابتدائية، وإن كان هناك عجز تام عن تفسيرها تفسيرًا ينتقل بها من خانة «اللامعقول» إلى خانة «المعقول» و«المفهوم» و«المنطقي»، ويبدو أنه من المكتوب

علينا أن نقبل ما حدث على أنه واقع، وذلك كما نقبل حدوث الزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات الطاغية المفاجئة وغير ذلك من كوارث الطبيعة.

ونعود إلى الشاعر الكبير «أبو سلمى» أحد شهود المأساة، وواحد من الجيل الأول الراسخ في الشعر الفلسطيني الحديث. فالشاعر أبو سلمى قد اشتهر بهذا الاسم منذ شبابه الأول، وليس له ابنة اسمها «سلمى»؛ إذ إنه لا ولد له سوى ابن واحد هو «سعيد»، ولكنه كتب قصيدة غزلية سنة 1924، وهو طالب في المدرسة الثانوية بدمشق وكان في السابعة عشرة من عمره، وفي مطلع هذه القصيدة كتب هذا البيت البسيط الساذج الذي يقول فيه:

سلمى انظري نحوي فقلبي يخفق

لما يشير إليّ طرفك.. أطرق

وبعد ظهور هذه القصيدة وهذا البيت، أطلق عليه أصدقاؤه وأساتذته اسم «أبو سلمى»، وأصبح شاعرنا مشهورًا بهذا الاسم بين الأدباء، بل بين جميع من يعرفونه، أما اسمه الأصلي فهو «عبد الكريم سعيد الكرمي» وهو من مواليد مدينة «طولكرم» بفلسطين، أما والده فهو الشيخ «سعيد الكرمي» «1851 ـ 1935» وكان من أشهر العلماء والأدباء والشعراء في فلسطين والشام كلها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والأسرة كلها تحمل لقب «الكرمي» نسبة إلى «طولكرم» التي عاشت فيها هذه الأسرة المعروفة، وأصل الأسرة ـ كما يقول الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه «الشعر الحديث في فلسطين والأردن» ـ من إقليم الشرقية بمصر، وقد هاجرت الأسرة في أيام «الجد الرابع» لشاعرنا «أبو سلمى» من مصر إلى فلسطين واستوطنت في مدينة طولكرم ـ وهي جزء من الضفة الغربية الآن ـ على أن الأصل القديم للأسرة يعود إلى عرب اليمن الذين جاءوا لفتح مصر مع عمرو بن العاص واستقروا فيها». وهكذا يكون شاعرنا أبو سلمى فلسطينيًا من أسرة عربية جاءت من مصر واستقرت في فلسطين وأصلها القديم من اليمن، فهو شاعر فلسطيني أصله مصري،

من اليمن!! وهذه «تركيبة» عجيبة، ولكنها تؤكد «عروبة» هذه المنطقة، وأصالة العروبة فيها، من خلال الانتقال والهجرات البشرية من أرض إلى أرض، وهي صورة تؤكد أن الجميع يشعرون برابطة واحدة تربط الأرض والناس في هذه المنطقة من العالم وهي «رابطة العروبة».

من ناحية أخرى كان والد «أبو سلمى» الشيخ «سعيد الكرمي» من كبار المجاهدين ضد الاستعمار العثماني الذي كان يحتل فلسطين والشام كلها حتى سنة 1918، وقد حكم الأتراك على الشيخ «سعيد الكرمي» بالإعدام أثناء الحرب العالمية الأولى، وكاد الأتراك يشنقون الشيخ، لولا أنهم خففوا حكم الإعدام إلى السجن المؤبد مراعاة لتقدم الشيخ في العمر؛ إذ كان قد بلغ السبعين أو اقترب منها. وقد بقي الشيخ في السجن سنتين وتسعة أشهر حتى انتهت الحرب العالمية الأولى وانتهى معها الاحتلال العثماني لفلسطين سنة 1918، فتم الإفراج عن الشيخ واسترد حريته، وتوفي الشيخ سنة 1935 وكان في الرابعة والثمانين، وقد رأى قبل رحيله كيف أن الاحتلال العثماني قد انتهى في فلسطين لتخضع البلاد لاحتلال آخر من نوع غريب وخطير هو الاحتلال الصهيوني.

فالشاعر «أبو سلمى» إذن هو سليل أسرة عربية كريمة لها تاريخ في الشعر والآداب والعلوم ولها أيضًا تاريخ في الكفاح والنضال والمقاومة. ولا شك أن هذا التاريخ العائلي كان له أثره الكبير في شخصية الشاعر أبو سلمى، فخرج إلى الحياة وفيه كل عناصر الشخصية الأصيلة.. في أخلاقه الرفيعة وثقافته العالية وإحساسه الوطني الثابت الذي لا يتغير رغم كل الآلام والأزمات والعواطف. وقد انعكس هذا كله على قصائد «أبو سلمى» منذ بدايته وحتى النهاية، فهذه القصائد تعكس إحساسًا نبيلاً صافيًا بالحياة والإنسان، وهي قصائد تجمع دائمًا بين مشاعره الخاصة ومشاعره العامة تجاه وطنه، وتنعكس على هذه القصائد التجارب الصعبة التي مر بها هذا الشاعر، من اغتراب وابتعاد عن الأرض التي ولد فيها وعشقها كل العشق. ولم يخرج منها إلا بعد أن تجاوز الأربعين، ورغم أنه عاش في دمشق التي أحبها كل الحب بقية حياته وحتى وفاته، فإنه

ظل مرتبطًا بقلبه ومشاعره مع بيته الأول في فلسطين التي وقعت في قبضة من لا يرحم.
وقد كان شعر «أبو سلمى» بسيطًا سهلاً لا تعقيد فيه، وكان موقفه الذي عبر عنه هذا الشعر الجميل صادقًا صريحًا لا يخفي مواطن الضعف التي يراها الشاعر في أمته العربية. ويرى أن علاجها هو السبيل الوحيد إلى استرداد ما ضاع من هذه الأمة وحماية ما بقي في يديها قبل أن يضيع هو الآخر، ومن الطبيعي أن تكون هذه «الصراحة الشعرية» مصدرًا لمتاعب مستمرة للشاعر، فقد تعرض للحرب والمطاردة بصورة دائمة، وظل حتى آخر أيامه وهو ممنوع من الدخول إلى معظم العواصم العربية، فالشاعر «أبو سلمى» لم يكن شاعر خطابة وشعارات وهتافات، بل كان شاعرًا حساسًا يستند إلى تفكير دقيق واضح صريح وقوي، وكان يلمس بأصابعه الشعرية الحساسة موضع الأخطاء فينا، ولذلك كانت أشعاره تثير الغضب عليها وعلى صاحبها معًا. وهذا يفسر لنا ما كان معروفًا عن «أبو سلمى» من ميل إلى العزلة، وابتعاد ـ بقدر ما يستطيع ـ عن الحركة الواسعة في المؤتمرات والمناسبات الأدبية، وقد كانت موهبته الشعرية العالية تؤهله إلى أن يكون صوتًا مسموعًا ومحبوبًا في كل الأرض العربية، ولكن صدقه في التعبير عن أفكاره ومشاعره وقف سدًا في وجهه، فقد كان الكثيرون يخافون من أشعاره، ويدركون أن قصائده مثيرة للأزمات والمشاكل، وكان هو نفسه يدرك ذلك، فكان حريصًا على أن يكون تركيزه على كتابة قصائده القوية الصريحة وأن يتحصن بعد ذلك في دائرة معزولة، حتى يحمي نفسه العفيفة المترفعة من سخافات المطاردة له ولأشعاره الصادقة النبيلة. والذي لاشك فيه أن «أبو سلمى» عاش حياته كلها وحتى وفاته وهو في الثالثة والسبعين في 11 أكتوبر «تشرين الأول» سنة 1980 دون أن يأخذ بعض حقه الأدبي والمادي كشاعر عربي كبير، فقد كان الكثيرون يبتعدون عنه مخافة أن يصيبهم أذى إذا اقتربوا منه، ولم يتح لأشعاره أبدًا أن تكون منشورة على نطاق واسع أو في طبعات متعددة، بل كل أعماله منشورة على نطاق ضيق جدًا، حتى بعد رحيله بعشرين سنة. ولم يدخل «أبو سلمى» «لعبة السياسة العملية»، ولم يرتبط بأي نظام أو حزب أو زعيم أو حاكم، وقد كان باستطاعته لو خان ضميره وابتعد عن طهارته الفنية ونزاهته

الفكرية أن يستفيد الكثير وأن يعيش في رخاء كبير. ولكنه رضي بحياته المتواضعة وتقبل الحصار المادي والأدبي المضروب حوله، كل ذلك لكي يمتلك حريته الفنية والفكرية امتلاكًا كاملاً. ولم يكن «أبو سلمى» ـ وقد عرفته عن قرب ـ يشكو من ذلك الوضع أو يحاول تغييره؛ لأنه كان يفهمه، وكان يريده كذلك، فهو لا يبحث عن جمهوره من السياسيين أو أصحاب السلطان، ولا يسعى إلى أحد كي يغدق عليه كما يحدث مع غيره ممن هم أقل منه موهبة وأصالة فنية وفكرية. إنه شاعر يتوجه بشعره إلى الناس العاديين في سائر أنحاء الوطن العربي، يريد لهم ومنهم أن يدركوا أن تحرير الأوطان لا يتم إلا بتحرير العقل والوجدان. وكانت الأفكار الكبيرة التي تستند إليها «رؤيته الشعرية» قائمة على الإيمان بالديمقراطية التي تتيح للناس أن يكونوا أقوياء وأحرارًا، وأن يتصرفوا في أمور حياتهم بكرامة ودون تزييف أو خداع. وكان هذا الشاعر الكبير من أعدى أعداء الشعارات الزائفة، ومن أعدى أعداء الاستبداد والقهر للشعوب، وكان من أكثر المؤمنين بأن القضايا الكبرى وعلى رأسها قضية فلسطين لا حل لها إلا بتحرير الإنسان العربي نفسه من الضغوط التي يتعرض لها ويعاني منها. ونستطيع أن نتوقف عند بعض النماذج التي يمكن نشرها في مجلة عامة من أشعار «أبو سلمى» فهي تدلنا على أنه لم يكن مجرد شاعر، بل كان يمسك في يديه بجمرات لاسعة وحارقة من النار، وكان يصبر على ذلك صبرًا غير محدود. فهو يقول في إحدى قصائده وتاريخها هو سنة 1968، أي بعد نكسة يونيو «حزيران» 1967 بعام واحد.

وتقولون دولة، ونراكم
دولاً، كل دولة بكيان
وتقولون وحدة ولديكم
كل جزء مجزأ لشمان
ثم حرية، تقولون للناس
وما فيكم سوى سجان

وفي قصيدة أخرى له نقرأ هذا البيت:

أنـــا أبـكـــي الأحـيـــاء، عـــاشـــوا وهـــانـــوا

وتســـاوت حـــيـــاتـــهـــم والـــمـــمـــات

وفي قصيدة ثالثة نقرأ هذا البيت:

نـــحـــن لانشــكـــو جـــراحًـــا إنـــمـــا

نشـتـكـي مـــن ضـــمـــدوا تـــلـك الـجـــراحـــا

وفي قصيدة رابعة نقرأ:

تـــفـــنـــى الـــزعـــامـــات وأشـــبـــاهـــهـــا

والـــخـــالـــدان: الشـــعـــب والـــمـــوطـــن

وفي قصيدة أخرى جميلة وغاضبة يتحدث عن الشعراء الذين يرفضهم ويرى فيهم هوانًا للفن وللناس فيقول:

شـــعـــراء.. قـــد حـــمـــلـــوا مـــبـــاخـــرهـــم

وأتـــوا إلى الـــمـــيـــدان بـــالـــعـــدد

جـــاءوا وقـــد مســـحـــوا شـــفـــاهـــهـــم

أعـــتـــاب «مـــقـــتـــدر» و«مـــعـــتـضـــد»

ويصـــفـــقـــون لـــكـــل مـــقـــتـــرب

ويصـــفـــرون لـــكـــل مـــبـــتـــعـــد

يـــدعـــوهـــم الشـــعـــب الـــمشـــرد.. لا

لا تـــدع لـــيـــس هـــنـــاك مـــن أحـــد

يـــاتـــعس قـــوم فـــي الـــحـــيـــاة إذا
ضـــاقت صـــدورهـــم بـــمـــنـــتـــقـــد

مـــن لـــم يـــذد عـــن حـــرفـــه أبـــدًا
فـــعـــن الحـمـــى والشـــعب لـــم يـــذد

ولهذا الشاعر الكبير قصيدة عنوانها «لهب القصيد» كانت سببًا في منعه من دخول كثير من العواصم العربية، وهي منشورة في أعماله الكاملة «طبعة دار العودة ـ بيروت» صفحة 20. ولا يمكن إعادة نشر معظمها إلى الآن؛ لما فيها من سخط وغضب وعنف واتهام لكل السياسيين العرب، وهي قصيدة مشهورة جدًا بين الفلسطينيين، وخاصة من جيل الثلاثينات والأربعينات، وحول هذه القصيدة، وما هو في مكانتها من قصائد الجيل الأول من شعراء فلسطين في العصر الحديث يقول الأستاذ كامل السوافيري في كتابه «الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين» صفحة 298: «لا يوجد بين الفلسطينيين الذين تعلموا في مدارس فلسطين بعد ثورة عام 1936 من لا يحفظ لإبراهيم طوقان قصيدتيه «الفدائي» و«الشهيد»، ولعبد الرحيم محمود قصيدتيه «الشهيد» و«الشعب الباسل»، ولأبي سلمى داليته الشهيرة: «لهب القصيد».

فقصيدة «أبو سلمى» التي أثارت الغضب عليه هي محفوظات جيل فلسطيني بأكمله، وسوف نجد في هذه القصيدة «قسوة» في الهجوم على كل السياسيين العرب، وتعبيرًا مريرًا عن الشعور بما حدث في تلك الفترة وهي الثلاثينات، وبالتحديد سنة 1936، وهي سنة الثورة الفلسطينية الكبرى التي استمرت أكثر من ستة شهور، فقد كانت «السياسة العربية» تسعى إلى تهدئة الثوار، وذلك في البيان الشهير الذي حمل توقيع بعض كبار السياسيين العرب وقالوا فيه للفلسطينيين: «ندعوكم للإخلاد للسكينة، حقنًا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغباتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم». واستجاب ثوار فلسطين لدعوة السياسيين العرب وهدأت الثورة الفلسطينية، بعد أن أوشكت هذه

الثورة أن تحقق هدفها الأساسي وهو إعلان قيام حكومة وطنية فلسطينية تحكم البلاد تطلب اعتراف العالم بها. وثورة 1936 هي الثورة الفلسطينية الوحيدة التي كانت قادرة على أن تفعل ذلك لاتساعها واشتراك معظم أبناء الشعب فيها، وكان الوقت مناسبًا جدًّا؛ إذ إن نسبة اليهود على الأرض الفلسطينية كانت لا تزيد بحال من الأحوال عما يقرب من 10٪ من مجموع السكان الفلسطينيين بينما كان السكان العرب يمثلون أكثر من 90٪، ولو قامت هذه الدولة سنة 1936، لاستطاعت أن تنشئ جيشًا لها، وأن تحصل على السلاح، خاصة أن سنة 1936 كانت من السنوات التي تمثل مقدمة الحرب العالمية الثانية، وكانت الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها تنافسًا ينذر بالصراع المدمر الذي حدث بعد ذلك بقيام الحرب العالمية سنة 1939، وكان من المتاح للثوار الفلسطينيين أن يحصلوا على السلاح من إيطاليا وألمانيا، وربما من أميركا التي لم تكن قد اندفعت بعد إلى التحالف مع اليهود والوقوف إلى جانبهم. ولكن السياسيين العرب تدخلوا لتهدئة الثورة «اعتمادًا على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية»، ولكن بريطانيا لم تكن حسنة النية أبدًا، بل كانت هي المهندس الأول والأكبر لإقامة دولة إسرائيل، وهي التي كانت تساند اليهود بكل قوة لإقامة مشروع هذه الدولة. وهكذا ارتكبت السياسة العربية خطأً فادحًا في حق ثورة 1936 الفلسطينية، ومال أبرز زعيم فلسطيني في ذلك الوقت وهو الحاج أمين الحسيني إلى وجهة النظر السياسية وأخذ بها فضاعت ثورة الفلسطينيين الكبرى هباءً منثورًا دون أن تصل إلى أية نتيجة، وقصيدة «لهب القصيد» هي تعبير شديد المرارة والقسوة عن هذه الصدمة الكبيرة. وكما أشرت فقد أثارت هذه القصيدة على الشاعر «أبو سلمى» كثيرًا من المتاعب، فتعرض للمنع من دخول كثير من العواصم العربية، وأصبح اسمه في هذه العواصم على «القائمة السوداء»، وقد ظل هذا الحصار مضروبًا حول «أبو سلمى» في معظم مراحل حياته، منذ ظهوره القوي على ساحة الشعر الفلسطيني في الثلاثينات وحتى وفاته سنة 1980.

على أن «أبو سلمى»، رغم الحصار الأدبي والمادي الذي كان مضروبًا حوله، قد لقي في السنوات العشر الأخيرة من حياته بعض التكريم الذي يليق به، فقد اختير

رئيسًا لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وظل في هذا الموضع حتى وفاته، كما نال من اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا جائزة «اللوتس» للآداب سنة 1978، وفي أول ديسمبر «كانون الأول» سنة 1978 أقامت له منظمة التحرير الفلسطينية احتفالاً في بيروت، وكما جاء في الموسوعة الفلسطينية «الجزء الثالث ص 172» فقد شارك في هذا الاحتفال «قادة الثورة الفلسطينية وشعراء الأمة العربية وكتابها»، وقال ياسر عرفات القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية وهو يعانق «أبو سلمى»: «أخي وأستاذي ومعلمي أبو سلمى.. تكريمك هذا إنما هو تكريم لفلسطين من خلالك».

لقد أخذ «أبو سلمى» في المرحلة الأخيرة من حياته بعض حقه. ولكنه حتى الآن، وبعد وفاته بعشرين سنة في أحد مستشفيات أميركا حيث كان يتلقى العلاج، نستطيع القول: إن «أبو سلمى» شاعرًا وإنسانًا ـ لايزال في دائرة الظل ولا يزال شعره وتاريخه محاطين بنوع من الحصار، ولعل ذلك يعود إلى أنه لم يرتبط بحزب يتبناه، ولا دولة تقف وراءه، ولكنه كان شاعرًا للناس العاديين، وهؤلاء الناس لا يملكون شيئًا من النفوذ الأدبي أو المادي الذي يتيح لهم وضع «أبو سلمى» في المكان الذي يستحقه من تاريخ الأدب وتاريخ النضال. ولا تزال أمامنا وقفة أخيرة مع شعر «أبو سلمى» وشخصيته، ولعلنا في هذه الوقفة نتعرف على بعض أسرار فنه الجميل.

قصة الشاعر
الذي تحول من عاشق إلى مجاهد!

من الكلمات المأثورة للفيلسوف الفنان أفلاطون «427 ـ 327 قبل الميلاد» قوله «لو كان عندي جيش من العشاق لاستطعت أن أغزو العالم كله»، وفي هذه العبارة يؤكد أفلاطون اجتماع القدرة على الحب والقدرة على الحرب في قلب واحد، وقد تبدو هذه العبارة غريبة وفيها تناقض، فصورة العاشق في العادة هي صورة الإنسان الحالم البعيد عن الواقع والذي يعيش في دنياه الخاصة ولا يهتم كثيرًا بما في دنيا الناس من صراعات. فكيف يمكن لمثل هذا الإنسان أن يكون قادرًا على الحرب والقتال؟ بل إننا إذا ترجمنا عبارة أفلاطون إلى واقع عملي، فإن هذه العبارة تعني أن هذا العاشق هو الأقدر من بين جميع الناس على الحرب أو القتال إلى درجة أغرت أفلاطون بأن يقول إن باستطاعته أن يغزو العالم كله وينتصر على كل جيوش الدنيا، لو كان عنده جيش من العشاق.

على أننا لو نظرنا إلى الأمر بشيء من الدقة لوجدنا أن نظرية أفلاطون معقولة وقابلة للتصديق، فالعاشق سيكون مشتعل العاطفة، وتكون «القوة المحركة» في حياته هي «الحماسة» نحو حبيبه، مما يدفعه دائمًا إلى أن يبدو في أحسن صورة من حيث السلوك والتصرف، والعاشق الحقيقي لا يمكن أن يكون أنانيًا، فالأصل في الحب المشتعل هو أن يكون الإنسان مشغولاً بإنسان آخر يريد أن يقدم إليه أجمل ما في الدنيا، أي أن العاشق يعطي كل قوة نفسه لشخص سواه، ويكون مستعدًا للتضحية حتى بالحياة،

وذلك إذا كان عاشقًا حقيقيًا وليس خاضعًا لعاطفة يخدع بها نفسه ويخدع بها غيره، ومن خلال هذه النظرة فإننا لابد أن ننتهي بأن العاشق الحقيقي مستعد للتضحية بنفسه من أجل ما يحبه أو من يحبه، وهناك كثير من القصص الواقعية والقصص التي يمتلئ بها الأدب العالمي تثبت أن «التضحية بالنفس» هي أمر من الأمور المعروفة عند العشاق المخلصين الصادقين أصحاب القلوب التي سيطرت عليها عاطفة الحب فلم يعد فيها مكان لشيء آخر. وهذه الصفات التي يتميز بها العشاق، هي نفسها التي تحتاج إليها ساحة الحرب، وتضمن الانتصار لأصحابها، فالمحارب لابد أن يكون مخلصًا ومحبًا للهدف الذي يحارب من أجله، ولابد أن يكون قادرًا على التخلص من أنانيته والارتفاع فوق حبه لنفسه والشعور بالسعادة الحقيقية من أجل شخص آخر يحبه ويهواه، والمحارب القادر على الانتصار يشبه العاشق تمامًا في استعداده للتضحية بنفسه، والمستعدون للتضحية بالنفس هم الذين ينتصرون في أية معركة، وإلا أصابتهم هزيمة ساحقة، لأن عدم الاستعداد للتضحية بالنفس معناه الجبن، والجبن في معارك القتال هو الهزيمة حتى قبل أن تقع الهزيمة الحقيقية.

وقد وجدت فيما كتبه أديب عربي كبير مبدع من الجيل الماضي هو الدكتور زكي مبارك «1892 ـ 1952» تعبيرًا جميلاً عن هذا المعنى، وذلك في كتابه الصغير البديع عن «العشاق الثلاثة» وهم من شعراء العرب المعروفين وأولهم «جميل بثينة» والثاني «كثير عزة» والثالث هو «العباس بن الأحنف» الذي كان يتغزل بما يشبه التصوف في حبيبة واحدة أسماها باسم «فوز»، ولعل هذا الاسم كان مجرد «رمز» للحبيبة الحقيقية التي لم يشأ «العباس» أبدًا أن يذكر اسمها الصريح في أشعاره العفيفة الرقيقة؛ إذ إنه كان من الذين يؤمنون بأن التصريح باسم المحبوبة أمر لايليق بالعشاق الفرسان، وأمر لا تقبله الأخلاق الكريمة ولا يقبله الذوق الرفيع في المجتمع العربي الذي كان يعيش فيه، وهو مجتمع العصر العباسي الأول، وبالتحديد عصر هارون الرشيد.

يقول زكي مبارك عن الشاعر «جميل بثينة» «كان «جميل» فتى شريف النفس، شجاع القلب، يخافه العدو، ويرجوه الصديق».

ويقول عن «جميل» أيضًا:

إنه فتى لم يعرف الخضوع إلا في الحب، وقد رفعته همته عن التودد للولاة والخلفاء، فلم يمدح أحدًا قط، ولم يره الناس في موطن ذلة إلا في الحب، وهي ذلة أشرف من العزة في نفس الشاعر الذي رآه أهل زمانه إمام المحبين».

ويقول زكي مبارك في موضع آخر من كتابه «العشاق الثلاثة» عن الشاعر «جميل بثينة» أيضًا:

«اتفق الرواة على أن «جميلاً» كان قوي البنية، واتفقوا أيضًا على أنه من أكابر الشجعان، وأنه كان غاية في الهيبة والجلال.. وكان «جميل» يتعرض لقوم محبوبته «بثينة» بعد أن توعدوه بالقتل، وكان يفعل ذلك عامدًا ليقاتلهم ويقاتلوه». ثم يقول زكي مبارك بعد ذلك في وصف شاعرين من أكبر شعراء العشق والحب في الدولة وهما «عمر بن أبي ربيعة» و«جميل بثينة» إنهما «كانا من أكابر الفرسان ولو احتاجت إليهما الدولة لكانا في طليعة رجال الجهاد».

وهذا الذي يقوله زكي مبارك يلتقي بما يقوله أفلاطون من أن العشاق الصادقين هم أهل قوة وعزيمة وإرادة، وأن المشاعر الكامنة في نفوس هذا الطراز من العشاق يمكن أن تتحول عند الحاجة إلى مشاعر جهاد ونضال. وهناك ملاحظة إضافية دقيقة يسجلها زكي مبارك أيضًا حيث يقول:

«في الأيام الأولى من العصر الإسلامي ظهر من ينكرون «الغزل»، ولكن أهل الرأي من أتقياء المسلمين اعتبروا ذلك الإنكار «زهدًا أعجميًا» أي «فارسيًا»، وأخذوا ينشدون قصائد الغزل بلا تحرج ولا تهيب، وما كان الإسلام بالدين المترهب، وإنما هو دين يسن أدب الحياة، ويوصي بالتطلع إلى جمال الوجود. وهناك ظاهرة أدبية لم تأخذ حظها من التفات التاريخ الأدبي، وهي اهتمام جماعة من رجال الفقة الإسلامي بالحديث المفصل عن عاطفة الحب، وهم رجال «المذهب الظاهري»، باتباع الرجل الصالح والعاشق الصادق «محمد بن داود»، وهو فيما نعرف أقدم باحث أطال القول

في تفصيل أحوال العاشقين. وعن «ابن داود» أخذ «أبو محمد بن حزم الأندلسي» هذه النزعة الوجدانية فألف كتابه الشهير «طوق الحمامة»، وهو كتاب تحدث عن «فن الحب» قبل أن يلتفت إليه الأوروبيون كما أخبرنا «المسيو ماسينيون»، ولم يتفرد رجال المذهب الظاهري بين رجال الدين بالحديث عن الحب، فقد اهتم به الصوفية اهتمامًا عظيمًا، وكانت غايتهم أن يبينوا ما يجب على «المريد» حين يستهويه الجمال. واهتمام الصوفية بالحديث عن الحب فرع من اهتمامهم بدقائق النفس، وكان الصوفية أسبق المسلمين إلى تشريح العواطف والأهواء، والصوفية في الأصل عشاق تحولوا من الحب الوجداني إلى الحب الروحاني، وكان «ابن الفارض». الشاعر الصوفي الكبير، يرى الحب طريقًا إلى تهذيب الروح، وهو الذي قال:

«ومن لم يعلمه الهوى فهو في جهل».

فالشعراء العشاق سبقوا إلى تربية العواطف، وذلك فن يفوتنا الالتفات إليه، مع أنه أعظم حافز لعزائم الرجال».

ثم يقول زكي مبارك، ومعذرة لطول الاقتباس منه لأنه يعبر عن الفكرة الأساسية التي يدور حولها هذا المقال:

«وقد أدى الشعراء العشاق إلى اللغة العربية جميلاً يفوق كل جميل، فهي مدينة بوجودها الأدبي إلى أقباس أرواحهم، وهم الذين رفعوا رايتها في المشرق والمغرب، فما تسمو لغة على لغة إلا بقوة الإفصاح عن السرائر الوجدانية، ولا هاتف أول شاد في أية لغة بغير الصوت الأول وهو صوت القلب، ومن هنا كان الغزل أول شعر أجاده الناس في فجر الزمان. وطغيان العقل في عصور المدنية لم يقو على صد طغيان القلب، لأن القلب هو «الجارحة» الباقية، ولأنه من أقوى الشواهد على صحة العقل، ولهذا امتازت الأمم القوية بإجادة التعبير عن أسرار القلوب».

ويمكننا بعد ذلك أن نلخص رأي أفلاطون في الحب ورأي زكي مبارك فيه بأن نقول: إن العشاق الحقيقيين الصادقين لم يقعوا في «دائرة الحب» عن ضعف في

الشخصية أو هروب من معارك الحياة الكبيرة، وإن هؤلاء العشاق من أصحاب «الصحة النفسية»، والاستعداد للتضحية إذا كان هناك قضية تدعو إلى الجهاد والاستشهاد. والذي يكون مستعدًا بإخلاص وصدق أن يموت في سبيل حبيبته فلابد أن يكون مستعدًا بنفس الدرجة أو أشد لأن يموت في سبيل الوطن. ولا شك أن تاريخ الأدب لن ينسى شخصية الشاعر الإنجليزي بيرون الذي كتب معظم أشعاره في الحب، فكان من أشهر شعراء الحب في التاريخ الأدبي الإنساني كله، وعندما اشتعلت ثورة اليونان ضد الأتراك سنة 1823، اندفع شاعر الحب والغرام «بيرون» إلى حيث تقوم الثورة، ويموت الثوار، وكان من نصيبه أن يموت وهو يشارك في الثورة اليونانية ويقدم إليها كل ما يستطيع حتى حياته.

فبيرون شاعر كبير من شعراء العشق والهوى، ولكنه عندما نادى مناد بالجهاد من أجل الحرية اندفع مستجيبًا للنداء، وحتى أصبح من شهداء الحرية والثورة.

وعشاق العرب مثل «عمر بن أبي ربيعة» و«جميل بثينة» و«العباس بن الأحنف» و«عبد الله بن قيس الرقيات» و«الرقيات هي جمع رقية، وكان الشاعر يتغزل في عدد من النساء كلهن اسمهن: رقية».. هؤلاء الشعراء جميعًا كانوا من أشداء الرجال ومن المسارعين إلى الجهاد لو كان هناك ما يدعو إلى الجهاد.

هذه المقدمة الطويلة تقودنا إلى شاعرنا العربي الفلسطيني الكبير أبو سلمى أو عبدالكريم الكرمي»، فهو في الأصل من الشعراء العشاق، حتى إنه أصبح معروفًا باسم أول حبيبة له وهي «سلمى»، وبذلك يكون «أبو سلمى» هو الشاعر العربي الوحيد في العصور الأدبية الحديثة الذي ارتبط اسمه باسم حبيبته، وهو في ذلك يكون الشاعر المعاصر الوحيد الذي يتشابه إلى حد التطابق مع الشعراء العشاق الكبار في الأدب العربي القديم، مثل «جميل بثينة» و«كثير عزة» و«عبد الله بن قيس الرقيات». فكل هؤلاء في الأدب العربي القديم انتسبوا إلى حبيباتهم، والوحيد في الأدب المعاصر الذي انتسب إلى حبيبته منذ أول قصيدة معروفة له هو «أبو سلمى».

وهو ـ بهذا الحق الوجداني الجميل ـ جدير بأن يضاف إلى قائمة كبار العشاق من شعراء الأدب العربي كله.

وليس هذا وحده هو الذي يربط بين هذا الشاعر الكبير المعاصر في عالم العشق والحب، وبين العشاق الكبار القدماء. فسوف نجد أن «أبو سلمى» في شعره هو في الأصل شاعر من شعراء الحب، فقلبه مليء بالعواطف العميقة القوية، ونظرته إلى الدنيا هي نظرة عاشق يرى كل ألوان الحياة ملونة بهذه العواطف الكبيرة.. فالحياة كلها ـ عنده ـ هي في أصلها حياة الحب والعشق والهوى ولا شيء غير ذلك.

وهو قريب جدًّا إلى شعراء الغزل العربي الكبار الذين نسميهم بشعراء الحب العفيف أو «الحب العذري» «نسبة إلى بني عذرة المشهورين باللطف والعفاف والرقة والحنان ودماثة الأخلاق»، فالحب عند هؤلاء الشعراء هو نوع من التصوف الراقي البعيد عن أية «نزعة حسية مادية»، وأبو سلمى ـ مثلهم ـ مفتون بالمعاني الروحية في الحب وليس مثل نزار قباني الذي جعل «جسد المرأة» هو مصدر إلهامه الشعري، فغرق في تفاصيل البحث عن مصادر الجمال في الجسد، بينما كان «أبو سلمى» على النقيض غارقًا في البحث عن تفاصيل الجانب الروحي والوجداني الخالص في الحب.

ولنتوقف أمام نموذج واحد من قصائد الغزل عند «أبو سلمى» لنستمتع بما في هذا الشعر من لطف ورقة وعذوبة حيث يقول في قصيدة له عنوانها «شعر الغزل» «الأعمال الكاملة صفحة 70»:

تسائل كيف عرفت النسيب

وممن تعلمت شعر الغزل

تعلمته من شذا وجنتيك

إذا ما تفتح زهر الأمل

ومـــن شــفــتــيك ســرقت الــعــبــيــر

وحــلــم الصـبـا والأغــانــي الأول

ومـــن ثــغــرك الــعــذب ذقت الــهــوى

ولـــولاه لـــم أر وحــيًــا نـــزل

ومـــن خــفــة الــدم صــغت الــخــيــال

وقــلــت لــقــلــبــي عسى ولــعــل

ويواصل أبو سلمى هذا الغناء العاطفي، حيث يربط بين الحبيبة والطبيعة، ويربط بين مشاعر قلبه ومظاهر الجمال في الحياة ثم ينتهي من قصيدته بهذا البيت:

ألــم تــعــرفي بــعــد ســر الــنسـيـب

ومـــمـــن تــعــلــمت؟!.. قــالت أجــل

فالحب والغزل أو «النسيب» كما يسميه أبو سلمى في قصيدته، هما «الوتران» الأساسيان اللذان بدأ أبو سلمى حياته الشعرية بالعزف عليهما. والحب عنده ــ كما أشرنا ــ هو الحب العفيف الطاهر، فهو من كبار شعراء القلوب التي تحركها المشاعر النبيلة، وليس من هؤلاء الذين يقفون عند «الجسد» فيهتزون له ويبحثون فيه عما يثير الإلهام بعد أن يثير الحواس وشهوات الغريزة.

وهنا لابد أن نلتفت إلى أن «أبو سلمى» قد نشأ في بيت ديني أصيل، فقد كان أبوه الشيخ سعيد الكرمي قاضيًا لقضاة الشرع في الأردن. والتربية الدينية هي التي خلقت في شعر الحب عند «أبو سلمى» كل مافيه من رقة ولطف وتهذيب وطابع روحاني أصيل، ولعل هذا هو نفسه ما كان مؤثرًا في الشعراء العشاق الكبار في الأدب العربي القديم مثل «جميل» و«كثير» و«العباس بن الأحنف»، فقد ظهر هؤلاء الشعراء في العصور الإسلامية الأولى، فكان تأثير الروح الإسلامية عليهم كبيرًا وكانت أرواحهم مهذبة لطيفة، فكتبوا أشعار حبهم بهذه النغمة العفيفة الطاهرة البعيدة عن الشهوات

الجامحة، والتي دعا الإسلام بمبادئه الرفيعة إلى التحكم فيها والسيطرة عليها. فهم شعراء عشاقٍ، ولكن أرواحهم متدينة متصوفة، كما أنهم كانوا يميلون ميلاً واضحًا وقويًا إلى «التوحيد» في الحب، أي الاكتفاء بحبيبة واحدة وليس التنقل بين حبيبات متعددات، والتوحيد في الحب ـ وهذا رأي أراه ـ هو فرع من ثقافة دينية تقوم على «التوحيد» وترفض التعدد والإشراك.

هذا هو النبع الأساسي لشعر شاعرنا الكبير «أبو سلمى»، وهو نبع الحب الصافي والعشق الصوفي المهذب المليء بالمعاني الروحية الأصيلة. ومن هذا النبع الكبير امتلأت قصائد «أبو سلمى» بعنصر فني قوي في شعره هو عنصر الغنائية، وهذا ما يسجله بدقة شديدة الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه «الشعر الحديث في فلسطين والأردن» حيث يقول:

«نجد عند «أبو سلمى» وفرة في القيم الموسيقية التي تلف شعره، حتى جاءت أكثر قصائده مقطوعات غنائية قصيرة، مليئة بالألحان والأنغام، ذات ألفاظ موسيقية منتقاة، وقد غنت فيروز له قصيدته «ابنة بلادي» التي يقول فيها:

أيـــن الشـــذا والـــحــــلـــم الـــمـــزهـــر
أهـــكـــــذا حـــبك يـــا أســـمـــــر؟

أهـــكـــــــذا تـــــذوي أزاهيرنـــــا
وكـــان مـــنـــهـــا الـــمسك والـــعـــنـــبـــر

الشـــفـــة الـــحـــلـــوة مـــا بـــالـــهـــا
تـــحـــمـــل لـــي الـــخـــمـــر ولا تسكـــر

والـــعـــيـــن لا تســـحـــر عـــنـــد الـــلـــقـــا
الســـحـــر فـــي الـــعـــيـــن ولا تســـحـــر

وأكثر شعر «أبو سلمى» مما يصلح للغناء، فهو يكاد يمضي على هذا النسق الموسيقي، ولا تفارقه «غنائيته» مهما يختلف موضوعه».

وهذه الملاحظة التي سجلها الدكتور ناصر الدين الأسد صحيحة تمامًا، فشعر «أبو سلمى» مليء بالألحان والأنغام، وسوف نجد أن الموسيقيين قد اهتموا بشعره ولحنوا الكثير من قصائده فغناها المطربون في كل مكان، والحقيقة أن «أبو سلمى» كان من أكثر الشعراء المعاصرين الذين اتجهت إليهم عيون الملحنين في شعرنا العربي المعاصر كله، وقد سجلت المجموعة الكاملة لأعماله الشعرية كثيرًا من أسماء الملحنين الذين اختاروا قصائده وجعلوا منها قصائد «غنائية».

ولو أن «أبو سلمى» كان يعيش في بلد آمن مستقر لجعل حياته كلها وشعره كله غناء للحب الصافي والعشق العفيف، ولأصبح فنانًا تدور كل قصائده حول الحب وحده ولا شيء سواه، فشخصية «أبو سلمى» هي شخصية عاشق نبيل، تدور عواطفه وأحلامه وخيالاته حول الحب وحده. ولكن «أبو سلمى» كان يعيش في فلسطين في فترة عاصفة من تاريخ هذا البلد العربي الجريح، فهو كما أشرت في مقالات سابقة من مواليد 1907، أي أنه وصل إلى عمر الشباب والنضج في العشرينات والثلاثينات والأربعينات، وهذه الفترة هي المرحلة التي نسجت فيها المأساة الكبرى خيوطها على أرض فلسطين، ومن هنا كان «تحول» أبو سلمى من شاعر مفطور على الحب، مهيأ بحكم تكوينه الإنساني الخاص لكي يكون شاعرًا عاشقًا إلى شاعر يعبر عن محنة وطنه، وينتقل من حب «المرأة» والغزل العاطفي الرقيق فيها إلى حب الوطن والتعبير عن محنته، ولم يكن هذا التحول عسيرًا على شاعر مثله، فالعشاق المخلصون كما سبق القول هم مجاهدون من الطراز الأول إذا كان هناك ما يدعو إلى الجهاد.

شاعر الشهداء وزغاريد النساء!

لا شك أن ظهور دولة إسرائيل بصورة كاملة سنة 1948 قد أفقد العرب جميعًا كثيرًا من التوازن المطلوب للشعوب الناهضة، فقد ظهرت إسرائيل ومعظم الأقطار العربية تستعد للتخلص من الاستعمار القديم، وهو الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، كما كانت البلاد العربية غير الخاضعة للاستعمار بصورة مباشرة تحاول أن تخرج من عصور التخلف الذي غرقت فيه إلى أنوار العصر الحديث. ولكن إسرائيل قلبت كل الموازين، وأحدثت في المنطقة العربية فوضى مفاجئة وعامة وشاملة. فقد كان العرب حتى سنة 1948 غير قادرين على تصديق أن دولة إسرائيل يمكن أن تظهر بصورة علنية تحظى بموافقة الأمم المتحدة وتأييد الدول الكبرى لها وعلى رأسها في ذلك الوقت أميركا والاتحاد السوفياتي، أما بريطانيا فقد اختفت وراء ستار شفاف، وكانت تحرك كل الأمور من وراء هذا الستار؛ لأن بريطانيا كانت تريد أن تحتفظ بصداقة العرب الذين كانوا في كل الحسابات البريطانية مجموعة من كبار الساذجين الذين يصدقون الأقوال الطيبة والوعود الخادعة، وكانت بريطانيا تكثر من وعودها للعرب وتكرر هذه الوعود التي لا تلتزم بشيء منها. بينما تثبت حقائق التاريخ الحديث في هذه المنطقة من العالم أن الإنجليز هم الذين قاموا بالتخطيط لإنشاء دولة إسرائيل، وقدموا أهم المساعدات التي وفرت العناصر الأساسية لقيام هذه الدولة مثل تسهيل الهجرة اليهودية، وتدريب اليهود تدريبًا عاليًا على حمل السلاح واستخدامه، والضغط المستمر على عرب فلسطين، حيث كانت بريطانيا هي الدولة الحاكمة على

فلسطين منذ سنة 1918 إلى سنة 1948، وعندما انسحبت بريطانيا من فلسطين سنة 1948 كانت قد أعدت اليهود أحسن الإعداد ومكنتهم أفضل التمكين من إعلان قيام دولتهم فوق الأرض الفلسطينية. ومنذ ذلك التاريخ سلمت بريطانيا الأمر للأميركان لكي يقوم الأميركان بدور «العضلات» القوية، بعد أن قام الإنجليز بدور العقل المدبر، ولا تزال هناك نظرية فكرية وسياسية ـ وهي في رأيي نظرية لا بأس بها ـ تقول إن الإنجليز حتى اليوم هم أصحاب الخطط والأفكار، وإن الأميركان يستمدون الخرائط الفكرية من الإنجليز ويقومون هم بالتنفيذ؛ لأن الأميركان هم الأكثر ثراءً وقوة، وإن كانوا لا يملكون العمق الفكري الذي يملكه الإنجليز، ولذلك فالأميركان يستمدون أفكارهم من أجهزة المخابرات والمعلومات في إنجلترا، ويسهرون على تنفيذها، فإنجلترا تريحهم من عناء التفكير، وأميركا تريح الإنجليز من عناء التنفيذ والعمل الواسع المؤثر على أرض الواقع.

على أن المهم في هذا الأمر كله أن العرب قد أصيبوا بصدمة خطيرة عندما قامت إسرائيل سنة 1948، فلم يكن أحد في العالم العربي يصدق أن إسرائيل يمكن أن تقوم لها قائمة، ولم يكن أحد حتى من الفلسطينيين يصدق أن إسرائيل إذا قامت يمكن أن تستمر في البقاء؛ ذلك لأن العرب لم تكن لديهم «معلومات» دقيقة عما يدور حولهم، والقلائل من الزعماء العرب الذين كانوا يعرفون الحقائق، ويجدون الشجاعة لإعلانها وتقديمها إلى أجهزة الدولة الرسمية كان الجميع ينظرون إليهم على أنهم عملاء للاستعمار وخونة لشعوبهم، والمثال على ذلك هو السياسي المصري القديم إسماعيل صدقي باشا الذي وقف في مجلس الشيوخ المصري سنة 1948 يحذر من دخول الجيش المصري في حرب ضد إسرائيل، ويؤكد أن مصير الجيش المصري هو الهزيمة الكاملة؛ لأن المعلومات التي قدمها «صدقي باشا» تؤكد أن تسليح الجيش المصري وتدريبه كانا في درجة متخلفة جدًّا بالنسبة لتسليح اليهود وتدريبهم، وأن موقف الدول الكبرى جميعًا في العالم كله لن يسمح للمصريين ولا لغيرهم من العرب أن ينتصروا على إسرائيل، وكان حديث «إسماعيل صدقي باشا»

إلى مجلس الشيوخ المصري يهدف إلى إقناع المصريين بالاعتراف بقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1947، والداعي إلى قيام دولة يهودية ودولة عربية؛ لأن هذا الاعتراف هو أفضل الخيارات، وفيه توفير للطاقات وحماية من تبديد الإمكانيات في غير جدوى ولا فائدة. ولكن أحدًا لم يستمع بجدية واحترام إلى أقوال «إسماعيل صدقي باشا»، وهي الأقوال التي تم نشرها بعد ذلك في الستينات، عندما أصبح مسموحًا بنشر المحاضر الخاصة بالجلسات السرية لمجلس الشيوخ المصري حول حرب فلسطين الأولى سنة 1948. وحتى الآن لا يوجد كتاب يتحدث عن تاريخ مصر الحديث دون أن يكون فيه اتهام كامل لإسماعيل صدقي باشا. وهو اتهام يتراوح بين العمالة للاستعمار وبين الرجعية والخيانة الوطنية. وبصرف النظر عن المؤرخين فإن الرأي العام في مصر كلها كان ينظر إلى «إسماعيل صدقي باشا» على أنه عدو للشعب. أما الآن، وبعد مرور أكثر من خمسين سنة على ما قاله «إسماعيل صدقي» فلا أحد يذكره، لا بالخير ولا بالشر، فقد أصبح من الشخصيات التي وضعها الجميع في سلة مهملات التاريخ. وكل ما حدث لإسماعيل صدقي وأمثاله في العالم العربي، وهم أقلية قليلة جدًا من الزعماء والسياسيين الذين كانوا يعرفون الحقائق الدقيقة ويحسبون حسابها ويطالبون ـ دون جدوى ـ بالاعتراف بها قبل فوات الأوان.. هذه الآراء كلها لا شك أنها جاءت في توقيت غير مناسب تمامًا، فالرأي العام في مصر والعالم العربي لم يكن قادرًا على أي استيعاب واقعي لتلك الحادثة الخطيرة الطارئة على الواقع العربي وهي «حادثة قيام إسرائيل»، فلم يعرف العرب مطلقًا حادثة سابقة تم فيها اقتلاع شعب بأكمله من جذوره، وإحلال شعب آخر «ملفق» و«وافد» من شتى أنحاء الأرض محل الشعب الموجود فوق أرضه منذ آلاف السنين، فهذا أمر لم يكن أحد في العالم العربي قادرًا على استيعابه أو تصوره أو الظن ـ لحظة واحدة ـ أنه ممكن التحقيق. وعندما قامت إسرائيل وأعلنت عن وجودها بصورة رسمية سنة 1948، ظن الجميع في العالم العربي أن ذلك كله من «الأمور المؤقتة» التي لابد أن تزول.. لأنه أمر غير معقول. وهكذا كان قيام إسرائيل «زلزالاً» هز العقل العربي

والنفس العربية، وأشعر الجميع بأن عليهم أن يعيدوا النظر في أوضاعهم التي كانوا يظنون أنها مستقرة، وأن الدولة اليهودية الموعودة لا يمكنها أن تهز هذا الاستقرار، لأنها لا يمكن ـ بالعقل ـ أن تصبح حقيقة، وإن أصبحت حقيقة فلابد أن تكون شيئًا مؤقتًا يمكن إزالته بضربة واحدة.

ولكن إسرائيل أصبحت واقعًا.

ولم يتمكن أحد من إزالتها بضربة واحدة سنة 1948، ولا بعدة ضربات بعد ذلك.

وهنا انتبه العرب جميعًا وخاصة أهل فلسطين أنهم أمام مأساة كبيرة جدًا، وأن هذه المأساة ليست عارضة ولا مؤقتة، ولكنها مأساة «طويلة العمر» ولابد من التعامل معها على هذا الأساس الأليم الذي يمثل صدمة عنيفة جدًا للجميع.

في هذا المناخ ظهر شاعرنا الكبير «أبو سلمى» أو عبدالكريم الكرمي «1907 ـ 1980»، وهو الشاعر الكبير الوحيد الذي بقي حيًا على ساحة الشعر الفلسطيني بعد 1948، بعد أن كان زميلاه اللذان اشتركا معه في «تأسيس» حركة الجيل الأول من الشعراء في فلسطين قد غابا عن الحياة، حيث كان «إبراهيم طوقان» قد توفي ـ مريضًا ـ سنة 1941، وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وكان «عبد الرحيم محمود» قد توفي شهيدًا في إحدى معارك حرب فلسطين الأولى سنة 1948، وهي المعركة المعروفة باسم «معركة الشجرة»، وقد مات «عبد الرحيم محمود» وهو في الخامسة والثلاثين.

كان «أبو سلمى» هو الناجي الوحيد من الرواد الثلاثة للشعر الفلسطيني الحديث، وقد نجا من حرب الأيام والأمراض التي قضت على زميله الرائد إبراهيم طوقان «1905 ـ 1941»، ونجا من الحرب ضد اليهود التي قضت على الرائد الثاني للجيل الشعري الفلسطيني الأول وهو عبد الرحيم محمود «1913 ـ 1948».

وكان «أبو سلمى» بين جميع زملائه من رواد الشعر الفلسطيني الحديث هو الوحيد المهيأ بين جميع زملائه لأن يكون شاعر الحب والعاطفة والهوى العفيف،

فهذه كانت ميوله الأصلية، وهذا كان تكوينه النفسي والفكري، فهو شاعر عاشق بطبيعته، محب للجمال، غارق في التأملات الوجدانية، لا يجد في شيء سواها أي ينابيع للفن الشعري. ولو كان «أبو سلمى» يعيش في مجتمع مستقر لم تطرأ عليه ما طرأ على فلسطين من هزات وزلازل، لكان «أبو سلمى»، في مقام شعراء الحب والمرأة مثل «إبراهيم ناجي» و«علي محمود طه» في مصر، أو مثل «إلياس أبو شبكة» و«بشارة الخوري» في لبنان، أو مثل «نزار قباني» في سورية، مع الفوارق الدقيقة بين كل واحد من هؤلاء وبين غيره، في طبيعة النظرة إلى الحب والمرأة، فهم جميعًا من شعراء الحب والتركيز على المرأة، ولكن لكل منهم مذهبًا في العاطفة يختلف عن أخيه؛ فمنهم من ينظر إلى الحب نظرة روحانية شفافة، ومنهم من ينظر إلى الحب نظرة جسدية قد تندفع به إلى حد الفتنة الحسية بالجنس وما فيه من إغراء وجاذبية. وقد كان «أبو سلمى» بطبيعته الوديعة، وتربيته الدينية، ومزاجه العفيف الرقيق، شاعرًا للحب بمعناه الروحي الصوفي المهذب الرقيق. و«أبو سلمى» في مذهب عشقه أقرب ما يكون إلى مذهب «إبراهيم ناجي» في مصر، ومذهب «بشارة الخوري» في لبنان، وهو المذهب الذي يطلب الجمال والكمال في الحب، ويتغنى بمعاني الصدق في العاطفة، ولا يثور على الحرمان، بل يجد فيه من المتعة ما يوحي إليه بالكثير من الغناء العذب والمعاني العاطفية الراقية، ولا ينظر إلى الحب أبدًا على أنه شوق الجسد إلى الجسد، فهذا من الشهوات المؤقتة، ولكن الحب في الأصل ـ على الدوام ـ شوق للروح إلى الروح.

«أبو سلمى» شاعر فلسطين الكبير كان مهيئًا إلى أن يكون «إبراهيم ناجي» فلسطين، يتغنى بالمرأة، ويربط بينها وبين مشاعر الإنسان وجمال الطبيعة برباط وثيق!

ولكن.. منها لله إسرائيل!

لقد أطارت إسرائيل بقيامها هذا الشاعر العاشق الجميل من عشه الهادئ وأحلامه العذبة وإحساسه النبيل بالجمال.

وقد كان «أبو سلمى» وهو مقيم في «حيفا»، يعمل محاميًا في مكتبه الخاص، ويملك بيته الذي فيه زوجته وابنه الوحيد «سعيد».. كان هذا الشاعر العاشق آمنًا في «حيفا» ذلك الأمن الخادع الكاذب، حيث كان مثله مثل باقي العرب جميعًا ـ إلا أقل القليل من أبناء جيله ـ لا يصدقون أن إسرائيل يمكن أن تقوم، ولا يمكن إذا قامت أن تدوم، وترجمة ذلك كله في حياة الشاعر «أبو سلمى» أنه لم يتصور أنه يمكن أن يخرج من «حيفا»، أو يمكن أن يترك مكتبه وبيته فيها، أو يمكن أن يبتعد يومًا عن حدائقها الجميلة وشواطئها الساحرة، أو يمكن أن يتحول فجأة إلى إنسان محروم من لياليها وأقمارها ومعاني السحر الكثير فيها!

ولذلك فإنه عندما اضطر إلى الخروج من حيفا إلى دمشق سنة 1948 بعد إعلان قيام إسرائيل كان يحمل في جيبه مفتاح بيته ومكتبه، ويحمل في عقله وقلبه ذلك الظن الخاطئ عند العرب جميعًا بأن المحنة مؤقتة، وأن الدنيا لن تقبل كل هذا التزوير والتضليل، وأنه سوف يعود إلى مكتبه وبيته وإلى حيفا خلال أسبوعين اثنين على أكثر تقدير.

ولكن «أبو سلمى» لم يعد إلى مكتبه أو بيته وأرض ذاكرته وهوى قلبه في حيفا.. لم يعد إلى شيء من ذلك كله منذ أن خرج من حيفا في 22 إبريل «نيسان» سنة 1948، وهو اليوم الذي سقطت فيه حيفا بأيدي اليهود، وظل الأمر كذلك حتى وفاة «أبو سلمى» سنة 1980، أي أن الشاعر الكبير ظل مغتربًا عن بيته ومدينته بقية حياته ولمدة اثنين وثلاثين عامًا، حتى رحيله من الدنيا كلها، ولم يغترب لمدة أسبوعين فقط كما كان يتوهم في البداية.

وعندما أدرك شهر زاد الصباح، أي عندما تيقن «أبو سلمى» بعد شهور من مغادرته لحيفا أو بعد سنوات قليلة أنه لن يعود.. حدث التحول الكبير في تفكيره وعواطفه وشعره. فانتقل نهائيًا من خانة العشاق إلى خانة أصحاب الجهاد والنضال؛ لأن العشق والحب في حياته لم يعد لهما مكان، وأصبح كل شيء في نفسه وعقله يدور حول الوطن الضائع والأمل الصعب في عودة الطيور إلى عشها المهجور تحت سطوة

الصيادين الذين يطردون العصافير، فإن لم «تنطرد» قتلوها. وفي هذه المرحلة يأخذ شعر «أبو سلمى» صفات جديدة واضحة، ويتجه إلى آفاق موضوعية أخرى غير آفاق العاطفة والحب والمرأة.

إنه الآن يبكي على الوطن، لا على الحب والمرأة ومواعيد الغرام.

وعندما نراجع الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر «أبو سلمى» سوف نجد أن هناك «قسمة» واضحة بين مرحلتين.

المرحلة الأولى هي مرحلة الشباب والأوهام الخادعة بأن الوطن الفلسطيني لا يمكن أن يحدث فيه ما حدث فيه سنة 1948، وهذه المرحلة هي مرحلة العزوبية والنشوة بالحياة، والتغني بالحبْ والمرأة وأهواء الفؤاد السكران بالحب والعاطفة. أما المرحلة الثانية، وهي الأكبر والأشمل في شعر «أبو سلمى»، فهي مرحلة البكاء على الوطن والدعوة إلى تحريره والأمل في عودته ـ يومًا ـ إلى ما كان عليه قبل أن يتحول الكابوس الصهيوني إلى واقع لم يكن أحد يريد أن يصدق أنه.. قد وقع.

وفي هذه المرحلة الثانية، التي هي بكاء على الوطن وحنين إليه وأمل في عودته وتحريره وتعاطف مع أهله من الشهداء والمشردين واللاجئين ـ لم يتخل «أبو سلمى» عن أدواته الفنية الأصلية، ولا أجد تلخيصًا بديعًا لهذه الأدوات الفنية أجمل مما قاله عنه صديقه الشاعر العربي السوري الكبير «بدوي الجبل» في مقدمة ديوان «أبو سلمى» الأول، وهو ديوان «المشرد»، والصادر في طبعته الأولى بدمشق سنة 1949. يقول بدوي الجبل مخاطبًا «أبو سلمى»:

«لا أريد أن أتحدث عن شعرك.. إن شعرك كالعطر، رائحته تثني عليه، وتهدي إليه، ولكني أريد أن أتحدث عن حزن شعرك على فلسطين، إنه حزن وجيع وهادئ، فجمال شعرك في حزنك، إنه شعر لا يلطم الصدور، ولا يبالغ في الصراخ، بل هو حزن هادئ؛ لأنه نابع من ضمير.. سلمت العبقرية التي ينبع منها شعرك، ولا أقول سلمت الأحزان التي يفوح منها سحرك».

كلمات بدوي الجبل عن شعر «أبو سلمى» تصور حقيقة هذا الشعر.. بأسلوب شعري.

وحقيقة شعر «أبو سلمى» هي كما جاء في كلمات بدوي الجبل من معان دقيقة.. فأبو سلمى هو من شعراء «الهمس» لا من شعراء الخطابة والصراخ والعويل، وهو شاعر الحزن، وما في هذا الحزن من موسيقى متصلة قوية عذبة مؤثرة، وليس شاعر الطبول التي تدق بأعلى الأصوات، ثم تتوقف عن «الزعيق» عندما تهب أول ريح، إنه شاعر الوداعة واللطف والجرح الحقيقي الكامن في القلب، وليس شاعر الجراح السطحية المعروضة للبيع والشراء في سائر الأسواق. وقد استند «أبو سلمى» في ذلك على موهبة حقيقية، وثقافة واسعة واعية، وذوق في اللغة والأدب مرهف وأصيل، وإحساس هو غاية في اللطف والرشاقة بكل لفظ، وكل صورة، وكل نغمة، ولا عجب في ذلك كله فهو في الأصل عاشق روحاني، والعشاق الروحانيون لهم رصيد لا ينفر من التهذيب والسمو والعذوبة، ولولا سخافة الأيام ومحنة الزمان لعاش «أبو سلمى» كما عاش إبراهيم ناجي عاشقًا من البداية إلى النهاية. على أن هناك من الناحية الموضوعية إشارتين لابد منهما حول شعر «أبو سلمى» بعد أن تحول من عاشق للمرأة والجمال، إلى عاشق للوطن معبر عن أحزانه: الأولى هي أن «أبو سلمى» بفضل ثقافته الواعية قد قام في شعره بالتركيز على الطبقات الشعبية من أبناء وطنه، فهو شاعر الفقراء من عمال وفلاحين، وليس شاعر «الصفوة» من الأثرياء وأصحاب السلطان أو حتى من المثقفين الذين أتقنوا فن الكلام وعجزوا عن إتقان شيء من فنون العمل. و«أبو سلمى» بهذا المعنى يكون قد مال ميلاً واضحًا إلى ما نسميه في لغة السياسة باسم «اليسار»، على أن يسارية «أبو سلمى» لم تكن أبدًا يسارية حزبية ضيقة متعصبة، فهو أبعد ما يكون عن مثل هذا المعنى لليسار. فيساريته هي ميل للأغلبية الشعبية من الضعفاء والمعذبين في الأرض.

والإشارة الثانية التي لابد منها حول شعر «أبو سلمى» في مرحلته الوطنية هي إيمانه العميق بالديمقراطية، ودعوته الصادقة إلى أن هذه الديمقراطية بما تتيحه للشعوب من

حرية التعبير عن نفسها وحرية اختيار قادتها مع القدرة على محاسبتهم أولاً بأول.. هذه الديمقراطية هي الحل ولا شيء سواه. و«أبو سلمى» في هذا المجال من أوضح الشعراء في أفكارهم التي نبعت منها كل أشعارهم.

وبعد.. فيا سيدي «أبو سلمى»، لقد كنت أتمنى أن تكون حيًّا بيننا الآن لتشهد انتفاضة(*) شعبك الذي آمنت به ولتشهد دماء الشهداء وهي تسيل كل يوم منذ ثلاثة شهور على أرضك الغالية، وتسمع مع ذلك زغاريد نساء فلسطين وهن يودعن شهداءهن؛ لأنهن يعرفن أن الشهداء لا يصح توديعهم بالدموع ولكن بموسيقى الزغاريد.. وأنت.. أنت يا «أبو سلمى» شاعر الشهداء وزغاريد النساء. ولكنك رحلت يا «أبو سلمى» عن عالمنا. والأعمار أقدار بيد الله.

ولكن هل رحلت حقًّا؟.. أو أنك كما أراك الآن مازلت حيًّا.. يا شاعر الشهداء وزغاريد النساء؟

(*) انتفاضة الأقصى سبتمبر 2000، وكان أبو سلمى توفي سنة 1980.

شاعر فيه كل العيوب ولكنه يهز القلوب!

في رحلتنا المستمرة مع رواد الشعر الفلسطيني الحديث تقودنا خطواتنا إلى الرائد الأول للحركة الشعرية الفلسطينية كلها في العصر الحديث وهو إبراهيم طوقان، وهذا الشاعر المبدع الجميل له أشعار سهلة مؤثرة رائعة، وله إلى جانب ذلك قصة بل قصص عديدة في الحياة، فيها تنوع وطرافة وعمق، وفيها آلام وأحزان كثيرة، ولو أننا تركنا أشعار إبراهيم طوقان جانبًا، ولو توقفنا مع مراحل حياته المختلفة لوجدنا أمامنا قصة إنسانية ممتعة ورائعة، ولكننا للأسف تعودنا أن نضع كل أشيائنا العربية في «ثلاجة»، أي أننا نقوم بتجميدها، وتكرار ما نعرفه عنها، فكأننا كما يقول المثل العامي «نتف» ـ أي نبصق ـ في أفواه بعضنا البعض بنفس المعاني ونفس الكلمات. ولو تغلبنا على عادة وضع أشيائنا في «ثلاجة» لوجدنا هذه الأشياء تفيض بالحياة الجميلة المتوهجة، ولوجدنا فيها متعة تفوق المتعة القائمة على العادة والتكرار والبصق في أفواه بعضنا البعض وإعادة كل منا ما يقوله الآخرون.

إبراهيم طوقان في حياته هو صاحب قصة جميلة فاتنة، مليئة بالأفراح البهيجة، ومليئة أيضًا بالأحزان المفجعة المؤثرة. ولكننا مع ذلك كله «جمدناه» في «الثلاجة» العربية، وأخذنا نردد القول بأنه: رائد الشعر الفلسطيني الحديث، وأنه مناضل عربي، وأنه مات في عمر صغير ونكتفي بذلك ونتوقف عنده، ولا نحاول أن نتجاوزه إلى التفاصيل البديعة في حياة هذا الشاعر الحساس، والإنسان الجميل الذي كان يعرف معاني العشق للمرأة كأحلى ما يكون العشق، وكان يعرف معاني المقاومة والنضال عندما

انقلبت الأمور في بلاده فلسطين، وأطل عليها كابوس الصهيونية، فترك أمور العشق وانتقل بأشعاره إلى صفوف المناضلين فكتب أشهر القصائد التي ارتبطت بكفاح الفلسطينيين. وهذه القصائد البسيطة الرائعة كلها لا تخلو من عيب واحد من عيوب الفن الشعري كما يحددها «المتحذلقون» من النقاد العرب المعاصرين، ومع ذلك فأشعاره المليئة بهذه العيوب تهز القلوب، وتتجدد ـ على مر الأيام ـ مع كل انتفاضة يقوم بها الفلسطينيون، ومع كل شهيد يسقط فوق الأرض الفلسطينية المروية بالدماء وليس بالماء الذي يخرج منه كل شيء حي، فالفلسطينيون منذ سنة 1920 ـ على الأقل ـ لا يروون الحياة في بلادهم بالماء، ولكن بالدماء، وكلما ترددت من جديد أشعار إبراهيم طوقان.. والتي فيها كل العيوب ولكنها مع ذلك تهز القلوب.

ففي أشعار إبراهيم طوقان ميل واضح وأساسي إلى «التعبير المباشر».. وهو ما يرفضه جميع أهل «الحذلقة» من النقاد.

وفي هذه الأشعار خطابة وموسيقى عالية مثل موسيقى الطبول.. وهو ما يستنكره أيضًا جميع المتحذلقين من نقادنا الأعزاء. ولكن أحدًا من هؤلاء النقاد الأساتذة العلماء المتحذلقين بكفاءة عالية لم يسأل نفسه مرة واحدة: هل تحارب الشعوب إذا ما كان عليها أن تواجه أعداء شرسين مثل اليهود الصهاينة.. هل تحارب هذه الشعوب على «سيمفونيات» بيتهوفن وأنغام «شوبان» الحالمة. أو أن الشعوب عندما تدفعها الأزمات إلى خوض النضال إنما تحارب على قرع الطبول وأصوات الأبواق العالية؟! ما من جيش من جيوش الدنيا حارب على موسيقى بيتهوفن، ولا أنغام شوبان، ولكن الحرب هي الحرب التي تشتعل على أصوات الطبول العالية، فلكل مقام مقال، كما يقول العرب القدماء الحكماء.. وإن كانوا «دقة قديمة» كما يروي النقاد المتحذلقون.

أشعار إبراهيم طوقان.. فيها «التعبير المباشر»، وفيها دقات الطبول، وليس فيها حركات السيمفونيات، وفي قصائد إبراهيم طوقان ما فيها من العيوب الفنية الشعرية، ولكنها رغم ذلك تنطلق انطلاق الرعد القوي المؤثر، كلما سالت دماء الشهداء على الأرض التي لا يرويها الماء وإنما ترويها الدماء.

وهذا كله يقودنا إلى معنى سهل وميسور، ولكنه مجهول عند كل الأدعياء الذين يقيسون أمور الفن والحياة بما هو مكتوب في الكتب وفوق الأوراق، وينسون أن الحياة نفسها لها أنغامها الخاصة بها، ولها أحوالها الروحية المتصلة أشد الاتصال بما يقع فيها من أحداث إنسانية، والفن في الحياة متصل بالحياة وليس متصلاً بالقواعد المكتوبة في الكتب القديمة أو الحديثة.

وببساطة شديدة نستطيع أن «نكتشف» أن قواعد الفن الجميل هي قواعد حية ومتحركة وشديدة المرونة، وليست قواعد جامدة خارجة من «الثلاجة» وبعيدة عن أحوال الناس وما يعانونه من أحزان وما يسعدون به من أفراح.

وهكذا ينبغي أن ننظر إلى هذا الرائد الكبير للشعر الفلسطيني الحديث وهو إبراهيم طوقان. فلو طبقنا على إبراهيم طوقان قواعد «الكتب» و«المحفوظات النقدية» فسوف نقول عنه إنه شاعر تقليدي، يكتب أشعارًا مباشرة، ويدق الطبول، ولا يعزف السيمفونيات ولا الأنغام الحالمة الرقيقة.. وبذلك سوف نضعه في الدرجة الثانية أو الثالثة بين الشعراء.

وهذا خطأ فينا وليس خطأ في إبراهيم طوقان.

فإبراهيم طوقان هو ابن بلده وابن ظروفه الخاصة والعامة، وهو ابن عصره وأيامه، وهو السابح في النهر المتدفق فوق الأرض الفلسطينية وأوضاعها وأوجاعها وأفراحها.. ولذلك فهو الذي يردد الناس أشعاره إلى الآن وبعد وفاته بستين عامًا بالتمام والكمال إذ إنه قد رحل عن دنيانا سنة 1941 وهو في السادسة والثلاثين إذ إنه من مواليد 1905. ولعله قد كانت له إرادة في هذا الرحيل لأنه لو عاش حتى سنة 1948، حيث تم إعلان قيام دولة إسرائيل.. لمات من الغم والحزن وشدة ما كان يتوقعه ويخشاه، ولكان، وهو الفارس النبيل، قد مات مقهورًا إلى أبعد الحدود.. ولكنه شاء أن يموت مرفوع الرأس وهو على يقين أن ما كان من قيام إسرائيل.. لا يمكن أن يكون.

من الأفضل لمثل هذا الشاعر الكبير أن يموت وهو يحلم.. من أن يموت بفعل كابوس لم يكن له على باله وجود!

وقد مات إبراهيم طوقان على حلمه بالخلاص لنفسه وشعبه.. ولم يمت بفعل الكابوس الذي جثم على الصدور، ولم يزل جاثمًا عليها حتى الآن، وسوف يظل جاثما عليها إلى أن يشاء الله.. والله يبتلي الصابرين، ويعوضهم عن صبرهم، إذا كانوا من الصادقين في مذهب الصبر الجميل. والخطأ الأساسي في كل «حذلقة نقدية» هو أنها لا تربط الفن بالحياة، ولا تعرف أو لا تعرف بذلك الخيط الدقيق الذي يربط الأحداث الواقعية بالفن، فيتفجر الفن من هذه الأحداث قويًا فعالاً مؤثرًا في النفس إلى أبعد الحدود، أما إذا فصلت الفن عن الحياة، فكأنك قطفت الوردة من الحديقة، ولم تتوقف عند هذه الحدود، ولكنك أخذت الوردة فقطعت أوراقها جميعًا وفصلتها عن بعضها البعض، ووضعتها بعد ذلك أمامك وأخذت تتساءل: أين الوردة وأين جمالها وعطرها؟. والوردة الزاهية مقتولة لأنك قطعتها من حديقتها، ولأنك بعد أن قطعتها من الحديقة مزقت أوصالها وأوراقها فأصبحت أشلاء لا قيمة لها. وبعد هذه الأعمال التمزيقية جميعًا لا يجوز لنا ولا لغيرنا أن يتساءل أين الوردة وأين جمالهاوعطرها. فالوردة مزقناها وقضينا عليها، فلم تعد سوى أشلاء مبعثرة لا قيمة لها. ولكي نخرج من هذا الكلام العام أحب أن أتوقف أمام نموذج فيه بعض التوضيح والشرح لما أقول. والحقيقة أنني أعتقد من خلال هذا «النموذج» أن إبراهيم طوقان ليس مجرد شاعر فقط، ولكنه ـ لو أحسن شعراؤنا التفكير والإحساس ـ هو نفسه في كثير من تفاصيل حياته يصلح مادة لقصائد بديعة وأشعار رائعة. أي أن الشعراء المعاصرين بأساليبهم ومدارسهم الفنية الحديثة المختلفة يستطيعون أن يجدوا في تفاصيل حياة إبراهيم طوقان ـ عاشقًا ومناضلا ـ أجمل ما يلهمهم بالقصائد الرائعة وألوان الفن الجميل، بل إن حياته تقدم مادة أولية غنية جدًا تصلح لملحمة شعرية، أو مسرحية من أروع مسرحيات الفن والوجود، وهي تصلح لرواية بديعة من أعذب وأكثر الروايات صفاء ونقاء وقدرة على التأثير.

وهنا لابد من نداء جانبي إلى الشعراء وسائر الفنانين العرب المعاصرين، ونقول لهم في هذا النداء البسيط المتواضع: لا تقفوا عند الأمور الخارجية السطحية، ولا تضعوا في أيديكم وعقولكم قيودًا حديدية أو حتى ذهبية.. فالقيود هي القيود حتى لو كانت من الماس أو الذهب! ونعود إلى «النموذج» في شعر إبراهيم طوقان، حيث إنني لا أستطيع أن أقرأ قصائده وحدها، وإنما لابد أن أقرأها مرتبطة بأحداثها وظروفها وملابساتها المختلفة، وهنا ـ فقط، تصبح القصيدة متكاملة رائعة، حتى لو كان فيها كل العيوب التي ينكرها المتحذلقون من النقاد، لأنها قصائد تهز القلوب.. رغم كل هذه العيوب، فهناك عيب «المباشرة» أو عيب «الخطابة» أو عيب «الإيقاع» الصاخب المرتفع الذي يشبه إيقاع الطبول، وليس إيقاع البيانو أو الكمنجة أو غيرها من الآلات الموسيقية الرقيقة الحساسة.

خذ عندك هذا النموذج من أشعار إبراهيم طوقان، واقرأ هذا النموذج مرتبطًا بالحادثة التي تفجرت منها القصيدة، ولا تقرأ القصيدة أبدًا منفصلة عن الحادثة، فلو أنك قرأتها منفصلة عن «أرضها» الأولى، أو حديقتها التي هي فيها «زهرة» مليئة بالعطر الساحر الجميل، فلن تجد فيها ـ إذا انفصلت عن بيئتها ـ جمالها الأصلي وروعتها وهي زهرة في حديقتها، وليست زهرة منزوعة من الحديقة أو مبعثرة الأوراق على طريق العابرين الذين يدوسون على الأرض وكل ما فوقها.. حتى لو كان من الورد الجميل.

القصيدة التي كتبها إبراهيم طوقان سنة 1930 اسمها «الفدائي»، ولها حادث يرتبط بها، فلنقرأ القصيدة مع الحادث، وعلينا ألا نحاول أبدًا فصل القصيدة عن الحادث الذي هو جزء منها وأصل من أصولها التي تعطيها قيمتها التاريخية وجاذبيتها الفنية. وأنا أنقل القصيدة وما يتصل بها من واقع كان «مصدرًا» لها، كما ورد ذلك كله في كتاب ممتاز عنوانه «شاعران من جبل النار» من تأليف الباحث المدقق «وليد صادق سعيد جرار»، حيث يقول الباحث في صفحة 150 من كتابه «الطبعة الأولى سنة 1985».

«عينت الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين «السير بنتويش» اليهودي في وظيفة «النائب العام» في فلسطين، فأمعن في تعذيب العرب واضطهادهم بسن القوانين

التعسفية، ولما ثقلت على العرب وطأته أعد له أحد الفدائيين الأبطال عند مدخل «دار الحكومة» في القدس كمينًا، وأطلق عليه النار، وكاد يودي بحياته، وهذا البطل هو «عبد الغني محمد أبو طبيخ» من عائلة «السباعنة» في قرية «قباطية» القريبة من «جنين»، وقد نظم إبراهيم طوقان في هذا الشاب الجريء قصيدة سماها «الفدائي» علق عليها الشاعر اللبناني الكبير «بشارة الخوري» أو «الأخطل الصغير» في جريدته «البرق» البيروتية في 9 يونيو «حزيران» سنة 1930 بقوله: أتعرف شيئًا عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى إلى حريتها؟! أتعرف شيئًا عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دمًا ونارًا؟! تعرف عليها إذن في هذه القصيدة، وعنوانها «الفدائي» للشاعر إبراهيم طوقان:

لا تســــل عــــن ســــلامــــتــــه

روحــــه فــــوق راحــــتــــه

بــــدلــــتــــه هــــمــــومــــه

كــــفــــنــــا مــــن وســــادتــــه

يــــرقب الســــاعــــة الــــتــــي

بــــعــــدهــــا هــــول ســــاعــــتــــه

ثم يقول:

هــــو بــــالــــبــــاب واقــــف

والــــردى مــــنــــه خــــائــــف

فــــاهــــدئــــي يــــاعــــواصــــف

خــــجــــلاً مــــن جــــراءتــــه

صــــامت لــــو تــــكــــلــــمــــا

لــــفــــظ الــــنــــار والــــدمــــا

قل لمن عاب صمته:
خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل
يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى
منهج الحق أبكما
مر حين فكاد يقتله
اليأس.. إنما
هو بالباب واقف
والردى منه خائف
فاهدئي ياعواصف
خجلاً من جراءتِه

فهل رأيت صورًا أروع تداخلاً، وأمعن تكاملاً من هذه الصور المتلاحقة المتماسكة، بحيث تتوالى، كأنما القصيدة بيت واحد من مطلعها إلى وسطها إلى غايتها، لا تتوانى ولا تتعثر؟ تلك هي قصيدة «الفدائي» لإبراهيم طوقان، وتلك هي شهادة شاعر معاصر ومبدع وكبير هو بشارة الخوري لهذه القصيدة الرائعة، ولكن هذه القصيدة لا يصح ـ شرعًا ـ قراءتها بدون ربطها بالحادثة المتصلة بها، وهي بطولة الفدائي «عبد الغني محمد أبو طبيخ».. فالقصيدة جزء من الحادثة التي نبعت منها والحادثة في حد ذاتها قصيدة كبرى نبعت منها قصيدة إبراهيم طوقان. والذين يقرءون هذه القصيدة، سوف يقولون.. ما هذا؟ إن هذا ما هو إلا شعر خطابي مباشر نغماته مرتفعة كأنغام الطبول، وهذه كلها عيوب في الفن لايجوز التسامح معها؛ فالفن الحقيقي لابد أن

يكون رشيقًا رقيقًا شفافًا مليئًا بالإيحاء البعيد والرموز الهامسة.. ونقول لهؤلاء إن قصيدة «الفدائي» مثلها مثل معظم قصائد إبراهيم طوقان فيها كل العيوب التي تتحدثون عنها من المباشرة والخطابة والبعد عن الهمس الناعم الرقيق، ولكن ما رأيكم ـ دام فضلكم ـ إنها رغم ذلك كله قصيدة تهز القلوب. وأنا شخصيًا كلما قرأتها اهتز قلبي واضطربت نبضاته؛ لأنني أقرأ القصيدة مع الحادثة التي نبعت منها، وأحس ـ بالغريزة الطبيعية ـ إن الفن لا يكون في مثل هذه الحادثة إلا عن الشكل الذي خرجت به هذه القصيدة، فجاءت رائعة؛ لأنها صادقة، وجاءت عالية الأنغام، لأن الشهداء وهم يبذلون دمهم على الأرض التي بها يؤمنون، وعنها يدافعون، لا يقولون لقاتلهم في صوت لطيف: «ميرسي» أو «كمنت إليه فو» أو «هاو / دو / يو/ دو» بل يصرخ الشهداء في وجه الغاصبين، أو إذا كان الشهداء في عمر الطفل محمد الدرة «12 سنة» فإنهم يفزعون من الموت لأن قاتلهم يقتل فيهم عمرًا طويلاً لم يعيشوه، ولذلك فقد كان محمد الدرة يعبر عن خوفه ورعبه، ليجعلنا نحن مرعوبين إلى الأبد، لأننا سمحنا لغاصب مجنون أن يقتل هذا الطفل البريء والقاتل سكران بخمر قوته وعزته بالإثم الذي هو غارق فيه.

شعر إبراهيم طوقان شعر فيه كل العيوب المسجلة في وثائق النقد الحديث، وفي أوراقه البيضاء اللامعة، ولكنه رغم كل ذلك، فإنه شعر يهز القلوب لأنه يتوازن في كل عناصره مع واقع الشهداء الذين يموتون وهم يصرخون في وجه القاتلين.. وهؤلاء الشهداء لم يقرءوا كتب النقد الحديث المعاصر. من «بنيوية» وما فوقها وما تحتها، ولكنهم قرءوا خرائط الحياة الأليمة التي تفر من بين أيديهم .. فكان هؤلاء الشهداء هم قوة البقاء لأوطانهم وكان شاعرهم إبراهيم طوقان من أعظم الشعراء.

ويا إبراهيم طوقان لنا معك أحاديث أخرى ففي حياتك وشعرك من الروعة والإبداع ما يدعونا بقوة إلى أن نعيش معهما، ونقلب ما فيهما من صفحات رائعات، صفحة بعد صفحة، وأنت تطل علينا من وراء حجاب شفاف، حيث تقود بأشعارك مظاهرات الشهداء، التي تنادينا، لعلنا نستجيب للنداء.

قصة غرام فلسطينية

يستحق الشاعر الفلسطيني الكبير إبراهيم طوقان «1905 ـ 1941»، أن نسميه باسم «أمير شعراء فلسطين» فهو أول شاعر في العصر الحديث رفع صوت المحنة الفلسطينية عاليًا في قصائده، وكان شعره من السهولة والبساطة بحيث استطاع الجميع أن يرددوه ويتغنوا به، فيثير فيهم نوعًا من النشوة والطرب والإحساس بعدالة ما يدافعون عنه ويرضون بتقديم أرواحهم فداءً له، وما من قضية في التاريخ استطاعت أن يكون لها فن جميل يعبر عنها وينبع منها إلا وكانت قضية عادلة، وكانت قادرة على تحقيق النصر لها ولأهلها حتى لو طال الزمان، ومن المفارقات الواضحة أن «الصهيونية» لم تنجب شعراء مهمين، وتاريخ الصهيونية في فلسطين خلال القرن العشرين كله يخلو من الشعراء الكبار الذين يؤثرون في شعوبهم، بحيث تردد هذه الشعوب ما يقوله الشعراء ويحسون بأن هؤلاء الشعراء بينهم وبين قلوب الناس «كهرباء» روحية قوية، فالشعراء اليهود الذين ظهروا في فلسطين كلهم بغير استثناء من الشعراء المتوسطين، وكثيرون منهم يعبرون عن الإحساس بالقلق والضياع والغربة في الحياة. ولعلنا نعود إلى موضوع الشعر الإسرائيلي في فلسطين مرة أخرى، فندرسه بالقدر المتاح لنا من المعلومات، وهو قدر يكفي ـ وزيادة ـ لتأكيد هذا المعنى، أي تأكيد أن الحركة الصهيونية على أرض فلسطين هي حركة خالية من الشعر العظيم والشعراء العظماء وعلى العكس من ذلك نجد أن «نار» الشعر المؤثر الجميل قد اشتعلت بين عرب فلسطين، منذ أن أخذ الجسد الفلسطيني يعاني من الآلام الكبيرة في بدايات القرن العشرين وحتى الآن.

فالقضية الفلسطينية منذ عشرينات القرن الماضي «أي القرن العشرين» تلخصها كلمتان اثنتان هما: الشهداء والشعراء. ففي كل جيل من الأجيال الفلسطينية شهداء لهم قصص بطولة عالية وتضحيات مؤثرة تهز القلوب، وفي كل جيل من هذه الأجيال شعراء يستمدون من تراث الألم الفلسطيني، وهو تراث غني جدًا، أجمل الأنغام وأعذب الكلمات وأروع ما يمكن أن يصدر عن القلب المجروح من آهات. وقد كان إبراهيم طوقان هو أول وأكبر شاعر عرفته فلسطين عندما كانت المحنة تحبو على قدميها كما يفعل الأطفال الصغار، وقبل أن تصبح هذه المحنة كبيرة وقوية، وقبل أن تقف على قدميها ليتغير اسمها من «محنة» إلى «دولة» تحمل اسم «إسرائيل». وقبل أن نواصل الحديث عن إبراهيم طوقان، لابد أن نعيد التأكيد على تلك الظاهرة المهمة التي تمثل «فرقًا» إنسانيًا دقيقًا بين «الفلسطينية» و«الصهيونية»، «فالفلسطينية» قد خسرت الكثير في الصراع بينها وبين أعدائها الأقوياء الأشداء الذين فقدوا ضميرهم الإنساني، ووضعوا مصالحهم فوق كل اعتبار، واعتبروا هذه المصالح بديلاً كاملاً لأية عدالة في التصرف أو التفكير. فقد كان الإنجليز منذ أن وقفوا على أقدامهم وأحسوا بالقوة التي في أيديهم، وهي قوة «الأسطول البحري» الذي كان أقوى الأسلحة على الإطلاق قبل اختراع «الطيران».. منذ ذلك التاريخ والإنجليز يعتبرون أن كل ما ينفعهم هو «حق وعدل»، ولذلك استعمروا كثيرًا من شعوب العالم، وتصرفوا في كل ما تملكه هذه الشعوب على أنه «ملك خاص» للإنجليز، فنقلوا القمح والقطن والذهب والماس، وكل ما تملكه الشعوب الخاضعة للاستعمار الإنجليزي إلى إنجلترا، وفعلوا ذلك وهم لا يحسون بأنهم يظلمون أحدًا، وأنهم يحصلون على ما يستحقون لسبب واحد هو أنهم أخذوه بما يملكون من قوة. فالقوة عندهم هي العدل.

وعلى هذا الأساس قامت إنجلترا بتربية «الوحش الصهيوني» منذ طفولته، وأرضعته اللبن والعسل، وعندما شب عن الطوق ــ كما يقال ــ أمدته بالسلاح، وفتحت له باب الهجرة إلى فلسطين، وباب الإقامة فيها والاستقرار على أرضها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918 وحتى سنة 1948. عندما أصبحت إسرائيل دولة. فالجريمة

في أصلها إنجليزية وعلي يد الإنجليز تمت تربيتها وتنشئتها ومنحها كل أسباب الحياة، ثم قام الإنجليز بتسليمها للأميركان الذين يقومون برعايتها حتى الآن.

ولكن الإنجليز الذين منحوا إسرائيل شهادة الميلاد وتولوا مسئولية الرعاية والتربية الأولى، لم يستطيعوا أن يجعلوا من اليهود فوق أرض فلسطين شعراءَ.. فلم يظهر بينهم شاعر يهز وجدان الإنسانية، ولا حتى شاعر يهز وجدان اليهود وحدهم.

أما الآلام الفلسطينية فقد خلقت من بين الفلسطينيين شعراء يتوارثون «شعلة» الشعر جيلاً بعد جيل، وكان أولهم وأكبرهم في العصر الحديث هو إبراهيم طوقان، ولذلك فأنا أقول ـ كما أشرت في البداية ـ إن إبراهيم هو أمير شعراء فلسطين. والألقاب في الشعر والفن عمومًا هي ألقاب محبوبة وخفيفة على القلب، لأن الناس هم الذين يمنحونها برغبتهم وإرادتهم، وهي ألقاب ليس فيها استبداد ولا طغيان. فأهل مصر هم الذين منحوا شوقي لقب «أمير الشعراء» ومنحوا حافظ إبراهيم لقب «شاعر النيل» ومنحوا خليل مطران لقب «شاعر القطرين»، وأنا أطرح للاستفتاء الشعبي العام لقب «أمير شعراء فلسطين» ليكون لقبًا لرائد الشعر الفلسطيني الحديث إبراهيم طوقان. ولن يكون هناك في هذا الاستفتاء تزوير ـ مما تعلمون ـ ولن يكون هناك شرطي ولا جندي من أي جيش.. فهو استفتاء حر أطرحه مقتنعًا به راضيًا عنه واثقًا من أنه سوف يحصل دون «الحركات إياها» على نسبة 99,99٪.

إبراهيم طوقان هو أمير شعراء فلسطين وهو يستحق ذلك رغم أن في بيته شاعرة كبيرة أخرى تستحق لقبًا هي جديرة به، وأقصد بذلك فدوى طوقان شقيقة إبراهيم. وأعتقد أنها هي أيضًا تستحق أن تكون «أميرة».. وحقها في الإمارة محفوظ.. ولكن بعد شقيقها الأمير إبراهيم. وأظن أن الأميرة «فدوى» لن تعترض على هذا التقديم، وسوف يكون صوتها في الاستفتاء الأدبي الذي أقترحه بين أصوات الموافقين.

وأعود إلى إبراهيم طوقان الذي بدأ حياته بالحب العنيف، لم يبدأها بالوطنية التي تملأ أشعاره. فإبراهيم طوقان له قصة غرام من أجمل قصص الغرام المعروفة للناس أجمعين.

وأنا أحب أن أتوقف عند قصة الغرام هذه لأن فيها دليلاً قويًا على شخصية إبراهيم طوقان. فهي شخصية حية ومحبة للحياة، وليس فيها انطواء وخصومة مع الدنيا ولا انسحاب من مباهج النفوس والتجارب الإنسانية، ولو لم يكن إبراهيم طوقان ابنًا لفلسطين في عصر «مأساتها» لظل شاعرًا يتغنى بالحب طيلة حياته، ولكن المأساة انتزعته من «عش الغرام» إلى عش «الدبابير» و«الثعابين» ليدافع عن أهله وأرضه وتاريخه، وفي المرحلة السابقة على التفات إبراهيم طوقان إلى أن بلده في خطر شديد، كان الحب هو موضوعه الأول والأفضل، لأن قلبه كان عامرًا بالحب والعشق والهوى الجميل، وكان إبراهيم يسمي نفسه ويسميه زملاؤه من الأدباء والشعراء الذين كانوا طلابًا معه في الجامعة الأميركية في بيروت باسم «العباس بن الأحنف» والعباس بن الأحنف هو من أرق وأعذب شعراء الحب في الأدب العربي كله. ويسميه الدكتور زكي مبارك باسم «شاعر العفاف والكتمان». و«العباس بن الأحنف» هو الشاعر الذي عاش في بغداد في العصر العباسي الأول، ولم يقبل هذا الشاعر أبدًا أن يمدح أحدًا، خليفة كان أو أميرًا أو وزيرًا، بل جعل شعره كله غزلاً خالصًا راقيًا في حبيبة كان يسميها باسم «فوز»، وكان مخلصًا في هواه، عاكفًا على التغني بحبيبته لا يقبل عنها بديلاً، وكان كل شعره في الحب وفي حبيبة واحدة، وهو القائل، رضي الفن والحب والذوق الرفيع عليه:

يقولون لي واصل سواها لعلها

تغار، وإلا كان في ذاك ما يسلي

ووالله ما في القلب مثقال ذرة

لأخرى سواها إن قلبي لفي شغل

وهو القائل أيضًا:

أتأذنون لصب في زيارتكم

فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به

عف الضمير ولكن فاسق النظر

وفي الشطر الأخير من هذين البيتين صورة فنية بالغة الجمال، فالشاعر يصف نفسه بأنه «عف الضمير ولكن فاسق النظر»، أي أنه يحب المتعة التي توفرها له «العيون»، و«العيون» عندما تنظر إلى «الجمال» فهي لا تجد غذاءها في المعاني «الشهوانية» و«الغريزية» بقدر ما تجد متعتها في المعنى العام اللطيف للجمال في النساء.. وفي كل الأشياء.

والعباس بن الأحنف هو القائل أيضًا:

أتذهب نفسي لم أنل منك نائلاً

ولم أتعلل منك يومًا بموعد؟

فإن جاء مني بعض ما تكرهينه

فمن خطأ والله لا عن تعمد

ولعل هذين البيتين هما أجمل وأرق اعتذار قرأته في شعر الحب العربي، فالشاعر يعتذر هنا عن خطأ لا يعرفه، ويقسم لحبيبته إن ما قد يغضبها منه لم يصدر ـ ولن يصدر أبدًا ـ عن تعمد.. فما ألطف هذا الشاعر المهذب بأرقى مبادئ الأخلاق العاطفية.

وشعر العباس بن الأحنف كله من هذا الطراز الرقيق العذب المليء بالحرص على الحبيبة ومعاملتها ـ حتى في الشعر ـ بأرقى ما يمكن أن يتعامل به الرجال المتحضرون مع النساء.

هذا الشاعر، العباس بن الأحنف، هو الذي اختاره إبراهيم طوقان ليكون مثله الأعلى في الحب و«الغرام»، وسمي إبراهيم نفسه، وسماه أصحابه باسم «العباس بن الأحنف». وقد كان «العباس» يحب امرأة اسمها «فوز» فمن كانت هي المرأة التي أشعلت نار الحب في قلب إبراهيم طوقان؟

لقد كانت هذه المرأة زميلة له في «الجامعة الأميركية» في بيروت. وكانت هي الحب الأول والأكبر في حياة إبراهيم طوقان. وهي فتاة فلسطينية من قرية «كفر كنة» قرب مدينة «الناصرة» واسم هذه الفتاة «ماريا صفوري»، وعن هذا الحب تحدثنا فدوى طوقان، شقيقة الشاعر في مقدمة ديوانه والتي كتبتها تحت عنوان «أخي إبراهيم».

حيث تقول:

«ولما بلغ إبراهيم الثانية والعشرين مس الحب قلبه، ولكن هل كان مس ذلك الحب رقيقًا رحيمًا؟. كلا، بل كان مسًّا عنيفًا ملهبًا، أشعل روحه، وأيقظ حسه، وأرهف نفسه. ففي سنة 1926 طلعت في الجامعة الأمريكية في بيروت فتنة تمثلت في صورة فتاة فلسطينية. طالبة هناك، فأحيت قلوبًا وسحقت قلوبًا. وتورط إبراهيم، ودخل المعركة، وابتلي حسنات وسيئات، أما السيئات فليس هذا بموضع تدوينها، وأما الحسنات فتنحصر في الطريق الأدبي الجديد الذي نهجه إبراهيم، والاستعداد الكبير في هذا الطريق، صار إبراهيم «بفضل هذا الحب» قوي الملاحظة، حاضر العاطفة، حاد الأعصاب، وصار كثير المطالعة، صيادًا للمعاني، بسيط العبارات. سهل الفهم.. تلك حسنات الحب الذي ابتلي به إبراهيم على حد تعبيره».

هذا ما قالته فدوى طوقان عن أول حب وأكبر حب في حياة إبراهيم طوقان، ولكن قصة الغرام الفلسطينية فيها تفصيلات أكثر مما أشارت إليه فدوى. وهنا نعود إلى كتاب قيم عنوانه: «شاعران من جبل النار ـ إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود» من تأليف الأستاذ «وليد صادق سعيد جرار»، وفي هذا الكتاب نجد مزيدًا من التفاصيل المهمة عن قصة غرام «إبراهيم طوقان» و«ماريا صفوري»، حيث يقول الكاتب الأديب «صفحة 112 وما بعدها»:

«قد جاءت فتاة «كفر كنة» إلى الجامعة الأميركية في بيروت، ومكثت فيها سنة واحدة «1925 ـ 1926» وألقت هذه الفتاة شباك هواها على كثيرين ثم وقعت في هوى

إبراهيم، ويقول الدكتور عمر فروخ الذي كان زميلاً «لإبراهيم» وحبيبته «ماريا» في الجامعة الأميركية: إن هذه الفتاة لم تكن جميلة بالمعنى الذي تواضع عليه واضعو مقاييس الجمال.. كانت فتاة فارعة الطول، سمراء تظهر على وجهها ابتسامة خفيفة إذا كانت غافلة في مقعدها أو مسيرها، فإذا نبهتها أنفاس متأمل، أو نظرات متتبع، غاضت ابتسامتها، وتجلى على وجهها لون من النفور، ثم بدا «النزق» في حركاتها مختلطًا بالدلال هذا هو رأي الدكتور عمر فروخ، الذي كان معاصرًا وشاهدًا على قصة هذا الحب، ولعل قلب إبراهيم طوقان الذي تفتح لحب هذه الفتاة لم يكن يلتفت في قليل أو كثير إلى مقاييس الجمال الظاهر للعيان. وعلى أية حال فقد فتنت «ماريا صفوري» قلب إبراهيم طوقان بقوامها الفارع، وملابسها الأنيقة، فأمضى الساعات يترقب رؤيتها من شباك غرفته التي تطل على مدخل الجامعة الرئيسي وهي تمر متعجلة في الصباح الباكر تحمل كتبها ودفاترها، وكان الشاعر يقف مبهوتًا وهو يراقب حركات مشي فتاته المميزة، وخطواتها الرشيقة وهي تعبر مدخل الجامعة متجهة إلى قاعة الدرس، ولم يلبث زملاء إبراهيم في السكن الداخلي للجامعة أن عرفوا بما يعانيه الفتى من لهفة وانتظار، فمازحوه وبدأوا يعدون عليه خطواته، ولم يلبث الشاعر أن كسر الطوق حين تقدم من فتاته ـ يومًا ـ محييًا أو محدثًا، وطال به الأمر كذلك حتى استطاع بتأثير المعاناة العاطفية الجديدة، وبفضل شعوره المرهف وذوقه الشعري أن يكشف عن حبه بقصيدة جميلة عنوانها «عند شُبَّاكي» يصور فيها الشاعر وقوفه الطويل عند شباكه منتظرًا طلعة حبيبته، ممنيًا نفسه برؤيتها».

هذا هو بعض ما كتبه مؤلف كتاب «شاعران من جبل النار» عن قصة حب «إبراهيم طوقان» و«ماريا صفوري». أما قصيدة «عند شباكي» والتي أعلن فيها إبراهيم عن حبه، وكشف في صراحة عن هواه، فهي قصيدة سهلة بسيطة، بل وفيها كثير من السذاجة اللطيفة المحبوبة. ولابد أن نتذكر ونحن نقرأ هذه القصيدة أنها كانت أول قصيدة عاطفية كتبها إبراهيم طوقان، وأنه كتبها وهو في الثانية والعشرين أي في أوائل شبابه وحياته الأدبية. وفي هذه القصيدة البسيطة السهلة الساذجة نقرأ قول الشاعر:

بـكـوري عـنـد شُـبَّـاكـي

لأنشـق طـيـب ريـاكِ

ولا سـلـوى سـوى نجوى

أسـر بـهـا لـمـغـنـاكِ

أسـرِّح نـحـوه طـرفًـا

أمـنـيـه بـمـرآكِ

تـمـر عـلـيَّ سـاعـات

أشـيـعـهـا بـذكـراكِ

وأخشـى أن يـرف الجف

ـن يـحـرمـنـي محـيـاك

وفي البيت الأخير التفاتة لطيفة، فالشاعر يخشى أن يغمض جفنه في «رفة» سريعة منه حتى لا يتعرض للحرمان من رؤية حبيبته بسبب هذه «الرفة» من جفنه.

ويصور إبراهيم طوقان بعد ذلك وفي نفس القصيدة لحظة غياب حبيبته عن ناظريه فيقول بنفس البساطة والسذاجة اللطيفة:

وداعًـا يـا مـعـذبـتـي

وعـيـن الله تـرعـاكِ

شـكـرت الله أن الـدر

سَ يـجـمـعـنـي وإيـاكِ

وتـلـقـيـن السـؤال عـلـيْ

يَ في أمـر تـعـداكِ

وحـــين أجـيب تــمــنــحــنــي

وســـام الشـــكـــر عـــيـــنـــاكِ

هذا شعر جميل من عصر الرومانسية الصادق والذي كانت كل إشارة أو لمسة أو ابتسامة أو همسة أو غمزة عين تثير فيه أعمق المشاعر وتحرك الإحساس ويفيض بعدها الشعر العاطفي. ومثل هذه الرؤية الرومانسية لا تثير في عصرنا «الواقعي» إلا الابتسام، وربما أثارت نوعًا من السخرية.. فكيف يكون مجرد سؤال طالبة لزميلها عن شيء لا تعرفه موضوعًا لقصيدة عاطفية أو جزءًا من هذه القصيدة؟ هذا كلام نقوله الآن، ولكننا لو تذكرنا أن هذه القصيدة كانت مكتوبة سنة 1926، حيث كان ظهور المرأة العربية في الحياة العامة نادرًا إلى أبعد الحدود، وحيث كانت الأقطار العربية وخاصة في بلاد الشام شديدة المحافظة، وكانت حساسة جدًّا لموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة، فإننا نستطيع أن نفهم كيف أن «فتافيت الحياة» في ذلك العصر المحافظ إلى أبعد الحدود، يمكن أن تكون مصدرًا للشعر العاطفي. على أننا لو تركنا المقارنة بين عصرنا المتحرر، وذلك العصر المحافظ منذ أكثر من سبعين سنة، فلعلنا نجد أنه في عصر «المحافظة» و«القيود» كانت كل الأشياء لها معناها وتأثيرها مهما كانت صغيرة ومحدودة، سواء كانت هذه الأشياء ابتسامة أو نظرة أو كلمة عابرة، لقد كانت هذه الأمور جميعًا لها إيقاعها الشعري، وإثارتها للخيال والعاطفة. أما في عصرنا فهذه الأشياء، وأكثر منها مائة مرة، ليس لها إيقاع ولا فيها إثارة، لأنها أمور عادية تتكرر أمامنا كل يوم، ولعلنا نقول بيننا وبين أنفسنا ما أجمل العصر الذي مضى والذي كانت فيه كل الأشياء الصغيرة البسيطة لها معانيها الكبيرة في النفوس! على أن نهاية قصة «الغرام الفلسطينية» هذه كانت نهاية أليمة، كما هو منتظر في ذلك العصر الذي كان مليئًا بالقيود والمحظورات. فقد كانت الحبيبة «ماريا» مسيحية وكان «إبراهيم» من أسرة إسلامية كبيرة وقديمة ولها مكانتها العالية في مدينة نابلس وفي فلسطين كلها، وما كانت أسرة «ماريا» المسيحية تسمح لها بالزواج من حبيبها «إبراهيم» المسلم، وما كانت أسرة «إبراهيم» الكبيرة تسمح بذلك.

أما نهاية الحبيبة «ماريا صفوري» فيحدثنا عنها مؤلف كتاب «شاعران من جبل النار» صفحة 113» فيقول:

«تزوجت «ماريا» من شكري إلياس سلمان» من القدس سنة 1930، وكان يعمل ترجمانًا للسياح في بيروت. وفي العام 1946 طلقها. وبعد أحداث النكبة سنة 1948 عادت إلى قريتها «كفر كنة» في فلسطين، وفي ليلة من ليالي شتاء 1954 أصيبت بنزلة صدرية لفظت على إثرها أنفاسها في غرفتها الموصدة عليها، ولم يقف أهلها على نبأ وفاتها إلا في صباح اليوم التالي، ففارقت هذه الحياة وفي قلبها جمرات من الزمان وظلم الناس.

كيف يضحك الفلسطينيون؟!

وهل يمكن للفلسطينيين أن يضحكوا وهم في «هم» دائم منذ أوائل القرن العشرين وحتى الآن؟ الحقيقة الثابتة في تاريخ الإنسان هي أنه كلما ازدادت الهموم، وأصبحت همومًا بلا حلول واضحة، فإن الإنسان في هذه اللحظات الصعبة المظلمة يكون أكثر رغبة في الضحك والسخرية، فالضحك والسخرية هما وسيلتان للتخفيف من مصاعب الحياة، ولذلك كانت فترات الطغيان والاستبداد هي من أكثر الفترات المعروفة «للضحك والسخرية» والبحث عن أسباب للمرح، فبدون ذلك تتحول الحياة إلى سجن كبير يكتم أنفاس المساجين فيه، ومعظم الساخرين الكبار في تاريخ الأدب والفن لم يظهروا إلا في عصور الطغيان والاستبداد، لأن هؤلاء الساخرين يمثلون «النافذة» الوحيدة التي يدخل منها الهواء النقي إلى حياة الناس والمجتمعات في أيام الشدائد. فقد ظهر الفنان الساخر العظيم «موليير» «1622 ـ 1673» في عصر من أكثر عصور الاستبداد فسادًا في فرنسا وهو عصر لويس الخامس عشر وكان الناس يشاهدون مسرحيات موليير وهم «غارقون» في الضحك، وكان المستبدون أصحاب السلطة والنفوذ يضحكون هم أيضًا وهم لا يدركون ـ لشدة دهاء الفنان الكبير ـ أنهم يضحكون على أنفسهم، أما الناس العاديون فكانوا يضحكون ويفهمون الأهداف البعيدة التي يرمي إليها موليير والتي غابت عن الطغاة الذين أعماهم السلطان وامتلأت نفوسهم غرورًا بما يملكون من نفوذ وقوة، فظنوا أن «موليير» إنما يقدم إلى الجميع نوعًا من التسلية والترفيه والمتعة الخالية من النقد للأوضاع السيئة القائمة، ولذلك فقد

كان موليير موضع إعجاب الطاغية لويس الخامس عشر، وهذا من رحمة الله بالناس، إذ إن الله يصيب الطغاة بالعمى فلا يرون أن الطغيان يحمل ـ دون أن يدري ـ عوامل انهياره وأسباب فنائه والقضاء عليه. ونستطيع أن نجد نماذج كثيرة مشابهة في الأدب العربي المعاصر، فأكبر الأدباء الساخرين ظهروا في أيام الاحتلال والاستبداد، ومنهم عبد الله النديم، وبيرم التونسي، وإبراهيم عبد القادر المازني، فكلهم ظهروا في مصر في عصر الاحتلال الإنجليزي لها، فملأوا حياة الناس بالضحك والسخرية، وكانوا من أكبر العوامل التي هدمت سلطان الاحتلال والاستبداد في حياة مصر الحديثة. ولابد من الإشارة في هذا المجال أيضًا إلى شخصية ساخرة عظيمة، هي شخصية الكاتب الروسي «أنطوان تشيكوف «1860 ـ 1904» فقد كان أدب تشيكوف مليئًا بالسخرية والابتسام، رغم أنه ـ في جوهره ـ نابع من الهموم والآلام. وكان تشيكوف يكتب فكاهته الحزينة وسخريته المريرة في عصر من أكبر عصور الاستبداد، وهو عصر قياصرة روسيا الطغاة. ولم يحدث أن استطاعت الرقابة الروسية القيصرية أن تحذف كلمة واحدة مما كتبه «تشيكوف»، لأن الفنان العظيم كان يعتمد على التلميحات والإشارات التي لا يمكن الإمساك بها أو الانتباه إلى مغزاها البعيد، وخصوصًا من الطغاة المغرورين الذين وضعت القوة فوق عقولهم وعيونهم حجابًا كثيفًا، فهم لا يفكرون بعمق، ولا يرون في النور.

وهنا نجد معنى عامًا في هذا كله، وهو أن الشعوب التي لا تعرف الفكاهة والسخرية هي شعوب لا قدرة لها على مقاومة الطغيان، وأن الآداب والفنون التي تخلو من السخرية الذكية العميقة فإنها تخلو من روح الفن الحقيقي والأدب المؤثر الجميل. فابحث دائمًا عن عنصر «السخرية» الذكية، فإن وجدته فاعلم أنك أمام شعب حي يستطيع مقاومة مصائب الزمان، وإن وجدت أدبًا يخلو من روح السخرية، فهو أدب لا يستطيع أن يحقق لنفسه الاستمرار والتأثير والبقاء فالضحك وروح السخرية أمران لازمان لحياة الشعوب وحياة الفنون والآداب، بل هما أمران لازمان لكل فرد من أفراد الناس، إذا كان هذا الفرد من القادرين على مقاومة الظروف الصعبة والأزمات العسيرة،

وكان من القادرين على أن يتحايل على المآزق ولحظات الاختناق القاتلة.. والذي لا يعرف الضحك فهو لا يعرف الحياة. ولعلنا نقول هنا ولا نخطئ كثيرًا: إن شعب مصر قد استطاع أن يواصل الحياة جيلاً بعد جيل على مدى آلاف السنين بفضل عنصرين أساسيين هما: «النيل» و«النكتة»، وبدون «النيل» و«النكتة» كان محكومًا على مصر بالفناء وبأن تتحول إلى صحراء جرداء خالية من كل مظاهر الحياة، وذلك لكثرة ما تعرضت له مصر من نكبات وأهوال، منذ الاحتلال الفارسي على يد قمبيز سنة 525 قبل الميلاد، والاحتلال اليوناني على يد الإسكندر سنة 332 قبل الميلاد وحتى عصر «فاروق الأول» ملك مصر والسودان.. على الورق فقط، وهذه الفترة إذا حسبناها تمتد إلى حوالى ألفين وخمسمائة سنة متصلة من الاحتلال الأجنبي لمصر، وهو أمر كان كفيلاً بإزالة المصريين من الوجود، فلا يوجد شعب تعرض لاحتلال متواصل لمدة ثلاثة آلاف عام تقريبًا، ثم استمر في الوجود بعد ذلك.. ولكن أهل مصر استطاعوا البقاء والاستمرار جيلاً بعد جيل لأنهم كانوا يملكون «النيل» و«النكتة»، ولم يكن دور «النكتة» بأقل شأنًا من دور «النيل»، فقد سهلت لهم «النكتة» محنة الحياة، وساعدتهم على أن ينجبوا الصبيان والبنات، ويبقوا إلى الآن.. رغم كل ما مر بهم من أزمات ونكبات مهلكة!

وقد كان من أكبر الطغاة في التاريخ في مصر وزير اسمه «قراقوش» المتوفى حوالي سنة 1201 ميلادية، ولا يزال هذا الاسم، حتى في الأوساط الشعبية، يحمل رمزًا خالدًا للظلم وإساءة التحكم في الناس، وكان «قراقوش» وزيرًا من وزراء صلاح الدين، وهو الذي بنى القلعة التي مازالت قائمة إلى الآن بالقاهرة، والمعروفة باسم «قلعة صلاح الدين»، وقد بناها بالقوة والعنف والسخرة، أي بإرغام الناس على العمل حتى الموت دون أي مقابل. ولذلك أصبح «قراقوش» رمزًا تاريخيًا للظلم الشديد. وهذا الظالم المستبد لم يسلم من ضحكات المصريين وسخريتهم الشديدة، فقد قام أحد الأدباء الشعبيين واسمه «ابن مماتي» بتأليف كتاب لطيف ظريف مليء بالسخرية البديعة عنه اسمه «الفاشوش في حكم قراقوش». وقد قام الأستاذ الكبير الدكتور عبد اللطيف

حمزة بتحقيق هذا الكتاب ونشره في سلسلة كتاب الهلال في خمسينيات القرن الماضي.. وهو من أطرف وأجمل وأعذب كتب السخرية من الظلم والاستبداد.

والفلسطينيون هم أيضًا من الشعوب القادرة على الاستمرار والبقاء، لأنهم من الشعوب الضاحكة، ولولا القدرة على الضحك في حياة الفلسطينيين لكان إنهاء وجودهم من التاريخ أمرًا لا مفر منه. ولكنهم موجودون إلى الآن بقوة منذ أن كانوا يحملون في فجر التاريخ اسم «الكنعانيين» قبل أن يكون لليهود أي وجود أو ذكر في التاريخ.

وهذه صفحة من الصفحات الضاحكة في تاريخ أهل فلسطين يمثلها جيل العشيرينيات والثلاثينيات في القرن الماضي. وهذه الصفحة قادرة على أن تثبت أن الفلسطينيين محبون للحياة ومتمسكون بها وقادرون عليها رغم ما فيها بالنسبة لهم من أزمات ساحقة لا يصبر عليها إلا الأشداء الأقوياء والقادرون على الضحك مهما كشرت لهم الدنيا عن أظافر وأنياب.

وقد كان بطل الضحك الفلسطيني الذي نتحدث عنه هنا هو أمير شعراء فلسطين في القرن العشرين إبراهيم طوقان «1905 ــ 1941».

وقد تحدثت في فصل سابق عن قصة الغرام الأول لهذا الشاعر الكبير عندما أحب زميلته في الجامعة الأميركية «ماريا صفوري» ابنة قرية «كفر كنة» القريبة من مدينة الناصرة، وانتهت قصة الغرام الكبير بين الشاعر وزميلته إلى الفشل، كما هو منتظر من مثل هذه القصة في عشرينيات القرن الماضي، فالحبيبة مسيحية والحبيب مسلم، وما كان المجتمع الفلسطيني المحافظ في ذلك الوقت يسمح بنجاح مثل هذه القصة الغرامية، ووصولها إلى نهاية سعيدة، فلا أسرة الحبيبة «ماريا» المسيحية تسمح بزواجها من مسلم، ولا أسرة إبراهيم طوقان المسلمة الكبيرة العريقة في مدينة «نابلس» تسمح بذلك. ولهذا انتهى ذلك الحب الجميل بين القلبين العاشقين نهاية محزنة. ولكن إبراهيم طوقان كان قد فضح أسرار قلبه بقصائده العاطفية الجميلة التي روى فيها قصة حبه. وأصبح إبراهيم

معروفًا بين أصدقائه وزملائه ومحبيه بأنه «عاشق ولهان»، وبأنه لم ينل من عشقه ما يريد. وكانت حبيبته الأولى معروفة للجميع وهي «ماريا صفوري» من قرية «كفر كنة» الفلسطينية. فما الذي يمكن أن يحدث بعد انتهاء هذه «المأساة العاطفية» للشاعر الفلسطيني الكبير؟

هل ينتحر الشاعر كما فعل «روميو» عندما فقد حبيبته «جولييت»؟!

هل يظل الشاعر أسيرًا مدى حياته للحزن والأسى.. فيبكي، ويبكي، دون نهاية للبكاء والدموع؟

إن حياة الشاعر الكبير كانت من الخصوبة والقوة بحيث كان عليه أن ينهض من أزمته العاطفية ليواصل مسيرته الخاصة، ومسيرته العامة في الدفاع عن وطنه المحاط بالوحوش المفترسة في داخله وخارجه. وهنا يلعب «الضحك» دوره الكبير في تخفيف المأساة والحد من أثرها المدمر الرهيب.

فقد أراد أصدقاء إبراهيم طوقان التخفيف من محنته العاطفية بالضحك، وكان على رأس هؤلاء الأصدقاء الشاعر الكبير «أبو سلمى» أو «عبد الكريم الكرمي»، وهو الصاحب الوفي وشقيق الروح بالنسبة لإبراهيم طوقان. فكتب «أبو سلمى» قصيدة ضاحكة تسخر من حب إبراهيم طوقان للتخفيف عنه، وأرسل قصيدته إلى إحدى الصحف العربية التي تصدر في «يافا» لتنشرها بتوقيع إبراهيم طوقان نفسه. والقصة الطريفة بأكملها نستطيع قراءتها في كتاب مهم هو «شاعران من جبل النار ـ إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود» للأستاذ «وليد صادق سعيد جرار» الطبعة الأولى سنة 1985»، وهذه هي القصة الضاحكة كما رواها الكتاب «صفحة 121 وما بعدها»:

«تحركت شاعرية «أبو سلمى» فنظم في عام 1934 أبياتًا ذيلها بتوقيع «إبراهيم طوقان» ـ وإبراهيم لا علم له بها ـ ودفعها إلى جريدة «فلسطين» التي كانت تصدر في يافا ـ قبل أن يستولي عليها اليهود ـ لتنشرها في عدد «الأحد» الأسبوعي، وفي هذه القصيدة يقول «أبو سلمى» على لسان إبراهيم طوقان:

يـــا صــــبـــايـــا «كـــفـــر كـــنـــة»

آه مـــن أعـــيـــنـــكـــنـــه

الـــهـــوى هـــجتن فـــي قـــلـــبـــي

ولا أكـــتـــمـــكـــنـــه

يـــاشـــقـــيـــق الـــروح قـــل لي

أيـــن مـــن تـــعـــبـــدهـــنـــه

أيـــن مـــن يـــبـــعـــثـــن نـــارًا

فـــي الحشـــا مـــن نـــورهـــنـــه

أيـــن هـــن؟ أيـــن هـــن؟

أيـــن هـــنـــه؟ أيـــن هـــنـــه؟

ولم تقف هذه الدعابة عند هذا الحد، بل زاد الأستاذ «حنا سويدا»، وكان يعمل موظفًا في يافا، ويشترك في تحرير القسم الأدبي من جريدة «فلسطين» أن كتب تحت هذه الأبيات بتوقيع «أبو الخطاب» ردًا على أبيات إبراهيم طوقان المنسوبة إليه والتي كتبها «أبو سلمى».. وفي هذا التعليق الشعري يقول «حنا سويدا» أو «أبو الخطاب»:

يـــا بـــن طـــوقـــان أتســـأل

عـــن ظـــبـــاء نـــافـــرات

وخـــدود تـــتـــلـــظـــى

وشـــفـــاه مـــغـــريـــات

فصـــبـــايـــا «كـــفـــر كـــنـــة»

لـــعـــيـــانـــي بـــاديـــات

أيـــنـــمـــا كـــنـــا فـــهـــن

فـــي فـــؤادي عـــابـــثـــات

ولما تناولت الأيدي جريدة «فلسطين»، يوم الأحد، تندر الناس بما قيل على لسان «إبراهيم طوقان» وبرد «حنا سويدا» أو «أبو الخطاب» عليه، فبادر إبراهيم طوقان إلى دحض هذه الأكذوبة الشعرية المنسوبة إليه، بقصيدة نشرتها جريدة «فلسطين» «اليافاوية» في عددها الأسبوعي المصور تحت عنوان «ذكرى عشية زهراء» مرفوعة إلى الأستاذ «أبو الخطاب»، وهذه بعض أبيات قصيدة إبراهيم طوقان الضاحكة رغم ما فيها من شعور واضح بالأسى العاطفي:

احـــبس يـــراعك يـــا أبـــا الخطـــاب

قـــد حـــل بـــي مـــا لم يـــكـــن بـــحـــســـابـــي

تـــلـــك الـــقـــصـــيـــدة لم أقـــل أبـــيـــاتـــهـــا

لـــكـــنـــهـــا «لمزور».. نصـــاب

هـــذا «أبـــو ســـلـــمـــى» فـــلا والله مـــا

نـــكـــأ الجروح ســـواه مـــن أصـــحـــابـــي

هـــيـــهـــات أن يـــخـــفـــى عـــلـــيَّ وكـــلـــه

قـــلـــب بـــلا بـــاب ولا بـــواب

ثم يواصل إبراهيم القول في نفس القصيدة مشيرًا إلى قرية حبيبته «كفر كنة» فيقول:

هـــل «كـــفـــر كـــنـــة» مـــرجـــع لي ذكـــرهـــا

مـــا فـــاتـــنـــي مـــن عـــنـــفـــوان شـــبـــابـــي

أم من «صبايـاها» وفي «رمانهـا»

ما يبعث المدفون من آرابي

لو تنفع الذكرى.. ذكرت عشية

زهراء بين كواعب أتراب

فيهن آسرة القلوب بحسنها

ودلالها، وحديثها الخلاب

«روح» أخف من النسيم و«خاطر»

كالبرق مقرون بحسن جواب

غرٌّ ثناياها، وأشهد أنها

ممزوجة رشفاتها بشراب

إلى أن يقول:

بتنا على صفو وخوف تفرق

للعاشقين مهيئ الأسباب

ياليت من فجعت فؤادي بالمنى

لم تبق لي ذكرى تطيل عذابي

ولم تكن هناك فرصة تلوح إلا وكان أصدقاء إبراهيم طوقان ينكأون له ـ بالطرائف ـ جرحه العاطفي العميق، ومن ذلك ما قام به «فكتور بشارة» و«مصباح كنعان» من «الناصرة» بإرسال سلة مملوءة بالرمان ـ كهدية ـ إلى إبراهيم طوقان، وقرية حبيبته «كفر كنة» مشهورة بالرمان، وكان مع هذه الهدية ورقة مكتوب فيها «هدية رمان من كفر كنة»،

ولما فتح إبراهيم الهدية ورأى ما فيها، فهم المغزى العميق الذي كان إرسال الهدية من أجله، فكتب قصيدة يقول فيها:

قد فهمنا من الهدية معنى
غير معنى الرمان من «كفر كنا»
فأثارت ذكرى، وهاجت جراح
تركتني من الصبابات معنى
قرية يقرن اسمها باسم «إبراهيم»
مما تفيض حبًّا وحسنًا
ملعب للصبا، وقد كان يوحي
كل يوم، مما أفاض وأثنى

هذه بعض اللحظات الضاحكة الساخرة في حياة إبراهيم طوقان، أمير شعراء فلسطين، وكانت هذه الضحكات اللطيفة كلها في ثلاثينيات القرن العشرين، وكانت هذه الفترة مليئة بالأحزان الشخصية والعامة في فلسطين، ومع ذلك لم يفقد شعب فلسطين روح الضحك، فالضحك دليل على حيوية الشعوب، وقدرتها على البقاء والاستمرار والمقاومة، ولو لم يكن الفلسطينيون قادرين على الضحك والسخرية في عز الأزمات والمصائب لتعرض هذا الشعب المقاتل للفناء منذ زمن بعيد، ولكنه شعب حي، قادر على الضحك والسخرية، وهما علامتان من علامات القوة والصحة والقدرة على مغالبة المصائب والنكبات.

محمود درويش
الشاعر «العاري» أمام نفسه وأمام الناس

محمود درويش، شاعر كبير من شعراء هذا الجيل، وله أهمية استثنائية تضاف إلى مكانته الشعرية العالية، ومصدر ذلك أنه إلى جانب سميح القاسم وتوفيق زياد كانوا يمثلون ثلاثي الثورة الوجدانية الفلسطينية منذ 1967 إلى الآن، فمن يرد أن يعرف تاريخ الوجدان الفلسطيني في هذه الفترة فليقرأ هؤلاء الثلاثة، وربما استطعنا أن نضيف من الناحية التاريخية شاعرين آخرين هما: راشد حسين ومعين بسيسو. وعندما نجمع هذه الأسماء معا، فإن ذلك لايكفي لإلغاء الفوارق الفنية بينهم، فكل واحد منهم يعزف على أوتاره الخاصة، وكل واحد له صوته المستقل وأنغامه التي تتميز كل التميز عن غيره. فهم شعراء يقفون على أرض واحدة من حيث القضية التي يعبرون عنها، وهم من جيل واحد وإن اختلفت أعمارهم، فبينهم فوارق في تاريخ الميلاد، مما يجعل معين بسيسو وراشد حسين وتوفيق زياد أكبر في العمر من محمود درويش وسميح القاسم، وقد رحل الثلاثة الأوائل: معين وراشد وتوفيق، وكان رحيلهم «فلسطينيًا» بمعنى من المعاني، فالفلسطيني يعيش في خطر دائم إذا كان مواطنًا عاديًا، ولكنه إذا كان مفكرًا أو سياسيًا أو شاعرًا أو روائيًا فإنه يعيش في خطر دائم أيضًا، ولكنه خطر أكبر من كل خطر آخر. وقد انتهت حياة معين بسيسو في أحد الفنادق بلندن، حيث مات غريبًا ومنفيًا هناك، ومات راشد حسين في حادثة غامضة في أميركا، حيث قيل إن غرفته

اشتعلت فيها النيران بسبب سيجارة سقطت من يده ونام بعدها، ولم ينتبه إليها، وكان ذلك في فندق أيضًا، أي في منفى بعيد أما توفيق زياد ابن مدينة الناصرة فقد مات مع زوجته في حادثة سيارة، والله وحده أعلم بحقيقة هذه الحادثة.

فموت هؤلاء الشعراء الثلاثة يجمع بين معاني المنفى والغربة والنهاية المفجعة. وندعو الله أن يحمي محمود درويش(*) وسميح القاسم من كل شر وسوء، فهما الباقيان من «الفرقة السيمفونية» للشعر الفلسطيني. وهما العازفان الرئيسيان في هذه «الفرقة الموسيقية الكبرى»، ولهما حياتهما النبيلة وأشعارهما الجميلة وإخلاصهما للنوتة الموسيقية الأصيلة، وهي القضية الفلسطينية، ودعواتنا الدائمة المخلصة لهما، سوف يكون فيها بعض الحماية، وسوف يحفظهما الله كما يحفظ الورد والريحان وكل الزهور البهيجة التي تنبتها الأرض في سرور لا في غرور، فهما وردتان، ريحانتان، من فلسطين، تزدهران وتنشران العطر كلما جاء الربيع.

والحديث اليوم عن وردة واحدة من الوردتين، وهذه الوردة هي محمود درويش. لا يزال هذا الشاعر الكبير ينضج وينضج، حتى أصبحت له جذور عميقة في أرض الفن الشعري العظيم. ومن يقرأ ديوان محمود درويش الأول وهو «أوراق الزيتون» أو الثاني وهو «عاشق من فلسطين» ثم يقرأ آخر ديوان وصلت إليه يدي وهو «سرير الغريبة» سوف يجد أن القفزة الفنية والفكرية التي حققها محمود درويش في «عالمه الشعري» قفزة كبيرة جدًا، وهي تشبه الانتقال من الإبحار في سفينة شراعية تمشي الهوينى، أي بهدوء شديد، إلى الطيران في صاروخ. وصاروخ الفنون والأشعار ليس فيه أضرار وأخطار، بل فيه نور و«حور عين» أي حسناوات بالجسد والروح والجاذبية والشفافية معًا، لأن صاروخ الفن يغرد وينادي على الناس بالحق والعدل والجمال، وليس مثل صواريخ شارون وباراك ونتنياهو وغيرهم من جماعة الشيطان، فتلك الصواريخ للقتل والموت والإبادة والدمار، أما صاروخ محمود درويش فهو للفن والحب والحياة، وهو مطر كريم يهبط على الحزانى فيسعدهم، والأراضي «البور» فيقوم بإحياء القلوب، ويبعث من التراب نباتًا حسنًا ألوانه، وبهجة للناظرين.

(*) توفي محمود درويش في 2008/8/9 إثر عملية جراحية بشريان الأورطى في أمريكا.

والشعور بالنفي والاغتراب هو الشعور الأساسي الذي يملأ أجواء ديوان «سرير الغريبة» لمحمود درويش، وهو ـ فيما أعلم ـ آخر ديوان أصدره عن دار «رياض نجيب الريس» سنة 1999[*]. ولسنا بحاجة إلى جهد استثنائي لكي نكتشف الأسباب المعنوية والمادية التي جعلت من محمود درويش خاضعًا بعنف لهذا الشعور الحاد بالنفي والاغتراب، فمنذ أن نشأ محمود درويش وحتى قبل أن يبدأ رحلته الشعرية الأولى عرف معنى المنفى والاغتراب، وهذه الحالة ليست جديدة على قصائد محمود درويش، فهي حالة أساسية ودائمة، وأقصد بها حالة النفي والاغتراب، ولكن تعبير الشاعر يختلف من مرحلة إلى أخرى حسب ما حققه لنفسه من نضج شعري كبير، فالأداء الفني عند الشاعر هو الذي يتغير، أما الينابيع فواحدة، وعلى رأسها هذا الشعور المتأصل في نفسه بالنفي والاغتراب. ولابد أن نعود إلى «شيء من البداية» التي جعلت من الشاعر منفيًا ومغتربًا، منذ أن كان في السابعة من عمره، أي في سنة 1948، فهو من مواليد 13 مارس «آذار» سنة 1941 في قرية «البروة» بكسر الباء، وهي قرية تقع شرقي عكا على مسيرة 9 كيلو مترات منها. والحق أن «انتفاضة الأقصى» قد أعادتنا بقوتها وصدقها إلى أصول المسألة الفلسطينية، وجعلتنا نفكر مرة أخرى في السؤال الأساسي وهو: كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن؟ وقد وصلنا إلى ذلك بعد كامب ديفيد الأولى وكامب ديفيد الثانية وبينهما أوسلو، ووصلنا بعد هذا كله إلى اكتشاف بسيط وهو أن إسرائيل لا تزال كما هي، وأن الصهيونية التي كنا تصورنا أن نيرانها هدأت أو انطفأت لا تزال أيضًا كما هي طامعة عدوانية لا تريد سلامًا مع أحد، ولكنها تريد سيادة على الجميع، وسلطانًا لا يرد بالنسبة للفلسطينيين وسائر العرب. أي أن إسرائيل ما زالت كما كانت متمسكة بالأصول التي قامت عليها من التعصب والتوسع والإحساس «الأسطوري ـ الخرافي» بأنها المالكة الوحيدة لأرض فلسطين من البحر إلى النهر كما يقولون، أما نحن فقد حاولنا أن ننسى وأن نقنع أنفسنا بأن النسيان هو طريق السلام وطريق إنقاذنا من أن تمتد أيدي إسرائيل والصهيونية إلى

(*) كتب هذا الفصل والثلاثة فصول القادمة عن محمود درويش في نوفمبر عام 2000.

أكثر ما امتدت إليه حتى الآن، ولذلك فإننا منذ سنة 1977، أي تاريخ زيارة السادات للقدس، نحاول أن نعالج الواقع أمامنا، ونغلق كل الصفحات السابقة، وتحت سطوة الدعوة إلى السلام وثقافة السلام بدأنا نفرض على أنفسنا تجاهل كل ما حدث في الماضي القريب، وأن نكتفي بالسعي تحت رعاية سيدة العالم ـ أميركا ـ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وما يمكن إنقاذه بالنسبة لفلسطين هو غزة والضفة الغربية، وهو ما لا يزيد على 30٪ من أرض فلسطين، وقد تصورنا أن حجم ما تنازلنا عنه سوف يتيح لنا سلامًا هادئًا؛ لأننا بذلك نكون قد دفعنا 70٪ من أرض فلسطين ثمنًا لهذا السلام الموعود. وقد صبرنا أكثر من عشرين سنة بعد كامب ديفيد الأولى، وصبرنا سبع سنوات بعد اتفاقية أوسلو. وفي النهاية اكتشفنا أن إسرائيل لا تريد أن تكون هي إسرائيل في حدودها التي كانت قائمة في 4 يونيو «حزيران» 1967، بل هي تريد القدس الشرقية، وتريد أن تفرض المستوطنات اليهودية المسلحة على غزة والضفة وترفض عودة اللاجئين، ولا تعارض في قيام دولة فلسطينية، على أن تكون هذه الدولة «ذات بنطلون قصير»، أي دولة صغيرة هزيلة بلا جيش ولا اقتصاد، ولا شيء على الإطلاق، مما يجعلها دولة مثل باقي خلق الله، فالدولة الفلسطينية التي تريدها إسرائيل هي دولة تافهة عاجزة، تجلس على ركبتي إسرائيل، وتضربها إسرائيل على وجهها و«قفاها» كلما أرادت أو أحست أن هذه الدولة الصغيرة ذات «البنطلون القصير» تريد أن تتكلم وتعبر عن نفسها، أو تريد أن تكون مثل باقي الدول حرة في إدارة شئون نفسها دون استئذان إسرائيل أو غيرها.

وهنا يجب أن نعود إلى الأصول. لقد عادت إسرائيل إلى أصولها، أو أظهرت أنها لم تتخل عن هذه الأصول أبدًا، فلماذا نحاول نحن أن نسدل الستار على أصولنا، ونقول للماضي القريب: سامحك الله، والذي فات مات، ونحن لا نفكر إلا في الحاضر، أو في أي شيء آخر قد يتفضل الإسرائيليون والأميركان بمنحه لنا في المستقبل.

ها نحن أمام شاعر عربي فلسطيني كبير هو محمود درويش، يقدم لنا أحدث دواوينه وهو «سرير الغريبة»، فنجد فيه نغمة أساسية، محزنة ورائعة، هي نغمة المنفى والاغتراب.

فلماذا يشعر هذا الفنان الكبير، الذي سوف يصل بعد أربعة أشهر فقط إلى سن الستين(*).. لماذا لا يزال يشعر بأنه منفي وأنه مغترب، رغم ما حققه من نجاح واسع وشعبية كبيرة، مما يجعل له «وطنًا شعريًا يطمئن إليه، وشعبًا من عشاق الشعر الجميل ينتمي إليهم».

نعود إلى الأصول إذن لنتأكد أن ما كان منذ خمسين سنة أو أكثر لايزال باقيًا. فمحمود درويش المغترب، المنفي سنة 1999 أو سنة 2000 هو محمود درويش المنفي والمغترب سنة 1948 عندما كان عمره سبع سنوات. لم يتغير شيء كثير منذ ذلك التاريخ، غير أن الإنسان المنفي والمغترب في طفولته أصبح منفيًا ومغتربًا في كهولته، وبعد أن ابيضَّ شعر رأسه، وأجرى جراحة خطيرة في قلبه، وازدادت قصائده قوة وروعة ونضجًا وجمالاً.

نعود إلى الأصول لنقرأ ما قاله محمود درويش يومًا لصحيفة «عبرية» كان فيها «قليل» من التعاطف مع العرب، وهذا الحديث ترجمته مجلة الآداب البيروتية ونشرته في إبريل «نيسان» سنة 1970، وفي هذا الحديث ـ وهذه هي أهميته ـ إشارات قوية إلى أصول الشعور بالنفي والاغتراب عند محمود درويش، وهي أصول أردنا أن ننساها ونسدل عليها الستار، على أمل أن يساعدنا ذلك في الحصول على سلام.. لن نحصل عليه!

يقول محمود درويش في حديثه القديم، وهو يروي قصته المأساوية التي تصاحبه حتى الآن وتملأ قلبه بالأحزان:

«أذكر نفسي عندما كان عمري ست سنوات. كنت أقيم في قرية جميلة وهادئة كان عدد سكانها 1460 مواطنًا فلسطينيًا»، هذه القرية هي قرية «البروة» ـ بكسر الباء ـ وهي واقعة على هضبة خضراء ينبسط أمامها سهل عكا. وكنت ابنا لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة، عندما بلغت السابعة توقفت ألعاب الطفولة. وإني أذكر كيف حدث ذلك.. أذكر ذلك تمامًا: في إحدى ليالي الصيف التي اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل، أيقظتني أمي من نومي فجأة، فوجدت نفسي مع سكان

(*) كُتب هذا الفصل في نوفمبر 2000.

القرية أعدو في الغابة. كان الرصاص يتطاير فوق رءوسنا، ولم أفهم شيئًا مما يجري، بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربي الضائعين إلى قرية غريبة ذات أطفال آخرين، تساءلت بسذاجة: أين أنا؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة: لبنان. يخيل إليَّ أن تلك الليلة وضعت حدًّا لطفولتي بمنتهى العنف، فالطفولة الخالية من المتاعب انتهت. وأحسست فجأة أنني أنتمي إلى الكبار، توقفت مطالبي، ووجدت المتاعب مفروضة على طفولتي، منذ تلك الأيام التي عشت فيها بلبنان لم أنس، ولن أنسى إلى الأبد تعرفي على كلمة الوطن، فلأول مرة، وبدون استعداد سابق، كنت أقف في طابور طويل لأحصل على الغذاء الذي توزعه وكالة الغوث «وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين». كانت الوجبة الرئيسية هي «الجبنة الصفراء».

وهنا استمعت لأول مرة إلى كلمات جديدة فتحت أمامي نافذة على عالم جديد: الوطن، الحرب، الأخبار، اللاجئون، الجيش، الحدود، وبواسطة هذه الكلمات بدأت أدرس وأفهم وأتعرف على عالم جديد ووضع جديد.. حرمني من طفولتي». ويواصل محمود درويش ذكرياته فيقول في نفس الحديث:

«بعد أكثر من سنة، عشت خلالها حياة لاجئ، أبلغوني ذات ليلة أننا سنعود غدًا إلى البيت، أذكر جيدًا أنني لم أنم في تلك الليلة، لم أنم من شدة الفرح، فالعودة إلى البيت تعني ـ بالنسبة لي ـ نهاية الجبنة الصفراء. نهاية «تحرشات» الأطفال اللبنانيين الذين كانوا يشتمونني بكلمة لاجئ «المهينة». «.. خرجت إلى رحلة العودة. كان الظلام مخيمًا على كل شيء، وكنا ثلاثة: أنا، وعمي، والدليل الذي كان يعرف مجاهل الدروب في الجبال والوديان. إني أذكر الزحف على البطون لكي لا يرانا أحد. وبعد رحلة مضنية وجدت نفسي في إحدى القرى. ولكن ما أشد خيبة أملي: لقد وصلنا إلى قرية «دير الأسد» وهي ليست قريتي. لا بيتي هنا ولا رفاقي. سألت: متى نعود إلى قريتنا.. إلى منزلنا؟ ولم تكن الأجوبة مقنعة. ولم أفهم شيئًا. لم أفهم معنى أن تكون القرية مهدمة. لم أفهم معنى أن يكون عالمي الخاص قد انتهى إلى غير رجعة. ولم أفهم لماذا هدموا هذا العالم؟ ومن هم أولئك الذين هدموه!».

«ورويدًا رويدًا اعتدت على حياة الكبار، وقضايا الكبار، واتضح لي بمنتهى خيبة الأمل، أني لم أعد إلى منبع الأحلام، ولم أعد إلى رفاق الطفولة. كل ما هنالك أن اللاجئ قد استبدل بعنوانه عنوانًا جديدًا. كنت لاجئًا في لبنان، والآن أنا لاجئ في بلادي. والآن أتحدث، وأنا في الثامنة والعشرين من العمر «سنة 1969» فإنني قادر على تقييم تلك الفترة. إذا أجرينا مقارنة بين أن تكون لاجئًا في المنفى، وأن تكون لاجئًا في الوطن، فقد خبرت هذين النوعين من اللجوء، فإننا نجد أن اللجوء في الوطن أكثر وحشية. العذاب في المنفى والأشواق وانتظار يوم العودة الموعود شيء له ما يبرره.. شيء طبيعي.

ولكن أن تكون لاجئًا في وطنك، فلا مبرر لذلك، ولا منطق فيه. وعندما نتقدم قليلاً في السن نتخلص من الخضة ونشعر أن الوجود في الوطن أكثر تبريرًا عندما يتدخل عنصر التحدي وعامل الوعي والبحث عن حل. وقد عثرت على الحل عندما انتهى الصبا، وأدركت أن ثمة حاجة إلى الانتماء الفعال، الانتماء الملموس والسياسي. ومن الطبيعي أن السياسة تقضي على الحساسية المفرطة وعلى التمسك المتواصل ببقايا الذكريات، وبوسعي أن أقول الآن إن وضعي الراهن أسهل. ولكن المواجهة النفسانية الداخلية تثور في داخلي عندما أجلس لكتابة الشعر، عندما يجري الحوار بين إحساس الفنان وبين الوعي السياسي وأنا أعتقد أن الفنان يجب أن يكون عاريًا أمام نفسه».

ثم يقول محمود درويش في تفسير جذور إحساسه بالنفي والاغتراب:

«عندما عدت من لبنان إلى قرية «دير الأسد» كنت في الصف الثاني. كان مدير المدرسة إنسانًا طيبًا، وأنا أذكر عندما كان مفتش وزارة المعارف يزور المدرسة كيف كان المدير يستدعيني ويخبئني في غرفة ضيقة، فقد كانت السلطات تعتبرني متسللاً، وكان المعلمون يرغبون في الدفاع عني. لقد أضاف ذلك الحادث «حادث العودة من لبنان إلى فلسطين» كلمة أخرى إلى قاموسي الخاص.. قاموس الحياة، هذه الكلمة هي

كلمة «متسلل». وكلما كانت الشرطة تأتي إلى القرية و«هي شرطة إسرائيلية بالطبع»، كانوا يخبئونني في «خزانة دولاب» أو في إحدى الزوايا؛ لأنه من المحظور بالنسبة لي أن أعيش هنا.. في وطني.. لقد منعوني من الإدلاء بهذا الاعتراف: «كنت في لبنان»، وعلموني القول إنني كنت عند إحدى القبائل البدوية في الشمال. وهكذا فعلت لكي أحصل على بطاقة «هوية» إسرائيلية، ولكنني مازلت حتى اليوم ـ سنة 1969 ـ محرومًا من الجنسية في وطني».

هذه هي الجذور والأصول التي جعلت من الشاعر الكبير محمود درويش يشعر بأنه «منفي ومغترب». وقد خرج محمود درويش من الأرض المحتلة منذ سنة 1971، وعاش في القاهرة عدة سنوات، ثم انتقل إلى بيروت، ليخرج منها فيما أذكر سنة 1982، بعد غزو إسرائيل لبيروت، وانتقل بعدها ليعيش في تونس، ثم انتقل بعد ذلك كله ليعيش في باريس، حيث أظن أنه لايزال يقيم إلى الآن. فرحلة محمود درويش إذن، منذ كان في السابعة من عمره هي رحلة المنفى والاغتراب، ورغم أنه بفضل مكانته الشعرية والفنية والثقافية، استطاع أن يجد الترحيب والتكريم في كل مكان ذهب إليه، إلا أنه كان ولايزال دائم الشعور بأنه منفي ومغترب، وهذا الشعور هو المصدر المتوهج لقصائده الرائعة المتطورة من الناحية الفنية إلى أعلى المستويات، والباقية من الناحية الموضوعية في التزامها بنفس النبع القديم في وجدانه وحياته، وهو نبع الآلام والأحزان، بسبب الإحساس الدائم بالاغتراب والنفي. وهذا الإحساس بالنفي والاغتراب هو الذي يقبض بيد قوية على قصائد ديوان الدرويش الأخير «سرير الغريبة» فلا تكاد قصيدة من قصائده التسع والعشرين تخلو من كلمة «الاغتراب» أو كلمة «المنفى». وهذا إحساس لا فرار منه ولا خلاص.. فكل فلسطيني يحس تمامًا أنه مغترب ومنفي، سواء أكان هذا الفلسطيني مقيمًا داخل المجتمع الإسرائيلي، الذي يعامل العرب على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية أو الثالثة، أم كان مقيمًا في غزة والضفة الغربية، حيث يشعر أي مواطن فلسطيني بأنه حتى في هذا الجزء الأخير الباقي من فلسطين غريب ومنفي ولا توجد أية مظلة تحميه من يد إسرائيل الطويلة.

الشعور بالنفي والاغتراب قديم وأصيل عند محمود درويش، وهو يمتد إلى سنة 1948، ويظل مصاحبًا له إلى الآن. وهذا الشعور هو الذي يملأ ديوانه الأخير «سرير الغريبة» بالصور والألفاظ والعبارات والأنغام التي تعبر جميعًا عن نفس الجرح، وهو جرح النفي والاغتراب، على أن محمود درويش في ديوان «سرير الغريبة» قد ارتقى من طفولته الشعرية التي كانت تعبر عن مشاعرها بأسلوب مباشر أو شبه مباشر، وإن كان لايخلو من جمال الصدق والبساطة والنزعة الغنائية القوية إلى أسلوب آخر هو ما يمكن أن نسميه باسم «الشعر السيمفوني» أي الشعر الذي تتداخل فيه الأنغام والألحان، ويتم توزيعها توزيعًا موسيقيًا ومتناسقًا، ليؤدي رسالة تتجاوز المعنى «الوطني» للنفي والغربة إلى المعنى الإنساني لهذه التجربة القاسية الكبيرة، وفي ديوان «سرير الغريبة» تعمقت ثقافة الشاعر، واتسعت تجاربه، وتفتحت مواهبه، فأصبح المطرب الصغير الحزين صوتًا عالميًا للحزن الإنساني الذي يهز القلوب، والذي يرتفع من أوتار اليأس والبكاء إلى أوتار الكشف والقوة والتحدي واليقين بأن المنفى والاغتراب مصيرهما إلى الاستقرار فوق أرض صلبة قوية، قد تكون هي أرض الاستشهاد، أو تكون أرض الغضب، أو تكون أرض الذي يقول للعالم لابد أن أحصل على حريتي.. وإلا فإن الدنيا كلها سوف تدفع ثمن حرماني من حقوقي الإنسانية. فديوان «سرير الغريبة» هو «انتفاضة شعرية» كاملة هي فرع من انتفاضة الأقصى، وربما كانت «الانتفاضة الشعرية» سابقة على «الانتفاضة الواقعية» ومبشرة بها وممهدة لها، ومؤكدة أنها لابد أن تشتعل.. وليس المهم بعد اشتعالها أن نمسك ورقًا وقلمًا ونحسب حسابات المكسب والخسارة، فعندما ينفعل القلب الإنساني، ويثور الدم، ويرتفع الغناء إلى السماء، ويبدو الإنسان رخيصًا والتراب غاليًا، وتزغرد الأمهات عند قتل أطفالهن من أجل وطنهن، فهنا يكون مهرجان الحياة، وروعة الفن أقوى من كل شيء في الواقع العادي؛ لأن الدبابة التي تقتل طفلاً مثل «محمد الدرة» هي دبابة من صفيح لا قيمة له، حتى لو كانت هذه الدبابة مصفحة بإمكانات ذرية، ومسنودة بالكونجرس الأميركي، وكل ما في الدنيا من قوة ونفوذ.

الإحساس العميق بالاغتراب والنفي أقوى من كل قوة في هذه الدنيا، وإن كان هذا الإحساس لا يملك أية وسائل للدفاع عن نفسه غير الصدق، ورفض الحياة الواقعية التي لا تقدم للإنسان غير الحزن والانكسار، وضيق الرزق والدار، واليأس من أية دعاية ممكنة فوق هذه الأرض التي يرفرف عليها الآن علم الأميركان في كل مكان، وهو علم معروف ومشهور بأنه يحمي الظالمين، ويوقع بالمظلومين ظلمًا أشد مما هم فيه غارقون.

محمود درويش في ديوانه «سرير الغريبة» يرتفع بفنه وغنائه إلى مستوى جميل ومؤثر، وهو يرتقي بذلك الإحساس القديم العميق فيه بالنفي والاغتراب إلى مستويات إنسانية عالية، وفي هذا الارتقاء يلتقي بخيوط سحرية تربطه بوطنه الأكبر وهو وطن لايمكن وضعه على خريطة جغرافية؛ لأن خريطته في القلب، فهو وطن يتكون من «تمزقات» متناثرة، ولكنها ذات بريق.. إنه وطن من العشاق مثل «جميل بثينة» و«مجنون ليلى»، ووطن من الفقهاء والعظماء مثل «ابن حزم» الأندلسي صاحب أول كتاب عالمي في الحب الراقي العفيف، وهو كتاب «طوق الحمامة». ومن هذه الخيوط المبعثرة العجيبة ينسج محمود درويش في ديوانه «سرير الغريبة» وطنًا يستقر فيه، ويهفو دائمًا إليه.. فهل هذا وطن حقيقي يمكنه أن ينفي «النفي» و«الاغتراب» أو أنه في حقيقة أمره وطن كان «صرحًا من خيال فهوى؟!».

لا.. ليس الوطن الذي يبنيه محمود درويش في ديوان «سرير الغريبة» هو «صرح من خيال»، بل هو وطن من خيوط قوية يمكننا أن نمسك بها، ويومها لن يستطيع أحد أن يقول لنا أنتم منفيون إلى الأبد أو غرباء إلى الأبد. فمن يستطيع أن يلغي من خريطة الدنيا وطنًا فيه عاشق مثل جميل بثينة، أو مجنونًا في حبه مثل «قيس بن الملوح» أو فقيهًا رائعًا مثل «ابن حزم» رأى أن الدنيا بغير حب لا تساوي «بصلة» فكتب كتابه المشرق الجميل «طوق الحمامة».. ومن هذه الخيوط الرائعة نسج «محمود درويش» وطنه الإنساني البديع غير القابل للاحتلال من أحد.

لماذا ينام محمود درويش في سرير الغريبة؟

إن أهم ما يلفت الأنظار والقلوب في ديوان «سرير الغريبة» لمحمود درويش هو هذا التطور الكبير، والقفزة الفنية العالية في فن محمود درويش. فقد أصبح العاشق الفلسطيني كبيرًا جدًّا، وناضجًا إلى أبعد الحدود، وألقى وراء ظهره بأساليب «أول العشق»، وهي أساليب كلها فيها أقوال مباشرة صريحة، وفيها ألوان صارخة، وأنغام عالية مثل الأصوات الصادرة من الآلات الموسيقية النحاسية. بينما أصبحت قصائده الآن موسيقى سيمفونية تعتمد على الآلات الوترية وكل الآلات التي يخرج منها فيض من الموسيقى المتكاملة العالية التي نسميها باسم «السيمفونية».

على أن هذا لا يعني أن أشعار «العاشق الفلسطيني» لم تكن جميلة ومؤثرة ومتميزة، رغم كل ما فيها من أصوات عالية صريحة، فقد كانت هذه الأشعار جميلة بما فيها من موهبة متدفقة، وما فيها من براءة، وما فيها من حديث عن تجارب الحياة الأولى في شيء من «السذاجة». وللسذاجة في الفن مذاق مدهش، مثل «مذاق» الحديث مع طفل جميل موهوب. كذلك فإن ملامح محمود درويش الجديدة بعد النضج والاكتمال في ديوانه البديع «سرير الغريبة» لا تستطيع أن تخفي الملامح الأصيلة لهذا الشاعر الكبير، فشاعر «عاشق من فلسطين» هو شاعر «سرير الغريبة».. ولكن بعد أن أصبح كبيرًا وناضجًا وعاقلاً ومثقفًا ومسيطرًا على نفسه وفنه، وبعد أن ازدادت ثقافته عمقًا، وأضافت إليه رحلاته إلى أنحاء الدنيا كثيرًا من خطوط الأيام المرسومة على جبهته من كثرة التجارب وعنفها.. فأصبح شاعرًا وصاحب حكمة.

فماذا في سرير الغريبة؟

بل ماذا يعني «سرير الغريبة» أصلاً، وليس في الديوان كله قصيدة بهذا الاسم الجميل؟إنني لا أسعى هنا إلى التفسير، فأشعار محمود درويش الجديدة لا ينفع معها أي تفسير، ولكنها أشعار تدخل بقارئها في حالة من حالات التصوف الرفيع، وهو تصوف لا يختفي فيه العقل تحت تأثير ضباب البخور ورائحته المنعشة العطرة التي تسربها قصائد محمود درويش في الأجواء الشعرية لديوانه. ولكن الذي يحدث ونحن نقرأ قصائد الديوان أننا ندخل في حالة من الوجد والنشوة، وهي حالة أعلى من حالة الوعي المجرد والتفكير المباشر، وإن كانت لا تلغي أبدًا الوعي والتفكير.

فكل تفسير إذن لقصائد محمود درويش يجب أن يكون متنبهًا لهذا المعنى، فنحن في هذا الديوان أمام حالة صوفية متوهجة، فيها إشارات وتنبيهات، وليس فيها معادلات وتفسيرات أو شروح وهوامش.

فإذا سألنا عن معنى «سرير الغريبة» فنحن نسأل عن الإشارات التي ترسلها إلينا هذه الصورة، ولا نسأل عن المعاني والأفكار المجردة.

«سرير الغريبة» يشير إلى صورة قديمة بديعة في الشعر العربي الجاهلي، هي «مرآة الغريبة». وهذه الصورة الجاهلية تشير إلى معان عديدة، فالغريبة لا تكون قريبة من أمها أو أختها أو صديقتها الحميمة والحبيبة، فهي لو كانت قريبة منهن لاطمأنت على جمالها ومظهرها، لأن الأم سوف تقول لها الحقيقة، وإن لم تكن الأم موجودة فسوف تسمع هذه الحقيقة بتمام صدقها وأمانتها من أختها أو صديقتها الحميمة. ولكن «الغريبة» ليس لها أهل يقولون لها: هذا الثوب لا يناسبك وتسريحة الشعر هذه لا تليق بك، وغير ذلك من أشياء الجمال التي هي عند كل جميلة مصدر الثقة بالنفس. وفي الغربة لا يكون هناك صديق صدوق يقول الحقيقة بأمانة للمرأة الغريبة عن أهلها وعن أمها وأختها وصديقتها، سوى «المرآة» فهي تنظر في «المرآة» لتعرف الحقيقة التي تنطق بها هذه المرآة وتصلح من شأن نفسها، حتى لا تكون نهبًا لعيون الغرباء. و«مرآة الغريبة» إذن

هي الصديقة الحبيبة الناطقة الوحيدة بالحق والحقيقة. ولذلك فالغريبة في الشعر الجاهلي تتمسك بمرآتها وتعتبرها جزءًا من نفسها، وتنظر إليها على أنها «الأمينة» عليها، والبديلة النبيلة للأهل والخلان.

من «مرآة الغريبة» إلى «سرير الغريبة» عند محمود درويش رحلة واحدة لا تختلف كثيرًا في روعتها وإيجازها وسحرها من أولها إلى آخرها.

«سرير الغريبة» هو المهاد الوحيد الذي يضم أسرار الغريبة، ويتحدث معها ويحنو عليها، ويستقبل دموعها ويشعر بنبضات قلبها وأفراحها وأحزانها وكل ما في نفسها من هموم وأشجان، وحياة «الغريبة» كلها هموم وأشجان وشعور قاس بالوحدة والانفصال عن الناس والحياة.

ولكن لماذا قال درويش «سرير الغريبة» ولم يقل «سرير الغريب» وهو نفسه غريب من أجمل وأنبل الغرباء في هذا العالم القاسي، وهذه الدنيا الظالمة؟

ربما لو سألنا محمود درويش نفسه هذا السؤال لوجد نفسه حائرًا أمام الجواب. ولكننا بفيض الحالة الصوفية العالية في قصائد محمود درويش التي يضمها هذا الديوان، سوف نجد الإشارة الصحيحة التي تهدينا إلى الطريق!

الغريبة في هذه الدنيا أكثر غربة من أي غريب.

لو أن الذي يعاني الغربة كان رجلاً، لأصبحت غربته أخف ولو بدرجة أو درجتين، من غربة المرأة الغريبة.

فالمرأة في التاريخ الإنساني كله، ورغم جميع التطورات والثورات وما حققته المجتمعات من نهضات نسائية، لا تزال تشعر بشيء من «الاغتراب» في هذه الدنيا حتى لو كانت بين أقرب أهلها إلى قلبها وأعزهم على نفسها، فللمرأة أسرار خاصة، وللمرأة قيود داخلية في روحها تمنعها من البوح الصريح الكامل بما تشعر، وتكتفي بالإشارات والتلميحات أملاً في أن يفهم الأذكياء القادرون ـ وحدهم ـ على قراءة الإشارات والتلميحات.

فالمرأة لديها شعور أصلي بالاغتراب قبل أن تغترب. فما بالك بهذا الشعور عندما تغترب المرأة؟ إن الاغتراب هنا يتضاعف ويشتد، فالغريبة بعض الشيء في أهلها يتضاعف إحساسها بالغربة مائة مرة.. عندما تغترب اغترابًا حقيقيًا.

ثم هناك إشارة صوفية أخرى في «سرير الغريبة» التي تعتبر سريرها مستودعًا لأسرارها، دموعًا كانت أو ابتسامات.

هذه الإشارة الصوفية ترفع أصابعها إلى أرض فلسطين.. والأرض غريبة، وليست غريبًا، لأن غربة الأرض أشبه في عمقها وقوة أسرها بغربة المرأة، وهي أبعد بمسافة عن غربة الرجال.

فكأن محمود درويش في ديوانه الصوفي «سرير الغريبة» يعطينا الإشارات بعد الإشارات على أن الاغتراب هنا شامل وعميق، فهو يحيط بالشعر وأهل الشاعر، ويحيط بأرض الشاعر التي هي غريبة الغرباء، أو هي التي تعيش الآن ومنذ زمان في «عصير» كل الاغتراب الذي عرفه الإنسان منذ أن قال أرسطو الفيلسوف قبل ألفي سنة: «لا يجوز إطلاقًا أن نصف الناس بأنهم سعداء ماداموا أحياء».

الاغتراب.. الاغتراب.. الاغتراب.

ذلك هو الوتر االساحر الصادق الذي يعزف عليه محمود درويش في ديوانه الصوفي البديع «سرير الغريبة».

فهو اغتراب للشاعر.

وهو اغتراب لأهل الشاعر.

وهو اغتراب لأعز الغريبات على قلوب الغرباء.. أي أرض فلسطين التي لم تعد ترتوي بالماء مثل بقية أرض الله، بل بالدماء.

وهذا هو مفتاح «النوتة الموسيقية» في «الحلقة الصوفية» التي تمثلها قصائد ديوان «سرير الغريبة».

فالغربة هي نغمة الافتتاح في الصباح، وهي نغمة الظهيرة، وهي نغمة المساء. وهي غربة غير خاملة، بل غربة فعالة أصيلة قلقة نشيطة، مما يدل على أنها غربة تقاوم وترفض الاستمرار في الاغتراب. فهي موجة عاتية لابد أن تستقر على شاطئ للأمان، في أي يوم مجهول من أيام الزمان، وإلا ظلت هذه الموجة عاتية، تحركها الرياح بل تحركها العواصف.. ولولا ذلك لأصبحت هذه الموجة قطرات ذائبة في بحرها، لا يحس بها أحد، ولا يتعاطف معها أو يخشاها إنسان. نستطيع أن نجد العزف الجميل المنبعث من «وتر» الاغتراب الجارح في ديوان «سرير الغريبة» في أية قصيدة من قصائده أو أية معزوفة من معزوفاته الصوفية التي يعتصر فيها الشاعر قلبه ويطير به في فضاء مجهول، واثقًا ـ بقوة الصوفي ـ أنه سوف يجد في هذا المجهول نصيبًا معلومًا ضائعًا له، وسوف يعثر عليه.

يقول الصوفي الشاعر الدرويش في أول قصائد الديوان وعنوانها «كان ينقصنا حاضر».

وعما قليل يكون لنا حاضر آخر

إن نظرت وراءك لن تبصري

غير منفى وراءك

غرفة نوم،

صفصافة الساحة،

النهر خلف مباني الزجاج

ومقهى مواعيدنا.. كلها، كلها

تستعد لتصبح منفى، إذن

فلنكن طيبين!

ذلك مقطع من النشيد أو النشيج، الذي ينشده أو «ينشجه» الغرباء وفي هذا المقطع خريطة وجدانية قاسية لأرض الاغتراب. فالغريبان في هذا المقطع يبحثان عن حاضر جديد. لماذا؟ لأن الحاضر الذي كان لهما قد اختفى من خرائط الزمان، وأصبحا بلا حاضر، وكيف يكون هناك حاضر لأرض تئن تحت وطأة دبابات وافدة من مخازن السلاح في أميركا؟ وكيف يكون هناك حاضر لبلاد يعيش أبناؤها في الشوارع والطرقات، بينما بيوتهم يسكنها اللصوص؟ فإن ضاق اللصوص بها فإنهم يهدمونها على رءوس من فيها من بشر وطيور وأشجار!

لا حاضر لهؤلاء الغرباء

فليبحثوا عن حاضر آخر بديل عن حاضرهم

المحترق بلهيب نيران الجحيم

والحاضر الجديد هو الاغتراب

والاغتراب له «ديكور أو مثل «الديكور» الذي يبنيه السينمائيون وهم ينتجون أفلامهم، ثم يهدمونه بعد انتهاء الأفلام، فهو «ديكور» مؤقت.

والاغتراب أيضًا هو ديكور مؤقت، أو حاضر مؤقت.. لأنه ينتظر لحظة الهدم عند انتهاء «الفيلم».

والديكور الاغترابي هنا هو: «غرفة النوم» و«صفصافة الساحة» و«مقهى مواعيدنا»، وهذه كلها، كلها «تستعد لتصبح منفى».. فلنكن «طيبين» صبورين على عذاب المنفى، وعلى حاضرنا المؤقت، والذي لايدري الغريبان متى يتبدل من «مؤقت» إلى «دائم».

وفي الاغتراب تكون المشاعر الرومانسية «حماقة» ونوعًا من الافتعال المصطنع، لأن الرومانسية هي ستارة شفافة جميلة نسدلها على واقع وحاضر ووجود قائم مستقر. فأين الواقع والحاضر والوجود المستقر؟ لا شيء من ذلك. ومن هنا فإن الرومانسية «تمتنع»

وفي قصيدة صوفية أخرى، أو نفثة روحية عنوانها «سوناتا رقم 5» يقول الشاعر المتصوف الباحث عن حاضر آخر، بدلاً من حاضره الضائع المفقود:

يغلفك النوم بي

لا ملائكة يحملون السرير

ولا شبح يوقظ الياسمينة

يا اسمي المؤنث

نامي

فلا ناي يبكي على فرس هارب من خيامي،

كما تحلمين تكونين،

ياصيف أرض شمالية

تجدر غاباته الألف

في سطوة النوم

نامي

ولا توقظي جسدًا يشتهي جدًّا في منامي

ليس هنا «رومانسيات» ولا «خرافات» ولا «ملائكة يحملون السرير« ولا «شبح يوقظ الياسمينة». هنا واقع «اغترابي» وحقائق «اغترابية» ورؤية صوفية عالية جدًّا شعارها: «كما تحلمين تكونين».

والعزف على وتر الاغتراب الصوفي هو اللحن الأساسي في ديوان «سرير الغريبة» فعندما يغيب المنطق والقانون، وتنهار العدالة والضمير، ويسود الجنون والاستهتار واللعب بالأرواح وكأنها أوراق «الكوتشينة» في مقامرة أو مغامرة تقفز فوق كل الحواجز.. عند ذلك يكون التصوف هو «جدار الصواريخ» الذي يؤكد للإنسان أن هناك

حقيقة أعلى من كل الحقائق، وإن كانت هذه الحقيقة العليا لا تزال طائرة في الفضاء دون أن تجد غصنًا تستقر عليه.

هذه هي الحقيقة العليا الصوفية في ديوان «سرير الغريبة» وهي تقول لنا إنها أسمى وأعلى من كل «أوسلو» وكل «كامب ديفيد» لأنها أبقى، ولا يستطيع أحد أن يعبث بها، وهل يستطيع أحد أن ينال من نشوة الصوفي ويقينه بأنه على حق؟

لو لم يكن شاعرًا لأصابه الجنون!

الإحساس العميق بالنفي والاغتراب هو النغمة الأساسية في ديوان محمود درويش «سرير الغريبة» وهذه النغمة صادقة جدًا، ومحمود درويش يعزفها بصورة قوية مؤثرة وكأنه صاحب «جرح» ينزف بدمائه الغزيرة دون أن يتوقف. وهذه النغمة المستمدة من النفي والاغتراب تعتمد على تجربة إنسانية حية عاشها محمود درويش منذ سنة 1971 إلى الآن، أي منذ كان في الثلاثين من عمره. في كل هذه الفترة الطويلة التي تمتد إلى حوالي ثلاثين سنة في رحلة الحياة، فإن الشاعر كان ينتقل من بلد إلى بلد، وكان يشعر في جميع تنقلاته أنه منفي؛ لأن من لا يعيش في بلده الأصلي لا يمكن إلا أن يكون تحت وطأة هذا الشعور بالنفي والاغتراب، خاصة أن الشاعر ليس مسافرًا عاديًا باختياره، وليس قادرًا على أن يعود إلى بلده وأهله عندما يريد ذلك، فالإقامة في «لا وطن»، أي في النفي والاغتراب، هي الإقامة المتاحة له، ومهما كانت أرض المنفى والغربة جميلة وطيبة، فالغريب «غريب أينما كان». على أن الإحساس بالغربة والنفي لم يكن مرتبطًا عند محمود درويش بخروجه من بلاده سنة 1971 فقط، فحتى عندما كان مقيمًا في بلاده التي أصبح اسمها «إسرائيل»، كانت تجاربه اليومية الواقعية تؤكد له هذا الشعور بالنفي والغربة، فقد عاش لاجئًا في لبنان لفترة قصيرة سنة 1948، ثم عاد ليجد قريته «البروة» ـ بكسر الباء ـ قد تم محوها من الوجود وأقيمت مكانها مستوطنة يهودية اسمها «أحيهود» وقرية زراعية تعاونية «كيبوتز» اسمها «يسعور»، وفي أحد الأحاديث الصحفية التي أدلى بها محمود درويش لصحيفة

عبرية قبل خروجه من إسرائيل يعطينا الشاعر بعض المؤشرات القوية على شعوره العميق بالاغتراب حتى في فترة إقامته داخل إسرائيل، ومما جاء في هذا الحديث قول الشاعر: «قبل عدة أسابيع عقدنا ـ نحن محرري الصحف العربية ـ مؤتمرًا صحفيًا في حيفا تصرف بعض الصحفيين «الإسرائيليين» بدون «لياقة».. هذا إذا استخدمت الكلمة اللينة، وتصرفوا بدون فهم لمشاعرنا وقضايانا. وفي مجرى الحديث قلت لأحد الصحفيين إن صحيفة «عل همشمار» الإسرائيلية نشرت في ذلك الصباح خبرًا بارزًا عن الاحتفالات بمرور عشرين سنة على إنشاء مستوطنة زراعية «كيبوتز» اسمها «يسعور»، جاء في الخبر أن الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل. وقلت للصحفي الإسرائيلي: يؤسفني أن أصارحك بالحقيقة.. أنا أفهم فرحك.. ولكني عاجز عن مشاركتك فيه. لماذا؟ «لأن هذا الفرح قائم على أطلالي. فإن «كيبوتز» «يسعور» ومستوطنة «أحيهود» مبنيتان على أنقاض قريتي «البروة».. أي على أنقاض حارتي وبيتي. ذلك ينتمي إلى الماضي، ولكنه محفور في أعماقي». ثم يقول محمود درويش في نفس الحديث: «عندما عدت من لبنان حذرني أهلي من «خطورة» رغبتي في زيارة المكان الذي ولدت فيه وقضيت طفولتي، فإذا ألقي القبض عليَّ هناك فسوف أطرد إلى لبنان، وهكذا لم أقم بزيارة المكان الذي كانت فيه قريتي إلا في العام 1963. كانت زيارة سرية؛ لأن دخول تلك المنطقة ـ بالنسبة لي كعربي ـ ممنوع. ولم أجد من كل القرية إلا مبنى الكنيسة الذي قام اليهود بتحويله إلى حظيرة للمواشي. إن ما رأيته في ذلك المكان يفسر لك لماذا كانت هذه الزيارة هي زيارتي الأولى والأخيرة. فتشت عن مرتع طفولتي فلم أجد إلا الأشواك.. لا منزل ولا شيء إلا الشوك. لن أعود إلى ذلك المكان مرة أخرى.

وهكذا نجد أن جذور الإحساس بالنفي والاغتراب قديمة وعميقة في نفس محمود درويش، فالخروج من بلاده سنة 1971 ليس هو بداية هذا الإحساس، بل البداية كانت الخروج من قريته «البروة» سنة 1948، وهو في السابعة من عمره، وعندما عاد إلى هذه القرية بعد ذلك لم يجدها، بل وجد مكانها مستوطنة يهودية، ووجد أن الكنيسة التي

كانت فيها أصبحت حظيرة للماشية، وأنه لا يستطيع أن يدخل هذا المكان ـ الذي كان فيه بيته وكان يعيش فيه مع أهله وزملاء طفولته ـ إلا سرًّا، لأنه ممنوع من الدخول، وهذا كله يحمل نوعًا مما يمكن أن نسميه باسم «اليتم الوطني»، ويتيم الوطن معذب ومهموم مثل يتيم الأم والأب، بل ربما كان «اليتم الوطني» أكثر عنفًا وأشد قسوة، فالأيام تعالج ـ ولو في بطء ـ جراح الأيتام بالأم والأب، ولكن جراح اليتيم بالوطن ليس لها علاج ميسور أو معروف. وهذا هو «جرح» محمود درويش الأساسي، مما يعيد إلى ذاكرتنا الأدبية نظرية الناقد الأميركي الكبير «إدموند ويلسون»، وهي النظرية المعروفة باسم «الجرح والسكين». وعن طريق هذه النظرية الأدبية والنفسية معًا يفسر «ويلسون» حياة الفنانين الكبار، ويفسر أسرار الأعمال الفنية الكبيرة، فكل فنان لديه «جرح» خاص به، وهذا الجرح هو مصدر إبداعه الفني، أما «السكين» فهي الأداة التي تسببت في وجود «الجرح»، وقد تكون هذه الأداة أحداثًا عامة أو أحداثًا شخصية، والمهم أن هذه «السكين» «تنغرس» في أعماق الفنان وتحدث فيه جرحًا عميقًا، وهذا الجرح هو الذي ينزف، والنزيف هو الفن. ونظرية «الجرح والسكين» عند الناقد الأميركي نظرية عميقة، وما نشير إليه هنا هو تبسيط شديد لهذه النظرية، ومع ذلك فنحن نجد في حدود هذا التبسيط ما يفيدنا في تفسير الشعور الدائم بالنفي والاغتراب عند محمود درويش، فهناك سكين انغرست في أعماق محمود درويش منذ طفولته المبكرة عندما كان في السابعة من عمره، وهذه السكين هي خروجه مع أهله في جو من الرعب والخوف سنة 1948 من قريته «البروة» في هجرة قصيرة إلى لبنان، ثم عودته إلى بلاده، حيث وجد أن قريته قد اختفت وبيته لم يعد له وجود، وحيث عاش من 1948 حتى 1971 وجرح «الاغتراب» و«الإحساس بالنفي» لا يندمل، بل يزداد اتساعًا يومًا بعد يوم، ثم جاءت الهجرة الطويلة للشاعر منذ 1971 إلى الآن، حيث ينتقل من منفى إلى منفى، مما جعل الجرح مستمرًا في النزيف دون توقف. «الجرح» في شعر محمود درويش هو جرح المنفى والاغتراب، وهو جرح «اليتيم» بفقدان الوطن، وربما جاءت أجيال قادمة يمكنها أن ترث هذا الجرح نفسه، ولكن جرحها لن يكون أبدًا

بعمق الجرح القائم في قلب الذي شاهد تفاصيل المأساة بعينيه، وعاشر أحداثها اليومية لفترة تكاد تصل إلى ربع قرن متصل، ثم عاناها بعد ذلك عندما خرج من بلده ليتنقل بين بلاد الله المختلفة.

لقد أصبح الشعور بالنفي والاغتراب عند محمود درويش شعورًا مألوفًا جدًّا لديه، حتى أصبح يتساءل في ديوانه الأخير «سرير الغريبة» سؤالاً مدهشًا غريبًا يقول فيه: من أنا دون منفى؟ وكأن الشاعر يحس أنه أصبح هو والمنفى وجهين لشيء واحد، وهما وجهان لايفترقان، وكأن الحياة يمكن أن تفقد معناها تمامًا لو أنه «غادر» منفاه وانفصل عنه، وهذا معنى روحي كبير عبر عنه المتنبي في بيته الشهير عندما قال:

خلقت ألوفًا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وفي محمود درويش بالمناسبة بعض الملامح من شخصية المتنبي، فالمتنبي كان شخصية شديدة القلق وهو القائل في صورة فنية رائعة يصف نفسه:

على قلق كأن الريح تحتي

ومحمود درويش من أكبر الشخصيات «القلقة» في الشعر العربي المعاصر، وإذا كان القلق هو «العنصر المشترك» بين معظم الفنانين المبدعين، إلا أن القلق نفسه له درجات وألوان، وقلق محمود درويش هو «أعلى درجات القلق»، أما نوع هذا القلق فهو القلق العاصف الذي «يهز» ولا «يدمر».

وفي محمود درويش من المتنبي أيضًا عنصر مشترك آخر هو الإحساس بفقدان الوطن. فقد كان المتنبي ملهوفًا في بحثه عن وطن يرضاه وتستقر فيه روحه، وكان أحيانًا يري أن وطنه هو «ناقته» أو «حصانه» أو «سيفه» الذي يحمله معه؛ لأنه كان يعيش دائمًا في إحساس غامر وصادق بأن له أعداءً في كل مكان، هم أعداء إحساسه بكرامته ورفضه لأن يكون منخفض الرأس ذليل الجناح، أو كما كان يقول الأديب العربي

الكبير مصطفى صادق الرافعي: إن المتنبي كان يشعر مثلما يشعر الملك الذي تعرض لاغتصاب أعدائه لعرشه، فهو يطالب بعرشه الضائع المغتصب. ولذلك فقد كان المتنبي ينتقل من بلد إلى بلد دون أن يشعر بالراحة والأمان، فقد كان طيلة حياته يطالب بعرشه المغتصب دون أن يحصل عليه، حتى انتهت به الحياة مقتولاً في حادثة غامضة لم يستطع أحد أن يكشف أسرارها الدقيقة منذ ألف عام إلى الآن.

محمود درويش لديه أيضًا شعور بأن «عرشًا له» قد تم اغتصابه، ولكن «عرش» محمود واضح أشد الوضوح، لأنه يعني وطنه فلسطين، ومحمود لم يكن «ملكًا» لهذا الوطن، ولم يكن طالبًا للملك فيه، ولكنه يعبر بإحساسه الشعري الأصيل عن الوطن الآمن المستقر، والذي يكون فيه كل مواطنيه ـ مهما كانوا بسطاء ـ هم ملوك في هذا الوطن الذي لهم فيه بيت وأهل وأطفال لايعتدي عليهم الغرباء. محمود درويش أصبح يألف المنفى حتى صار هذا المنفى جزءًا من وجدانه وحياته وحتى أصبحت الحياة تبدو له وكأنه لا يستطيع أن يعيش دون هذا «المنفى» الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياته وأصبح «وطنًا بديلاً» له؛ لأنه يعيش في هذا المنفى منذ أن كان في السابعة، وحتي أصبح الآن يدق باب عامه الستين. يقول محمود درويش في قصيدته «من أنا، دون منفى؟» وهي إحدى روائع ديوانه «سرير الغريبة»:

لا شيء يحْملني أو يحمّلني فكرة

لا الحنين.. ولا الوعد

ماذا سأفعل؟

ماذا سأفعل من دون منفى، وليل طويل

يحدق في الماء؟

يربطني

باسمك

الماء..

لا شيء يأخذني من فراشات حلمي

إلى واقعي لا التراب ولا النار

ماذا سأفعل في ساحة

تصقل المنشدين بأحجارها القمرية؟

صرنا خفيفين مثل منازلنا

في الرياح البعيدة

صرنا صديقين للكائنات

الغريبة بين الغيوم..

وصرنا طليقين من

جاذبية أرض الهُوِيَّة

ماذا سنفعل

ماذا سنفعل من دون منفى

وليل طويل

يحدق في الماء؟

والقصيدة تدور كلها في هذه الأجواء الحادة من الاغتراب والارتباط بالمنفى إلى حد العشق له من طول تجربته والعيش معه وفيه.

وفي قصيدة أخرى من نفس الديوان «سرير الغريبة» ينزف نفس الجرح.. جرح المنفى، وهذه القصيدة الطويلة الرائعة أيضًا هي قصيدة: «ربما، لأن الشتاء تأخر»، وفي أحد مقاطعها نقرأ:

شمالية هذه الريح

فليكتب العاطفيون، أهل الكلام الجريح

رسائل أخرى إلى ما وراء الطبيعة

أما أنا

فأرمي بنفسي إلى الريح..

والبيت الأخير بالتحديد من هذا المقطع يذكرنا بقول المتنبي الذي أشرت إليه منذ قليل وهو:

عـلـى قـلـق كـأن الـريـح تـحـتـي

وفي هذه القصيدة نفسها نقف مع مقطع آخر يقول فيه محمود درويش:

بلا غاية، وضعتنا السماء

على الأرض إلفين مؤتلفين

وباسمين مختلفين

فلا اسمي كان يزين خاتمك الذهبي

ولا اسمك كان يرن

كقافية في كتاب الأساطير

وفي مقاطع أخرى من القصيدة نفسها نقرأ:

أمثالنا لا يموتون حبًّا،

ولو مرة في الغناء الحديث الخفيف

ولا يقفون، وحيدين، فوق الرصيف

لأن القطارات أكثر من

عدد المفردات

وفي وسعنا دائمًا

أن نعيد النظر

وأمثالنا لايعودون إلا

ليستحسنوا وقع أقدامهم

على أرض أحلامهم،

أو ليعتذروا للطفولة

عن حكمة

بلغوها على حافة البئر..

ونواصل القراءة في هذه القصيدة العجيبة:

ماذا سنفعل بالحب؟ قلت

ونحن ندس ملابسنا في الحقائب

نأخذه معنا، أم نعلقه في الخزانة؟

قلت: ليذهب إلى حيث شاء

فقد شب عن طوقنا وانتشر

يمر الزمان بنا، أو نمر به

كضيوف على حنطة الله

في حاضر سابق، حاضر لاحق،

هكذا، هكذا، نحن في حاجة للخرافة

كي نتحمل عبء المسافة ما بين

بابين

وفي مقطع آخر من هذه القصيدة نقرأ:

على الجسر قرب حياتك

عشب

كما عاش عازف جيتارة

قرب نجمته

غن لي مائة من أناشيد حبك

تدخل حياتي

فغنى عن الحب

تسعًا وتسعين أغنية

وانتحر

هذه مقاطع من قصائد محمود درويش في ديوانه «سرير الغريبة»، وفيها كلها ينزف «جرحه» الأصلي ويعزف، وهذا الجرح هو الاغتراب عن الوطن وطول الحياة في «المنفى». حتى أصبح هذا «المنفى» أليفًا وليس وحشًا مفترسًا مثل كل «منفى» آخر يعرفه الناس. والأنغام المتلاحقة في هذه المقاطع الشعرية المختلفة هي أنغام لا يسمعها إلا المغتربون المنفيون؛ لأنها تنبعث من جراحهم التي في داخلهم، ومن أحلامهم، ومن الخرافات التي ينسجون خيوطها بمشاعرهم الخاصة لكي تكون بديلاً لواقع يفلت من اليد، ولكن اليد تتمسك به مع ذلك، فإن لم تجده، صنعت من عطره حلمًا وصورة، وربما صنعت خرافة، فهذا الواقع الضائع لم يضع في قلب الشاعر المهموم، وفيما «يتفجر» في وجدانه من صوره وأحزانه، وهذه الأنغام المجروحة التي تمتلئ بها هذه

المقاطع الشعرية، ويمتلئ بها ديوان «سرير الغريبة»، تطرق بجناح الأحلام أبواب «التصوف». فالتصوف ـ في بعض صوره القوية ـ هو ثورة على ضياع الواقع وجفافه وخلوه من معاني الانشراح والبهجة التي هي «خبز» المتصوفين وهي «الملح» أيضًا. ولذلك فهؤلاء الصوفيون الكبار يبتهجون وينشرحون ويدقون طبولاً ويعزفون أنغامًا ويلمسون بأيديهم أفراحًا وأرواحًا، وكل ما في عالم الصوفيين هؤلاء لا نراه ولا نلمسه بأيدينا، ولذلك فنحن نحسبهم أحيانًا وكأنهم سكارى.. وما هم بسكارى.. ونحسب أحيانًا أخرى أنهم على أبواب الجنون. فهم يرون ما لا نراه، ويتعاملون مع رؤاهم كما نتعامل نحن مع حقائق الحياة الملموسة. على أن أمثال هؤلاء الصوفيين ليسوا بمجانين، وإن كانوا يحتفلون بشيء مجهول لا تراه العيون. ويبتهجون من سرور ليس له في نظرتنا المحدودة سبب معلوم.

وهكذا محمود درويش في ديوانه «سرير الغريبة»، فهو مجروح بسبب «اليتم الوطني» الذي يعانيه منذ طفولته. وهذا الجرح له نزف وعزف، وهو قادر على أن يطلق في فضاء النفس والروح عصافير لا نراها، تقفز هنا وهناك على أغصان خيالية. ويمتلئ هذا العالم بالحركة والنشوة والانشراح والشجن والحزن. مستمدًا ذلك كله من الرؤيا والأحلام والأصداء البعيدة.. وفي مثل هذا العالم بصخبه واضطرابه وتشابك صوره وأنغامه. كان لابد من «الشعر» للتعبير عن هذا كله تعبيرًا فيه طرب ويقين بصواب الأحلام الضائعة والآمال الغائبة والبلاد التي اختفت من خريطة الأرض وانتقلت إلى خريطة أخرى في القلب.

كان لابد من الشعر، فلو لم يكن محمود درويش شاعرًا قادرًا على التعبير عن العواصف التي في داخله، ولو لم يحمله شعره الجميل النبيل على جناح الرحمة والحنان.. ولولا هذا الشعر ـ لأصبح محمود درويش من المجانين!

محمود درويش وخريطة شعرية للوطن

هذه وقفتنا الأخيرة مع ديوان محمود درويش «سرير الغريبة» وهو ديوان بديع ناعم جارح في خياله وطيرانه فوق القيود الحديدية القاسية التي تحيط بالشاعر، وتفرض عليه النفي والاغتراب، وديوان «سرير الغريبة» مليء بالغناء، فهو ديوان غنائي من الدرجة الأولى، وأول الغناء في هذا الديوان الجميل هو غناء المسافر دائمًا من أرض إلى أرض ومن بلد إلى بلد، ولكن كل الأراضي وكل البلاد ليست هي الوطن الذي يهواه قلب الشاعر؛ فالوطن ضائع على الخريطة الجغرافية. ولكنه ليس ضائعًا في خريطة الروح والخيال والشعر الأصيل. ولذلك فقد كان الغناء في ديوان «سرير الغريبة» بعد المقدمة الموسيقية الطويلة العذبة عن النفي والاغتراب والتصوف العميق.. بعد هذه المقدمة الموسيقية فإننا نجد أن الشاعر يغني لوطنه الضائع، ويحاول بالغناء أن يرسم لهذا الوطن «خريطة شعرية» أبقى وأقوى من الخريطة الجغرافية التي اختفت مؤقتًا عندما أفلت زمام التاريخ من يد العرب، وأصبح في يد اليهود وأنصار اليهود الأقوياء الأشداء.

والخريطة الشعرية ليست بديلاً للخريطة الجغرافية، وليست تعويضًا للشاعر عن تلك الخريطة الجغرافية «المسروقة» الآن من بين «أطلس» العالم، ولكن الخريطة الشعرية هي «تثبيت» للحق، وبرهان قوي على وجوده، فما دام هناك شعر صادق وجميل، فلابد أن يكون هناك وطن.. وهل يمكن للشعر أن يكون بلا وطن؟ مستحيل، فالشعراء الذين ليست لهم أوطان يعشقونها لا يمكنهم أن يجدوا منبعًا واحدًا

يستمدون منه بيتًا من الشعر أو نغمة من الأنغام أو نسمة من نسمات الروح التي لا يمكن أن تستغني عنها قلوب الشعراء.

الخريطة الشعرية دليل قوي ثابت على وجود الوطن الجغرافي، ومهما طال اختفاء الخريطة الجغرافية المسروقة، فإن وجود الخريطة الشعرية هو وثيقة قوية أمام التاريخ والضمير الإنساني على صحة الخريطة الجغرافية وضرورة إنقاذها من يد السارقين لها في يوم من الأيام. والأوطان التي تتحول إلى أشعار ليس هناك من سبيل لإخفائها من الوجود، والذين يظنون أنهم يستطيعون إلغاء الأوطان التي تحولت إلى أشعار هم أكبر الواهمين.

فكيف رسم محمود درويش خريطته الشعرية في ديوان «سرير الغريبة»؟ إننا نجد بعض الخيوط الذهبية الرئيسية لهذه الخريطة الشعرية.

والخيط الأول نلتقي به في قصيدة محمود درويش التي عنوانها «أنا وجميل بثينة»، وفي هذه القصيدة نستطيع أن نرى بعض ملامح «الخريطة الشعرية» لمحمود درويش، فهو ببساطة وعمق معًا: عربي عاشق، ووطنه الأصلي هو العروبة والعشق معًا، وفي اختيار محمود درويش لجميل بثينة ليكون له بمثابة «المعادل الفني والإنساني» فكرة ساحرة وعجيبة، فقد عاش «جميل» حياته كلها يحب «بثينة» دون أن يتحقق له من هذا الحب سوى «الحب» نفسه، فبثينة لجميل وليست له، وهي حبيبته ولكنها زوجة «رسمية» لشخص آخر، وزواج بثينة من هذا الشخص الآخر قائم على عقد زواج ينقصه «نص شرعي» على الحب وتلاقي القلوب بين الزوجين حتى يكون الزواج كاملاً وليس باطلاً، ربما أن هذا «العقد» يخلو من الحب، فإن حب جميل لبثينة أبقى وأقوى في حساب الضمائر والقلوب من أي عقد رسمي ينص على غير ذلك، ونكاد نشعر في قصيدة محمود درويش أن «بثينة» عنده هي المرأة، وهي الوطن أيضًا . والمقابلة بين «بثينة» عند جميل و«بثينة» عند محمود درويش هي مقابلة فاتنة . فقد ظل جميل يتغنى ببثينة حتى آخر لحظة في حياته. وكان اسم «بثينة» هو آخر ما نطق به «جميل» قبل رحيله. ولو أننا تخيلنا قليلاً ـ وهو خيال ممتع ـ أن محمود درويش هو جميل وأن بثينة

هي وطنه الروحي الكامل، لاستطعنا أن نقرأ بعض أشعار جميل ويكون لها في النفس صدى آخر ومعنى جديد. فنقرأ مثلاً قول جميل:

خـلـيـلـيَّ فـيـمـا عشـتـمـا هـل رأيـتـمـا

قـتـيـلاً بـكـى مـن حب قـاتـلـه قـبـلـي

أو قوله:

أريــد لأنســى ذكــرهــا فــكــأنما

تــمــثــل لــي لــيــلــى بــكــل ســبــيــل

و«ليلى» هنا هي اسم عربي يدل على الحب، فكل محبوبة لها اسمها الخاص ولها اسم عام آخر هو «ليلى». وكل عاشق له «ليلاه» أي حبيبته، وتلك من أسرار الجمال في اللغة العربية التي تختصر وتعتصر كل الحبيبات في اسم واحد رقيق سهل عذب هو «ليلى».

ونعود إلى جميل فنقرأ أبياته الرائعة التي يقول فيها:

وإني لأرضــى مــن بــثــيــنــة بــالــذي

لــو أبصــره الــواشــي لــقــرت بــلابــلــه

بــلا وبــألا أســتــطــيــع وبــالمنــى

وبــالأمــل الــمــرجــو قــد خــاب آمــلــه

وبـالـنـظـرة الـعـجـلـى وبـالـحـول تـنـقـضي

أواخــره لا نــلــتــقــي وأوائــلــه

ويقول جميل:

فــمــا غــاب عــن عــيــني خــيــالك لــحــظــة

ولا زال عــنــهــا والــخــيــال يــزول

ويقول:

لقد خفت أن يغتالني الموت بغتة
وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وإني لتثنيني الحفيظة كلما
لقيتك يومًا أن أبثك ما بيا

ألم تعلمي ياعذبة الريق أنني
أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى؟ إني إذن لسعيد

وهل ألقينْ - فردًا - بثينة مرة
تجود لنا من ودها ونجود؟

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
إلى اليوم ينمي حبها ويزيد

وأفنيت عمري بانتظاري وعدها
وأبليت فيها الدهر وهو جديد

فلا أنا مردود بما جئت طالبًا
ولا حبها فيما يبيد يبيد

هذا شعر فيه حنين قوي، وعاطفة ثابتة، وتعبير صادق عن حب أصيل لا يتغير، وفي هذا الشعر إحساس حار جدًّا بالحرمان واللوعة، وهما حرمان ولوعة يزيدان نار الهوى

في القلب اشتعالاً، فالعاشق الأصيل يتمسك بهواه ويزداد انتماء إلى هذا الهوى الذي لابديل له. والحب ثابت في قلب جميل، و«بثينة» هي الحبيبة الواحدة التي لا يستطيع أي حرمان منها أن يجعل لها بديلاً عنها.

لو أننا تصورنا أن محمود درويش هو صاحب هذه الأشعار التي أنشدها «جميل بثينة» لنا ولتاريخ الحب الأصيل الذي لا تغيره الأيام.. لو تصورنا ذلك فلن نجد فرقًا كبيرًا في العناصر النفسية والعاطفية بين محمود درويش الشاعر المعاصر وبين جميل بثينة الشاعر الذي عاش منذ حوالي ألف وثلاثمائة سنة.

«جميل» عاشق، ومحمود درويش عاشق، و«جميل» محروم من هواه ولكنه ثابت عليه، لا يتغير فيه ولا يتبدل، وكذلك محمود درويش فهو عاشق محروم ثابت على الهوى رغم الحرمان، ومحبوبة جميل التي حكم الزمان عليه بالافتراق عنها هي بثينة، ومحبوبة محمود درويش هي وطن له اسم معروف. لايصح أن ننطق به في مجال العشق العالي والهوى الملهوف.. ويكفي أن نقول إن محبوبة محمود درويش هي وطن محمود درويش حتى نعرف جميعًا اسم هذا المحبوب دون أن نذكره على اللسان، لأنه في القلب.

وأحيانًا يمتد بي الخيال فأجد بعض الصفات المشتركة في الشخصية الإنسانية بين «جميل بثينة» ومحمود درويش. يقول الدكتور زكي مبارك في كتابه «العشاق الثلاثة» عن «جميل بثينة»: «جميل كان فتى لم يعرف الخضوع إلا في الحب، وقد رفعته همته عن التودد للولاة والخلفاء، فلم يمدح أحدًا قط، ولم يره الناس في موضع ذلة إلا في تلمس الوصول إلى موقع هواه، وهي ذلة أشرف من العزة في نفس الشاعر الذي رآه أهل زمانه إمام المحبين». ومن أقوال الدكتور زكي مبارك عن «جميل بثينة» أيضًا: «إن جميلاً كان مفتونًا بجماله وشبابه أشد الافتتان»، وإنه «كان يقضي الأيام الطوال في السفر إلى بثينة بدون أن يتناول شيئًا من الطعام أو الشراب»، وتلك «صوفية في الحب لا يتحدث عنها متحدث إلا في تهيب واستحياء»، ونحن «أمام شخصية مهيبة جليلة لم يستبح الرواة أن يتندروا عليها أو يمسوها بطيف من السخرية والاستخفاف».

هذه بعض الملامح الشخصية لجميل بثينة، وبعض هذه الملامح هي عند من يعرفون محمود درويش هي جزء من شخصيته. أو هذا ما أظنه وأعتقده وقد أكون فيه من المخطئين، فالشبه بين محمود درويش وجميل بثينة ـ عندي ـ قائم في بعض الملامح الشخصية الأساسية، أما في الحب، فهما يشتركان في أنهما عاشقان صادقان محرومان وإن اختلف موضوع الحب عندهما من بثينة إلى الوطن، ولكن الشاعرين في الحب واللهفة والشعور الملتهب بالحرمان، والثبات على الهوى الواحد، يلتقيان في نقطة لا تختلف بينهما في شيء.

ولذلك عندما أراد محمود درويش أن يرسم «خريطة شعرية» لحبيبته أو وطنه، امتد به الخيال وحنين الدم إلى أصله، فالتقى محمود بجميل بثينة، وكتب قصيدته «أنا وجميل بثينة». ويفتتح محمود درويش قصيدته بحديث مباشر إلى «جميل» شريكه في لوعة القلب والحب المحروم:

كبرنا، أنا وجميل بثينة، كل

على حدة، في زمانين مختلفين

هو الوقت يفعل ما تفعل الشمس

والريح: يصقلنا، ثم يقتلنا حينما

يحمل العقل عاطفة القلب، أو

عندما يبلغ القلب حكمته

ثم يواصل محمود درويش خطابه لجميل بثينة فيقول:

ياجميل! أتكبر مثلك، مثلي بثينة؟

تكبر، ياصاحب، خارج القلب

في نظر الآخرين

وفي داخلي تستحم الغزالة

في نبعها المتدفق من ذاتها

هي؟ أم تلك صورتها؟

إنها هي ياصاحبي. دمها، لحمها

واسمها. لازمان لها. ربما استوقفتني

غدًا في الطريق إلى أمسها

ويستمر الحوار في قصيدة «أنا وجميل بثينة» بين محمود درويش وجميل.. وفي هذا الحوارِ يدفعنا درويش إلى الإحساس بأنه قد توحد مع جميل، فأصبحا شخصًا واحدًا، وقلبًا واحدًا، ورؤية واحدة، حتى تنتهي القصيدة بتصوير بديع «للحب المشترك» بين الشاعرين:

هل تشرح الحب لي، ياجميل

لأحفظه: فكرة «فكرة»؟

أعرف الناس بالحب

أكثرهم حيرة،

فاحترق، لا لتعرف نفسك، لكن

لتشعل ليل بثينة

ثم تنتهي القصيدة بهذا المقطع:

أعلى من الليل طار جميل

وكسر عكازتيه. ومال على أذني

هامسًا: إن رأيت بثينة في امرأة

غيرها، فاجعل الموت، ياصاحبي

صاحبًا. وتلألأ هنالك، في اسم

بثينة، كالنون في القافية

وقد أغراني البيت الأخير في قصيدة محمود درويش البديعة بالبحث عن بعض القصائد ذات القافية النونية في شعر جميل بثينة فوجدت له قصيدتين من أجمل الشعر العربي والإنساني، وفيهما تتلألأ حقًّا قافية النون، ولو قرأنا أبيات القصيدتين، ووجهنا عواطفنا تجاه محبوبة محمود درويش أي وطنه، لوجدنا توافقًا عجيبًا بين عشق الشاعرين معًا.. جميل لبثينة، ودرويش لوطنه.

في القصيدة الأولى يقول جميل:

أرى كل معشوقين غيري وغيرها

يلذان في الدنيا ويغتبطان

وأمشي وتمشي في البلاد كأننا

أسيران للأعداء مرتهنان

ضمنت لها ألا أهيم بغيرها

وقد وثقت مني بغير ضمان

وفي القصيدة الثانية التي قافيتها «نون» أيضًا يقول جميل:

ولو أرسلت يومًا بثينة تبتغي

يميني ولو عزت عليَّ يميني

لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها

وقلت لها بعد اليمين سليني

ماذا لو أننا قرأنا هذه الأبيات التي تتلألأ فيها قافية «النون» على أنها على لسان محمود درويش؟ لا جدال أننا سوف نجد «الحالة الوجدانية» التي تعبر عنها هذه الأبيات هي نفسها حالة درويش التي يعبر عنها في حبه لوطنه، فهو حب محروم ولكنه ثابت لا يتغير، والحبيبة أي الوطن، لها أن تطلب ما تشاء، وكل ما تطلبه مجاب بغير تردد.

ارتباط محمود درويش بجميل بثينة هو تعبير عن الانتماء العربي، وتعبير عن العشق، فهذا الارتباط بين الشاعرين هو أساس «الخريطة الشعرية» التي يرى فيها محمود درويش عروبته في أصدق وأبسط وأجمل صورها، ويرى فيها عشقه الكبير الذي يصل به إلى حد التصوف.

فالعالم الشعري عند محمود درويش في ديوانه «سرير الغريبة» ليس هو عالم النفي والاغتراب فقط، ولكنه ـ رغم هذا الإحساس العالي والمرير بالنفي المستمر ـ يقف على أرض تجعله ممسكا بخيوط الوطن الضائع منه، وهو الوطن الذي يحتل مكان «الحبيبة»، وليس هناك رمز حي لوطن محمود درويش أفضل من رمز «بثينة»، فهي حبيبة يفصل الحرمان بينها وبين حبيبها، ورغم هذا الحرمان، فالحب قائم ومتوهج وثابت لا يتغير. والانتماء والعشق هما اللذان يثيران في ديوان «سرير الغريبة» أنغام التفاؤل والأمل رغم الأحزان والأوجاع وألوان الحرمان المختلفة. وهذا الانتماء والعشق في ديوان «سرير الغريبة» نحس به قويًا واضحًا في قصائد أخرى تعزف نفس الأنغام، منها قصيدة «قناع.. لمجنون ليلى» وفيها إشارة لشاعر آخر قضى حياته في العشق المحروم، والهوى المظلوم، هو «قيس بن الملوح» والذي تقول لنا عنه المصادر التاريخية «إنه عاش في أوائل الدولة الأموية، ويعرف بمجنون ليلى، نسبة إلى ليلى بنت مهدي بن عامر، التي كان يعشقها، ويكثر من ذكرها في شعره، ويأتي دارها بالليل، حتى صار عشقه لها حديث الناس، فمنعه أهله من زيارتها، فذهب عقله وهام على وجهه حتى مات، وذهبت قصته مثلا على الحب العذري، أما شعره فغاية في الرقة، وفيه صدق العاطفة وروعة التصوير وحرارة الهيام».

هذا هو «قيس بن الملوح» الذي عاد إليه محمود درويش وقدم لنا صياغة عصرية لعلاقته الروحية معه في قصيدته الجميلة عنه، وفي هذه القصيدة يتوحد محمود درويش في أحوال عشقه مع أحوال قيس.. والشاعران عاشقان محرومان ولكنهما ثابتان على الهوى لايتغيران.

ثم نجد إشارة أخرى رائعة في نفس الاتجاه. وذلك في آخر قصائد ديوان «سرير الغريبة» وهي «طوق الحمامة الدمشقي»، والدمشقي هنا صفة للطوق، وفي القصيدة غناء وبكاء وكبرياء، وفيها عشق وحنين وإحساس بالحرمان وهوى جامح لايغيره شيء، وفي القصيدة إشارة إلى كتاب من أبدع كتب العبقرية العربية وهو كتاب «طوق الحمامة» للعالم العربي الأندلسي «أبو محمد علي بن أحمد بن حزم القرطبي»،والمشهور باسم ابن حزم. والكتاب اسمه بالكامل «طوق الحمامة في الألفة والألاف»

ويقول عنه المؤرخون «موسوعة المورد»: «إنه إحدى روائع التراث العربي الأكثر أصالة وطرافة، وهو يشتمل على ثلاثين بابًا، عشرة منها في أصول الحب، واثنا عشر في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة، وستة في الآفات الداخلة على الحب، واثنان ختم بهما الكتاب ابتغاء «الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهذان البابان هما باب «قبح المعصية» وباب «فضل التعفف» وفي قصيدة «طوق الحمامة الدمشقي» صور عصرية حية متلاحقة من التعبير الشعري الرفيع عن عشق محمود درويش الراهن والممتد بخيوطه القوية المتينة إلى «طوق حمامة» ابن حزم الذي عاش في الأندلس منذ ألف سنة، وفي قصيدة «طوق الحمامة الدمشقي» تتأكد ملامح «الخريطة الشعرية» للوطن المعشوق عند محمود درويش. وهي خريطة تتكون من العشق الثابت رغم الحرمان ثم من الانتماء العربي الذي يمتد بجذوره إلى أرض صلبة لا تهتز وتلك هي الخريطة الشعرية الأصيلة في ديوان «سرير الغريبة». وهي خريطة ليست بديلاً للوطن ولكنها تثبيت له في القلب وعلى جفون الزمن بحيث لا يستطيع أن يمحوها إنسان.

ولنستمتع إلى بعض اللمحات البديعة من طوق الحمامة الدمشقي لتكون لحنًا ختاميًا لهذه الدراسة. يقول الدرويش:

في دمشق تطير الحمامات

خلف سياج الحرير

اثنتين

اثنتين

ويقول:

في دمشق تُطرز أسماء خيل العرب،

من الجاهلين،

حتى القيامة،

أو بعدها

..... بخيوط الذهب

ويقول:

في دمشق:

ينام الغريب

على ظله واقفًا

مثل مئذنة في سرير الأبد

لايحن إلى بلد

أو أحد

وقبل ذلك يقول:

في دمشق:

تسير السماء

على الطرقات القديمة

حافية، حافية

فما حاجة الشعراء

إلى الوحي

والوزن

والقافية

ذلك هو محمود درويش في ديوانه «سرير الغريبة»، وتلك هي «خريطته الشعرية» المرسومة بخيوط العشق والانتماء.

.. ولا عزاء للعرب!

سمعت صحفيًا إسرائيليًا يتحدث في إذاعة «بي. بي. سي» العربية ويصف الفلسطينيين بأنهم «حيوانات»، وقد رد عليه المذيع العربي بغضب، وحذف هذا الوصف من الإذاعة التالية للحديث باعتباره وصفًا ساقطًا يدل على أن نفسية اليهود في إسرائيل لم تتغير، وأن عشرين سنة من محاولات السلام معهم، منذ كامب ديفيد الأولى، لم تجعلهم يقتنعون بهذا السلام المزعوم، والسبب واضح وهو أن السلام سوف يفرض عليهم أن يكون حجمهم محدودًا لا يتفق مع خططهم غير المحدودة. ولعل الناس، حتى بين المثقفين والمتعلمين سوف يندهشون عندما يعرفون أن إسرائيل هي دولة ليس لها دستور، وليس لها خريطة ترسم حدودها حتى الآن. أما انعدام الدستور في إسرائيل فيرجع إلى الصراع بين الفكرة الدينية اليهودية التي قامت عليها إسرائيل والفكرة العصرية التي تزعم أن إسرائيل دولة ديمقراطية حرة قائمة على الفصل بين الدين والدولة. أما انعدام الخريطة الإسرائيلية، فيرجع إلى أن إسرائيل لديها «خريطة مفتوحة» لم تكتمل بعد، فهي خريطة مستعدة لابتلاع المزيد من الأراضي العربية.

والحقيقة أن ما يحدث في فلسطين الآن، يكشف بوضوح أن برنامج «الكراهية المطلقة» للعرب لايزال قائمًا في نفوس الإسرائيليين من قادتهم وجماهيرهم على السواء، وكنا تصورنا أن هذه الكراهية للعرب بدأت تزول بالتدريج مع إشراق شمس السلام، والتي اختفت الآن تحت ضباب كثيف. ولا يدري إلا الله متى

تشرق هذه الشمس من جديد. وشمس السلام قامت في الأصل على التسامح العربي مع إسرائيل، فقد أراد العرب أن ينسوا كل ما أصابهم في القرن العشرين على يد الحركة الصهيونية، وأرادوا أن ينسوا أن إسرائيل قد استولت بقوة السلاح وتأييد الغرب لها على 75٪ من أرض فلسطين، ولم يبق للعرب إلا 25٪ أو أقل، وهي النسبة التي تتكون منها الضفة الغربية وغزة، وهذه النسبة الباقية من أرض فلسطين هي التي نطالب بإقامة الدولة الفلسطينية فوقها، ومع ذلك فاليهود يرفضون إقامة هذه الدولة حتى الآن، وتساندهم أميركا مساندة كاملة. والحقيقة التي نخشى أن نقولها بصراحة ووضوح هي أن الموقف الأميركي من إسرائيل يضع أميركا على رأس قائمة «المعادين لحقوق الإنسان». وقضية «حقوق الإنسان» هي القضية التي تدعي أميركا أنها الحارسة الأولى لها والداعية رقم واحد إليها. وليس من حقوق الإنسان والحرص عليها أن يعقد الرئيس الأميركي كلينتون مؤتمرًا صحفيًا لتعزية إسرائيل بعد مقتل اثنين من جنودها، كانوا يحاولون أن يندسوا بين المظاهرات العربية في رام الله، وهم يلبسون الثياب العربية ليقتلوا العرب في جو يوحي بأن هذا القتل لم يكن بأيديهم، وهو أسلوب في العمل الخسيس له أصل قديم، أخذه اليهود عن «بيلاطس البنطي» الحاكم الروماني للشام في أيام المسيح عليه السلام، فقد ضاق «بيلاطس» بمشاغبات اليهود وتمردهم المستمر، فكان يحاربهم بأن يجعل جنوده الرومان يندسون بين اليهود، وهم يلبسون ملابس اليهود، ثم يقوم هؤلاء الجنود بقتل اليهود أثناء تجمعاتهم المختلفة التي كانوا يقومون فيها بالتمرد على الدولة الرومانية، وهذا هو نفسه ما يفعله اليهود الآن عن طريق فئة يسمونها «المستعربين» أي اليهود الذين يندسون بين العرب بملابس عربية، هادفين إلى كسب ثقة العرب، ثم ذبحهم بعد ذلك في أول فرصة متاحة لهم.

عندما مات اثنان من «المستعربين» وقف كلينتون أمام العالم كله يقدم العزاء إلى إسرائيل، أما عندما سقط ما يقرب من مائة وخمسين شهيدًا فلسطينيًا مدنيًا برصاص الإسرائيليين، ومنهم الطفل محمد الدرة الذي كان يحتضن والده ويقول له: «احمني

يا أبي»، ولكن هذا الأب لم يكن قادرًا على حماية نفسه ولا حماية ابنه، فمات الابن برصاص إسرائيل وسالت دماؤه على ثياب أبيه.. عندما حدث هذا كله لم يقف كلينتون ليقدم العزاء إلى شعب فلسطين، بل على العكس أمر مندوبه في مجلس الأمن بأن يمتنع عن تأييد قرار المجلس بإدانة إسرائيل. ومن أسخف تصريحات كلينتون التي يرددها قوله: لابد من وقف النار بين الطرفين.. فأية نيران يتحدث عنها سيادة رئيس العالم.. أي الرئيس الأميركي؟ إن الفلسطينيين لا يملكون من سلاح سوى الحجارة التي يجمعونها من الشوارع والطرقات، أما الأميركان فقد تكفلوا بوضع أحدث الأسلحة وأخطرها في يد الإسرائيليين حتى يفعلوا بنا ما يشاءون وهم آمنون، وهكذا يكون قتيلان إسرائيليان مصدر حزن للرئيس كلينتون وموضع عزاء في البيت الأبيض. أما شهداؤنا المائة والخمسون.. فلا عزاء لهم ولا يحزنون.

ومثل هذه المواقف التي تتكرر كثيرًا تؤكد لنا أن أميركا ما هي في الحقيقة إلا «إسرائيل الكبرى» أما إسرائيل الصغرى فهي التي نعرفها والتي تقيم على أرضنا نيابة عن الأصل الذي يتمثل في إسرائيل الكبرى.. أي أميركا.

ولا أدري لماذا يصر بعضنا، بل الكثيرون منا، على تجاهل الحقائق الساطعة التي قدمت إلينا ألف دليل على صحتها؟

ولماذا يظل العرب، بما فيهم بعض كبار القادة الفلسطينيين، يتحدثون عن الأمور السطحية والشكلية ويتركون جوهر المشكلة؟ إننا إذا وصلنا إلى بعض الحلول للأمور السطحية وتجاهلنا ما تحت السطح.. فإن الانفجارات لن تنتهي أبدًا من المنطقة العربية، وسوف تكون هذه الانفجارات فينا أولاً وقبل غيرنا.

إن كل مفاوضاتنا مع الإسرائيليين والأميركان تدور حول أمتار هنا وهناك، ولكننا نبتعد عن مناقشة أمور أساسية جوهرية، ينبغي أن تظهر الآن بوضوح، وأن يطرحها العرب بشجاعة، وأن يتوقفوا عن الخوف من أميركا إلى الحد الذي يودي بهم إلى الدمار والهلاك.

مثلاً: لماذا لا نطالب إسرائيل بأن تقدم خريطة واضحة لها، مثلها في ذلك مثل أية دولة في العالم؟

إن بقاء إسرائيل دون خريطة رسمية معناه أنها لا تزال تريد أرضًا تضمها إليها قبل أن ترسم خريطتها النهائية.. والأرض المطلوبة هي أرض عربية وليست أرضًا أميركية ولا أوروبية.

ولماذا يتردد العرب جميعًا في إعلان رفضهم التام لفكرة إقامة مستوطنات على الأراضي العربية؟ وهي مستوطنات مسلحة، سوف تبقى حتى لو قامت الدولة الفلسطينية، تابعة لإسرائيل.. أي أنها ببساطة دولة في داخل الدولة.

والأهم من ذلك كيف يسكت العرب، وأقول العرب جميعًا، عن استمرار الهجرة اليهودية بهذه الكثافة؟ وآخر موجات الهجرة كانت هجرة اليهود الروس الذين بلغ عددهم مليونًا من المهاجرين، وفي الوقت نفسه فإن اللاجئين العرب الذين مازالت بيوتهم قائمة في أرض فلسطين كما هي ويسكنها يهود وافدون من شتى أنحاء العالم.. هؤلاء اللاجئون ممنوعون من العودة إلى بلادهم. وهم دائمًا على قائمة الموضوعات التي يتفاوض عليها الإسرائيليون والفلسطينيون كلما جمعتهم مفاوضات جديدة. ودائمًا هناك اعتراض إسرائيلي مدعوم بتأييد أميركا ضد عودة اللاجئين إلى أرضهم وبيوتهم. وليس على قائمة أية مفاوضات من هذا النوع حديث عن المهاجرين الذين يتدفقون على إسرائيل، رغم أنهم في الأصل لهم بلاد يعيشون فيها منذ آلاف السنين.

منذ أيام تلقيت من صديقي الفنان الفلسطيني التشكيلي الكبير إسماعيل شموط الذي يقيم الآن في عمان رسالة يقول فيها:

«العام 1997 زرنا أنا وزوجتي الفنانة التشكيلية تمام «يافا» مسقط رأس «تمام»، وبكت زوجتي أمام بيت آبائها وأجدادها، والذي حولته يهودية ألمانية صهيونية إلى قاعة عرض فنية تشكيلية. ياللصدف! وقد ركعت أنا أمام بيتنا الذي بناه والدي في «اللد» والذي ولدت فيه.. صليت وبكيت، ومنعوني من دخوله، كما منعوا زوجتي «تمام» من دخول بيتها في «يافا».

هذا ما يقوله «إسماعيل شموط» فبيته موجود كما هو في «اللد» ولكنه مسكون بوافد يهودي جاء من أوروبا. وبيت «تمام» موجود في «يافا» كما هو أيضًا.. ولكنه مسكون بيهودية ألمانية منعت صاحبة البيت الأصلية من دخول بيتها.. حتى للزيارة والذكرى.

فكيف بالله نرضى بعدم إثارة أي حديث عن المهاجرين اليهود الذين يتدفقون على فلسطين من شتى أنحاء الأرض، بينما اللاجئون أصحاب البيوت والأرض ممنوعون من العودة، وممنوعون من دخول بيوتهم، وكل المناقشات في المفاوضات الإسرائيلية ـ الفلسطينية في هذا الموضوع تنتهي دائمًا إلى لا شيء؟!

لماذا لا نضع في قائمة الموضوعات المطروحة في المفاوضات موضوع الهجرة إلى إسرائيل وضرورة إيقافها بصورة نهائية؟

هل الدعوة إلى منع المهاجرين وإيقاف الهجرة هي نوع من «التدخل» في شئون إسرائيل، أما منع اللاجئين الفلسطينيين من العودة إلى بلادهم فهو أمر قانوني وطبيعي ومشروع؟

إن الهجرة إلى إسرائيل مستمرة دون أن يقف في وجهها أحد، وهذه الهجرة هي التي تدعو إسرائيل إلى القول بأن الأرض التي تقيم عليها قد ضاقت بها، ولابد لها من أراض عربية حتى يقيم عليها اليهود القادمون إليها من شتى أنحاء الأرض، ثم تقول إسرائيل إن أمنها يقتضي إقامة هذه المستوطنات فوق الأرض العربية، لأنها لم تعد قادرة على استيعاب المهاجرين.

لماذا يتم السماح بهجرة مليون يهودي من روسيا في السنوات العشر الأخيرة؟ ولماذا نقبل هذا الأمر ونعتبره أمرًا لا يخصنا ولا يعنينا، ولكنه موضوع داخلي إسرائيلي لايجوز التدخل فيه؟

وبهذا المنطق.. لماذا لا نقول إن موضوع اللاجئين هو موضوع فلسطيني داخلي لا حق لأحد أن يتدخل فيه غير الفلسطينيين أنفسهم؟

إن المفاوضات التي تدور بهذه الصورة هي مفاوضات سطحية، لا تتعرض للأمور الجوهرية، وتتجاهل مصادر الخطر الدائم والمستمر والذي يتزايد ـ واقعيًا ـ يومًا بعد يوم ضد العرب.

والحقيقة أن المفاوضات التي دارت بين الإسرائيليين والفلسطينيين منذ سنة 1993 في «اتفاقيات أوسلو» بالنرويج وحتى الآن لم تثمر سوى شيء واحد، هو الكشف عن «سذاجة» العرب ووقوفهم عند حدود القضايا السطحية والشكلية وعجزهم عن وضع أيديهم على المشاكل الجوهرية.

والمشاكل الجوهرية تقتضي إعلان الرفض الكامل للهجرات اليهودية المستمرة، والرفض الكامل للمستوطنات اليهودية في الأراضي العربية، إلا إذا تقبل اليهود أن يعيشوا على الأرض الفلسطينية كمواطنين فلسطينيين تابعين للسلطة الفلسطينية وخاضعين للقوانين الفلسطينية، شأنهم في ذلك شأن العرب الذين يعيشون في إسرائيل، ويزيدون على مليون عربي ويمثلون الآن أكثر من خمس سكان إسرائيل.

الطريقة العربية في التفاوض مع إسرائيل طريقة تقوم على الضعف، وتقبل بموضوعات للمفاوضات تحددها إسرائيل وأميركا وحدهما. ونحن لا نضيف شيئًا جديًا يعنينا ويؤثر علينا في هذه الموضوعات.

وها هي الأيام تثبت لنا بعد صبر طويل، أن إسرائيل لم تتغير من أيام «بن جوريون» إلى أيام «باراك».

فإسرائيل تنظر إلى العرب على أنهم «شعب من الأغنام» وأن التعامل معه لابد أن يكون بالعصا والبندقية.

الحديث يطول، ولكني لا أريد أن أنهي هذا الحديث إلا بتقديم بعض النصوص التي تغني عن كل حديث، وتكشف لنا كمية من «الأوهام» التي نعتمد عليها في التعامل مع إسرائيل الصغرى وإسرائيل الكبرى التي هي أميركا، وهذه بعض النصوص التي لا تحتاج إلى تعليق:

1- ينقل الكاتب الفلسطيني صبري جريس في كتابه «العرب في إسرائيل» ما قالته إحدى المجلات الإسرائيلية عن «بن جوريون» وهو الأب الأول لدولة إسرائيل، حيث تقول المجلة الإسرائيلية، وكان ذلك سنة 1958 عندما كان «بن جوريون» رئيسًا لوزراء إسرائيل:

«إن بن جوريون رئيس حكومة إسرائيل لم يزر مدينة أو قرية عربية منذ قيام إسرائيل، وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية، رفض أن يزور مدينة الناصرة العربية، وهي لا تبعد إلا بعض مئات من الأمتار عن الناصرة اليهودية. وخلال السنوات «العشر» الأولى من قيام إسرائيل لم يستقبل «بن جوريون» وفدًا واحدًا من المواطنين العرب. و«بن جوريون» الذي تعلم اليونانية ليقرأ أفلاطون والإسبانية ليقرأ رواية «دون كيشوت» لم يجد من واجبه أن يتعلم شيئًا من اللغة العربية، ورغم أنه قضى 33 سنة في إسرائيل منذ هجرته سنة 1906 من بولندا إلى فلسطين، فهو لا يفقه شيئًا ـ على الإطلاق ـ من اللغة العربية أو الإذاعة العربية أو الصحافة العربية!

2- موظف إسرائيلي كبير يدلي بتصريح يقول فيه، وكان ذلك في إبريل «نيسان» سنة 1967، نصه:

«أعتقد أن الكيان القومي الإسرائيلي هو فوق كل اعتبار. ووجود أقلية عربية في إسرائيل يعرض مستقبل الدولة اليهودية للخطر، إن عاجلاً أو آجلاً، وللحيلولة دون هذا الخطر فإن كل شيء جائز شريطة ألا يحدث استنكارًا أو احتجاجًا دوليًّا، ويجب البحث عن طريقة مناسبة للتغطية وانتقاء الألفاظ والمصطلحات، وقد تدعو الضرورة إلى تجاهل الرأي العام العالمي. ويجب علينا تضييق خطوات العرب، وأخذ الأراضي منهم، وإذا أنهى عربي مدرسة ثانوية أو جامعة فلا يجوز إعطاؤه عملاً، ويجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات وأن يقع فريسة اليأس ويدرك ألا مكان له في هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر».

ومثل هذه النصوص كثيرة جدًّا، ومثيرة جدًّا، وهي تؤكد لنا أن فكرتنا التي نريد أن نحشرها في عقولنا عن إسرائيل ورغبتها في السلام هي فكرة وهمية، وأن إسرائيل الحقيقية هي كيان آخر غير الذي نظنه، والسبب هو أننا غرقنا في التفكير السياسي اليومي، ونسينا التاريخ والأفكار الأساسية التي يتكون منها عقل إسرائيل، وهذا كله ـ للأسف ـ لم يحدث فيه تغيير منذ «بن جوريون» إلى «باراك وشارون»! والتجاهل الفكري للمشكلة الإسرائيلية والاكتفاء بالجانب السياسي اليومي المرحلي المؤقت منها سوف يقودنا إلى مآسٍ كثيرة قادمة.

ومن المؤكد أن هذا النوع من التفكير السياسي الذي يقف عند هذا السطح الخارجي للأمور لن يحقق لنا أية نتيجة أو تقدم.. سوى إسالة دمائنا كلما أرادت إسرائيل أن تكسب وقتًا وتتسلى بنا.

في مسرحية «تاجر البندقية» شيكسبير يدافع عن القضية الفلسطينية!

لو أن الشاعر الإنجليزي العالمي شيكسبير (1564 ـ 1616)، كان يعيش في عصرنا الراهن، لما نجا من المحاكمة أمام القضاء الإنجليزي بتهمة «معاداة السامية»، وهي التهمة التي استطاع اليهود أن يجعلوا منها جريمة يعاقب عليها القانون في أوروبا وأميركا، وقد استطاع اليهود أن يفعلوا ذلك خلال القرن العشرين، أما قبل ذلك، فقد كانوا مكروهين في أوروبا بصورة ظاهرة. وقد انعكست كراهية الأوروبيين لليهود على الأدب الأوروبي، وكان شيكسبير من أكبر الذين عبروا عن هذه الكراهية، في مسرحيته الكوميدية الشهيرة «تاجر البندقية» التي ظهرت حوالي 1596، وقد أصبحت هذه المسرحية مشهورة في العالم كله، منذ ظهورها إلى اليوم، ولكن اليهود استطاعوا أن يفرضوا على هذه المسرحية نوعًا من الحصار، فابتعدت المسارح الأوروبية عن تقديمها، وحاول الكثيرون من الباحثين والدارسين لأدب شيكسبير أن يتجنبوا الحديث عنها، لما فيها من هجوم قوي وعنيف على الشخصية اليهودية، وما تمتلئ به هذه الشخصية من الأحقاد القاسية ضد الإنسانية كلها، ولذلك فإن اليهود يكرهون «شيكسبير» ولو استطاعوا أن يقوموا بمحو اسمه من التاريخ لفعلوا ذلك دون تردد. وجريمة شيكسبير عند اليهود هي مسرحيته الكاشفة لما فيهم من صفات قديمة راسخة حرمتهم من أن يكونوا محبين أو محبوبين.

ولو أعدنا قراءة هذه المسرحية الآن على ضوء ما يفعله الإسرائيليون بالفلسطينيين، لوجدناها تنطبق إلى حد كبير على الشخصية الإسرائيلية، بكل ما فيها من قسوة

وعدوانية ورغبة جنونية في التهام ما بقي من أرض فلسطين وخاصة «القدس الشرقية». وخلاصة المسرحية هي أن «أنطونيو» التاجر الإيطالي يستدين من المرابي اليهودي «شايلوك» ثلاثة آلاف قطعة ذهبية لتقديمها إلى صديقه «بسانيو» حتى يتمكن من الزواج من «بورشيا» الثرية الجميلة. ورغم أن اليهودي «شايلوك» قد جمع ثروته الطائلة أساسًا من «الربا» فإنه وافق على إقراض التاجر «أنطونيو» بما طلبه منه دون أية فائدة على شرط آخر بالغ الغرابة، هو أن يقوم بالتوقيع على عقد يتعهد فيه أن يرد المبلغ في موعد محدد فإن لم يدفعه في ذلك التاريخ المحدد كان من حق اليهودي «شايلوك» أن يقطع «رطلاً» كاملاً من لحم التاجر «أنطونيو» من أي مكان يختاره «شايلوك» من جسم «أنطونيو». ووافق «أنطونيو» على توقيع هذا العقد الغريب، ثقة منه بأن سفنه التي أبحرت للتجارة سوف تعود بربحها الوفير قبل المدة المحددة في العقد. ومن ناحية أخرى كان «أنطونيو» يظن أن العقد هو نوع من السخرية والهزل. وأن «شايلوك» لا يجرؤ على تنفيذ هذا العقد الغريب، إذا وقعت مصادفة سيئة غير منتظرة فعجز «أنطونيو» عن تسديد الدين في موعده.

ولكن المصادفة التعسة وقعت. وتأخر وصول سفن «أنطونيو» عن موعدها المنتظر، بل وصلت إشاعات قوية تقول إن هذه السفن قد تحطمت، وإن «أنطونيو» قد خسر كل ما يملك.

وهنا تقدم «شايلوك» إلى المحكمة طالبًا تنفيذ العقد بما فيه من نص على أن يقطع رطلاً من جسم «أنطونيو» من أي مكان يختاره في جسمه.

ويحاول القاضي أن يثني «شايلوك» عن تنفيذ العقد فيرفض تمامًا، ولأن القانون في صفه فإن القاضي وجد نفسه حائرًا جدًّا، إذ لا مفر أمامه من أن يصدر حكمًا بتنفيذ العقد بنصه، ولكن ضميره غير مستريح لهذا النوع من العقاب غير المعهود. وهنا تظهر الفتاة الجميلة الثرية «بورشيا» وتقوم بدور عجيب، وكانت «بورشيا» هي السبب الأصلي في هذه الورطة الكبيرة التي وقع فيها التاجر «أنطونيو»، فقد اقترض «أنطونيو» المال من

اليهودي «شايلوك» ووقع على العقد الذي ينص على قطع رطل من لحم جسمه، إذا لم يتم السداد في الوقت المحدد، وذلك كي يقدم «أنطونيو» المال الذي اقترضه إلى صديقه الحبيب «بسانيو» الذي يحب «بورشيا» ويريد أن يتزوجها، ويحب أن يظهر أمامها بالمظهر الذي يليق به وبحبيبته الجميلة، وكانت «بورشيا» تحب «بسانيو» وقد قررت الزواج منه. وهنا اندفع «أنطونيو» حبًا في صديقه ورغبة في إسعاده إلى الاقتراض من اليهودي بضمان سفنه التجارية، مع تعريض نفسه للتضحية بحياته إذا لم يتمكن من السداد؛ لأن قطع رطل من لحم جسمه لابد أن يؤدي إلى نزيف حاد ينتهي بموته. ولكن «أنطونيو» النبيل رضي بهذه التضحية إذ أصبحت ضرورية من أجل إسعاد الحبيب «بسانيو».

وقد عرفت «بورشيا» بالقصة وقررت أن تتصرف بحكمة وذكاء، ونواصل تلخيص أحداث المسرحية بعد ذلك اعتمادًا على كتاب «روائع شيكسبير»، وهو كتاب بديع ألفه الناقد الإنجليزي الكبير المبدع تشارلز لام «1775 ـ 1834» مع زوجته «ماري»، وفيه تلخيص مدهش وفي غاية العذوبة والسلاسة لكل أعمال شيكسبير، بحيث تبدو قراءة ملخصات الأعمال الشيكسبيرية في هذا الكتاب متعة تقترب من متعة قراءة النص الأصلي نفسه. وهنا نعتمد على تشارلز وماري في تلخيص بقية مسرحية «تاجر البندقية»، وبالتحديد في مشهد المحاكمة، التي كان القضاء فيها مضطرًا إلى الحكم بتنفيذ العقد بين اليهودي «شايلوك» والتاجر «أنطونيو» وهو العقد الذي ينص على أن يقطع اليهودي «رطلاً» من جسم التاجر النبيل لأنه لم يستطع أن يسدد الدين في موعده.

كان للفتاة الثرية الجميلة بورشيا قريب من رجال القانون المعروفين بصواب الرأي وسعة الحيلة والتجربة، فكتبت إلى ذلك السيد واسمه «بلاريو» تعرض عليه وقائع القضية، وتسأله عن رأيه، وتطلب منه أن يرسل إليها الزي الخاص الذي يرتديه المحامون في المحاكم. ولما عاد الرسول الذي بعثت به «بورشيا» إلى قريبها القانوني «بلاريو» كان هذا الرسول يحمل تقريرًا مفصلاً عن الخطوات التي يجب اتباعها للسير في هذه القضية إلى شاطئ النجاة، وحمل الرسول معه كل ما يلزم لمظهر

المحامي في المحكمة. وارتدت «بورشيا» ملابس الرجال، وكذلك ألبست وصيفتها «نيريسا» ثوب رجل، ثم وضعت فوق ملابسها الزي الرسمي للمحامين وألبست وصيفتها ثوب «كاتب المحامي»، وانطلقت على الفور فوصلت إلى مدينة «البندقية» في نفس اليوم المحدد لنظر القضية.

ثم بدأت هذه القضية الهامة ونادى الحاجب على المتهم والمدعي، فنظرت «بورشيا» حولها ورأت اليهودي الذي لا يعرف الرحمة، وكذلك رأت حبيبها وزوجها «بسانيو»، ولكن الزوج الحبيب لم يعرف حبيبته وهي متنكرة، وكان واقفًا إلى جانب «أنطونيو» وهو في حالة من الجزع والأسى والخوف على صديقه العزيز، وأدركت «بورشيا» خطورة المهمة التي ندبت نفسها لها، فبعث الشعور بجسامة المسئولية في تلك السيدة الرقيقة قوة وشجاعة. وبدأت كلامها بتوجيه الخطاب إلى اليهودي «شايلوك»، معترفة له أن من حقه بمقتضى قوانين البندقية أن يحصل على الجزاء المنصوص عليه في العقد، وهو اقتطاع رطل من جسم «أنطونيو»، ثم حدثته حديثا لينًا عذبًا عن فضيلة الرحمة السامية، بأسلوب كفيل بأن يذيب أي قلب، إلا قلب اليهودي «شايلوك» ويعتبر هذا النص عن مزايا الرحمة من أبلغ وأجمل النصوص في الآداب العالمية. قالت «بورشيا»: إن الرحمة تنزل كما ينزل المطر من السماوات على الأرض الموات فتحيا به، ويخرج من هذه الأرض كل نبات حسن. إن الرحمة من البركات المزدوجة، فهي بركة لمن يسدي بها وبركة لمن يتلقاها. إنها الفضيلة التي تزين الملوك خيرًا مما تزينهم التيجان؛ لأن الرحمة هي حيلة من عند الله، أما السلطة الدنيوية فلا تقترب من عرش الله إلا بمقدار ما يمتزج عدل أصحاب السلطة بالرحمة، فينبغي أيها السيد «شايلوك» أن تضع نصب عينيك أنه إن كنا نطلب الرحمة من الله الذي يملك أمرنا في يده، فلن يستجاب لنا إلا إذا رحمنا الذين نملك أمرهم في أيدينا. وأمام هذا الكلام الرقيق الذي تحدثت به «بورشيا» لم يتراجع اليهودي «شايلوك» عن إصراره على اقتضاء الجزاء المنصوص عليه في العقد، وهو اقتطاع رطل من لحم جسم «أنطونيو». وهنا تتجلى براعة «بورشيا»، حيث اتخذت موقف الحريص على مصلحة المجتمع العليا في نزاهة عن الهوى، قائلة بلهجة جادة: إن

القوانين متى أبرمها المجتمع يجب تنفيذها بحذافيرها في دقة كاملة. إن هذا العقد شرعي والجزاء فيه منصوص عليه فمن حق اليهودي بمقتضى القانون أن يطالب برطل من لحم «أنطونيو» من أي موضع يحدده من جسده، يقتطعه ولو من أقرب المواضع إلى قلبه. ثم التفتت «بورشيا» إلى اليهودي وقالت له: هذا حقك لا حيلة فيه ولا جدال عليه. لك أن تأخذه ما دمت مصممًا على ذلك. ولكن الرحمة فوق العدل، فأناشدك أن تأخذ مالك الذي قمت بإقراضه لأنطونيو وتسمح لي بتمزيق العقد، فقال اليهودي شايلوك، وقد اطمأن إلى حقه فازداد إصرارًا: أقسم بديني وما أعبد إنه لن تستطيع قوة على الأرض أو على لسان بشر أن تغير من عزمي على تنفيذ العقد. فتحولت «بورشيا» إلى أنطونيو وقالت له ببراءة وهدوء: «لم يعد هناك ما يقال يا أنطونيو، فعليك أن تعد صدرك لاستقبال السكين».

ثم تتواصل أحداث المسرحية، فقد طلبت «بورشيا» أن يأخذ «شايلوك»: رطل اللحم من جسم أنطونيو دون أن يريق قطرة من دمه. ولكن «شايلوك» قال: إن هذا ليس منصوصًا عليه في العقد. فقالت بورشيا: صحيح. ولكن يجب أن تصنع ذلك بدافع الرحمة، فقال «شايلوك»: لا أجد ذكرًا للرحمة في العقد، والعقد شريعة المتعاقدين.

وهنا أثارت «بورشيا» نقطة دقيقة فقالت: إن العقد وهو شريعة المتعاقدين ينص على اللحم، ولكنه لا يمنحك قطرة واحدة من الدم، وانظر إلى عقدك جيدًا فلن تجد فيه الرحمة، ولكنك لن تجد فيه أي ذكر للدم أيضًا وأنت تعلم حكم القانون في اليهودي الذي يريق نقطة من دم المسيحي بغير حق، فأراضيك وأموالك وكل ما تملك تصادر كلها نظير تلك النقطة الواحدة وتصبح ملكًا لدولة البندقية.. بنص القانون. ولما كان من المستحيل أن يقطع «شايلوك» رطلاً من لحم أنطونيو من غير أن يريق نقطة واحدة من دمه، فقد امتنعت عليه وسيلة التنفيذ، ونجا أنطونيو من المصير الرهيب.

ولم تسكت «بورشيا» ولكنها واصلت إلقاء سهامها القانونية النافذة فقالت: إن العقد شريعة المتعاقدين كما قال هذا اليهودي. فليس له حق إلا في الجزء المنصوص

عليه في العقد. فاستعد يا «شايلوك» لقطع اللحم، ولكن حذار أن تريق الدم. واعلم أن من حقك رطلاً واحدًا لا يزيد خردلة ولا ينقص شعرة، وإلا حق عليك الإعدام بنص القانون وتصادر كل أملاكك لصالح مجلس الشيوخ، ثم إن قوانين البندقية تقضي بوجوب مصادرة أموالك وثروتك لصالح الدولة لثبوت تآمرك على حياة واحد من رعاياها المسيحيين. فهيا اركع على ركبتيك، فحياتك الآن تحت رحمة سمو القاضي، وعليك أن تستلين قلبه بذكر مزايا فضيلة الرحمة، التي بالغت أمامه منذ حين في إنكارها والتنكر لها. وقال القاضي لشايلوك: كان القانون يجيز لنا إعدامك ومصادرة ثروتك . ولكنني أهبك حياتك، وأما ثروتك فإن نصفها حكمنا به لأنطونيو والنصف الآخر للدولة. وصرخ «شايلوك» من الصدمة قائلاً: لقد جئت شاكيًا فخرجت مفلسًا!

هذا هو الملخص العام لأهم أحداث مسرحية «تاجر البندقية». ونحن نستطيع أن نقرأ هذه المسرحية قراءة «فلسطينية» أي من وجهة نظر فلسطين المضطهدة أشد الاضطهاد من «شايلوك الجديد» وهو : إسرائيل. وهذه ليست قراءة مفتعلة أبدًا، وسنجد أن شيكسبير في هذه المسرحية كان كأنه يدافع دفاعًا قويًا عن فلسطين بالمبادئ العامة الأساسية التي عبر عنها في مسرحيته أعمق تعبير وأجمله.

فـ«شايلوك» في المسرحية يعتمد على قوة أمواله التي جمعها بالربا وامتصاص دماء الناس، وكذلك إسرائيل فإنها تعتمد على القوة الاستثنائية للمال اليهودي الذي يتحكم في «أعصاب» السياسة العالمية. وشايلوك لا يعرف ولا يعترف بفضيلة الرحمة التي هي فوق العدل في كل المقاييس الإنسانية، وكذلك إسرائيل.

وشايلوك يريد أن يقطع رطلاً من اللحم من جسم «أنطونيو»، وهذا ما تطلبه إسرائيل بالضبط من جسم فلسطين، فهي تريد أن تقتطع «القدس الشرقية» بمقدساتها من جسم فلسطين، رغم أن اقتطاع هذا الجزء يعني موت فلسطين وفقدانها لكل أسباب الحياة، ففلسطين من غير القدس الشرقية لاحياة لها ولا قدرة على البقاء. ولو أن في الدنيا أو في سياسة أقوياء العالم ضميرًا حيًا وقضاءً عادلاً لكان الحكم الوحيد على إسرائيل

مثل الحكم على شايلوك.. أي إدانتها بالتآمر على قتل جسم حي هو «فلسطين»، وإصدار حكم عليها بسبب هذه الجريمة الثابتة، يجردها مما تملك ومن شرعية «العقد» الذي تقيم عليه وجودها فوق الأرض.

وكثير من النصوص والحوارات التي وردت في مسرحية «تاجر البندقية» يمكننا أن نترجمها بسهولة شديدة إلى واقع فلسطين الآن. وهذه مقاطع مما ورد في المسرحية، والنص الذي أعتمد عليه هو من ترجمة الدكتور مختار الوكيل للمسرحية:

1- يقول أنطونيو عن شايلوك:

«إن في وسع هذا الشيطان ـ أي شايلوك أو إسرائيل فلا فرق ـ أن يستشهد بالكتاب المقدس «التوراة» تأييدًا لمآربه، وإن نفسًا شريرة تسرد الشواهد المقدسة الشبيهة بشرير له وجه يبتسم، أو كأن هذه النفس الشريرة تفاحة جميلة المنظر، ولكنها متعفنة في الصميم، وأحيانًا يكون الطلاء الخارجي للزور والبهتان جميلاً دون أن يغير ذلك من الحقيقة».

2 ـ جاء على لسان «بسانيو» حبيب «بورشيا» وزوجها في وصف «شايلوك»: «ما عرفت قط مخلوقًا على صورة إنسان له مثل هذه الرغبة الحادة الشرسة في إلحاق أفظع ضروب الأذى ببني الإنسان».

أليس هذا ما ينطبق على قادة إسرائيل المعروفين مثل «شارون» سفاح صبرا وشاتيلا، وعلى «باراك» الذي يفخر علنا بأنه قتل عددًا من العرب أكثر من أي عسكري آخر في إسرائيل والذي يواصل مذابحه الآن ضد الفلسطينيين؟!

3 ـ يقول أنطونيو لأحد أصدقائه: «أرجو أن تتذكر أنك تناقش اليهودي، وأن تعلم أنه لأسهل عليك أن تتوجه إلى الشاطئ لتأمر ماء المحيط أن يخفض من ارتفاعه، بل وأسهل عليك من مناقشة هذا اليهودي أن تسأل الذئب لماذا تسبب في بكاء النعجة بافتراس صغيرها، بل في مقدورك أيضًا أن تمنع أشجار الصنوبر الجبلية من تحريك أغصانها العارية فلا تحدث صوتًا إذا هبت عليها عواصف السماء.. إذا كان في

وسعك أن تفعل أي شيء مهما كانت صعوبته فإن في وسعك أن تلين قلب اليهودي الذي لا نظير له في قسوته».

ألا ينطبق هذا الكلام على طريقة اليهود في التفاوض مع الفلسطينيين لإرغامهم على الخضوع التام لإسرائيل وأهدافها الوحشية غير المشروعة؟

4- ثم هناك أخيرًا هذه الكلمات التي يقولها أحد أشخاص مسرحية «تاجر البندقية» عن اليهودي «شايلوك» ونستطيع جميعًا أن نقولها عن إسرائيل دون تغيير أو تعديل، هذا ما يقوله «جراتيانو» عن شايلوك:

«لعنك الله أيها الكلب الذي لا يلين، ولتكن حياتك سبة في جبين العدالة. إنك لتكاد تزعزع إيماني وتدفعني إلى اعتناق رأي الفيلسوف اليوناني «فيثاغورث» القائل بأن أرواح الحيوانات تتقمص أجسام البشر، ولا شك أن روحك الشريرة هي روح ذئب. فكل رغباتك (ذئبية) تجعلك ظامئا على الدوام للنهش والافتراس».

ذلك بعض ما جاء في مسرحية «تاجر البندقية» البديعة، وكأن شيكسبير فيها يتحدث منذ أكثر من أربعمائة سنة عما نعانيه من إسرائيل الآن.. فشيكسبير دون أن يدري كان يدافع عن فلسطين والفلسطينيين.

شاعرة تأكل لحوم البشر!!

منذ سنوات أصدرت الشاعرة الفلسطينية المعروفة «فدوى طوقان» كتابها «رحلة جبلية.. رحلة صعبة». وفي هذا الكتاب تروي قصة حياتها منذ طفولتها وحتى سنة 1967؛ عندما أصبحت مدينتها «نابلس» تحت الاحتلال الإسرائيلي. وكان كتاب فدوى طوقان من أجمل وأصدق الكتب التي عرفتها المكتبة العربية؛ لأنه كتاب من كتب المآسي المتعددة: مأساة المرأة التي تتعرض للقهر والضغط ويرفض المحيطون بها أن تكتب شعرًا عاطفيًّا. ويرفضون أن تلبس فستانًا جميلاً. ويرفضون أن يكون لها علاقة عن طريق الرسائل بالأدباء والشعراء وأهل الفكر. وهو كتاب يروي صفحات من مأساة الوطن الفلسطيني. وكيف كان الناس في هذا الوطن أعزاء وشامخين وأقوياء قبل قيام إسرائيل في 15 مايو سنة 1948. عندما انسحبت قوات الانتداب البريطاني التي كانت مسئولة عن الأرض الفلسطينية كأمانة في عنقها. وتركت هذه الأمانة لليهود. فاستولوا على الأرض التي ليست لهم وأقاموا فيها دولة مازالت قائمة إلى الآن بل إنها تمتد وتتسع كل يوم.

ثم أصدرت فدوى طوقان سنة 1993 الجزء الثاني من مذكراتها وجعلت عنوانه «الرحلة الأصعب» وفيه تروي تجاربها الأكثر مرارة وحزنًا، بعد أن أصبحت مدينتها «نابلس» واقعة تحت سيطرة الاحتلال الإسرائيلي منذ سنة 1967 إلى الآن.

ومذكرات «فدوى طوقان» في الجزأين من أجمل ما ظهر في الأدب العربي المعاصر. من حيث الصدق والأمانة وجمال التعبير ورشاقته وعذوبته،. وهذا الكتاب بجزأيه

جدير بأن يترجم إلى لغات العالم جميعًا. فهو شهادة صادقة في قيمتها الإنسانية وقيمتها الأدبية تكشف عما يعانيه المواطن العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة من آلام وألوان من العذاب ليس لها في تاريخ القهر الإنساني مثيل. حتى في أيام الرق والعبودية. وحتى في أيام «نيرون» و«كاليجولا» و«هتلر» وغيرهم من طغاة العالم الذين أذلوا البشر وكسروا رقاب الآدميين وجعلوا منهم أدنى من مرتبة الحيوانات.

وتتميز «فدوى طوقان» بالبساطة الشديدة في تعبيرها. فكلماتها تخاطب القلب الإنساني في كل مكان، وهي تعترف بأنها غير قادرة على العنف أو القتال أو خوض معارك كلامية أو عملية مع الآخرين حتى لو كانوا من أعدى الأعداء. إنها تميل إلى المسالمة،ولا ترفع صوتها في وجه أحد. وتلتمس أسباب الرفق وحسن المعاملة مع الجميع حتى لو اعتدوا عليها وأساءوا إليها. وترى في ذلك كله ـ في اعتراف صادق ـ نوعًا من الضعف في شخصيتها لا تستطيع التغلب عليه.

ولكن هذا الضعف الذي تعترف به فدوى يذوب ويتلاشى أمام صدقها في التعبير عن نفسها وعن الآخرين. وأمام رقة ملاحظتها ومحاولتها الأمينة لالتماس الجانب الإنساني في القلوب. حتى لو كانت هذه القلوب شرسة وقاسية ومليئة بالحقد والعدوان على الآخرين.

إن نفسية «فدوى طوقان» نفسية شفافة حساسة. لا تخفي شيئًا. ولا تدعي شيئًا، وهي تعتصم دائمًا بالصدق مهما كانت نتائجه. وقلمها موهوب موهبة طبيعية. فهو يطيعها طاعة كاملة، كأنه «موظف» مثالي عند قلبها. فكل ما يقوله القلب عند فدوى يكتبه القلم وينقله في رقة كاملة.

والحقيقة أن كتابها الجديد هو وثيقة إنسانية عالية القيمة. وهي وثيقة تفيض بالعاطفة والنبل. ولكن العقل فيها واع ويقظ. ولذلك فإن العاطفة لم تخلق في الكتاب «ضبابًا» حول الحقائق القاسية الأليمة. ولم تستطع هذه العاطفة أبدًا أن تضلل الشاعرة الأديبة في رؤيتها للأمور. وتمييزها بين الخطأ والصواب. والحق والباطل. فالرؤية عند فدوى طوقان في كتابها الجديد «الرحلة الأصعب» هي رؤية بالغة الوضوح والدقة والأمانة.

وسوف أتوقف عند قضية أساسية أثارتها فدوى طوقان في كتابها الجديد. وهي القضية التي أدت بالصحافة الإسرائيلية إلى أن تشن على فدوى حملة رهيبة ـ بكل معنى الكلمة ـ وأن تصفها بأنها شاعرة «تأكل لحوم البشر» على حد التعبير الذي استخدمته الصحافة الإسرائيلية المهذبة.

لماذا وصف الإسرائيليون فدوى طوقان بأنها من أكلة لحوم البشر؟! هذه الإنسانة الرقيقة والشاعرة المبدعة الكبيرة. كيف يقال لها أنت من «أكلة لحوم البشر»؟

إن هذا الاتهام يكشف لنا كيف أن الإسرائيليين لا يريدون من الإنسان العربي سوى شيء واحد، هو الاعتراف بحقهم التاريخي في الحياة فوق أرضنا. وفوق أجسادنا وفوق مزارعنا وأنهارنا. وأن نعترف بأننا الدخلاء وهم أصحاب الحق، وكل من يقول «آه» أو يصرخ في وجوههم «بيتي هنا». وآبائي وأجدادي كانوا هنا. ولا حق لكم في أن تهدموا البيوت التي هي لنا. أو تأكلوا الثمار التي زرعنا أشجارها. أو تستهلكوا آبارنا وأنهارنا. أو ترفعوا فوق مآذننا أعلام نجمتكم السداسية. لأن أعلامنا منذ آلاف السنين كانت هي أعلام الهلال ولا إله إلا الله. ومحمد ﷺ رسول الله. كل من يقول لهم كلامًا كهذا. فهو من أكلة لحوم البشر.

إنهم يفكرون بطريقة واحدة قاسية وقاطعة وحازمة ضد الإنسان العربي.

وقبل أن نتعرض للاتهام الذي وجهه الإسرائيليون إلى فدوى طوقان يكفي أن نقرأ بعض ما يقوله الإسرائيليون علنًا وبكل صراحة هي في حساب الحضارة والأخلاق وقاحة وعدوان.

إنهم يقولون «الدبابات وحدها سوف تأتي لنا بالسلام».

ويقولون على لسان إسرائيلي صهيوني متطرف اسمه الدكتور الداد شيب:

إن العرب ليسوا هنا ـ أي في فلسطين ـ من ناحية الماضي ومن ناحية المستقبل. إنهم مؤقتون هنا وفي شرق الأردن أيضًا. وبعد عشرين سنة أخرى. كان هذا الكلام حوالي سنة 1967 سوف يرحلون بالقوة أو من تلقاء أنفسهم. فكما أنه سيبقى قليل من اليهود في العالم. كذلك لن يبقى إلا القليل من العرب هنا.

وهذا هو كل شيء إن من يدعو إلى هجرة اليهود من المهاجر لكي يعودوا إلى صهيون. من حقه ومن المحتم عليه أن يدعو إلى رحيل العرب بجماهيرهم من أرض إسرائيل.

ويقولون على لسان امرأة إسرائيلية صهيونية تخاطب فدوى طوقان في وجهها: «لن ندعكم ترفعون رءوسكم أيها العرب. كل عشر سنوات لابد من ضربة نهوي بها على رءوسكم».

ويقولون على لسان.. مناحم بيجن: «لن يكون هناك سلام، وستستمر الحرب بيننا وبين العرب حتى لو وقعوا معنا على معاهدة صلح».

ويقولون على لسان شاعر إسرائيلي صهيوني متعصب هو «إفرايم تسيدون» في قصيدة منشورة له:

لو تخلى الفدائيون عن أسلحتهم وأرسلوا بطاقات التهنئة لكل بيت يهودي

حتى لو شاركتنا المنظمة في بناء المستوطنات للمهاجرين الجدد.. حتى لو أعلنوا أمام الملأ بأن الضفة الغربية هي أرض يهودية

حتى لو قامت «فتح» بنسج قبعات الصوف ليهود إسرائيل.. حتى لو استقبل أهالي الضفة جماعات «غوش أمونيم» بالأغاني والزغاريد

حتى لو اعترفوا بالدولة اليهودية

وقدموا لنا كل أموال التبرعات التي يتلقونها

وحتى لو نقلوا اللاجئين إلى القطب الشمالي

ورفعوا رايات الهزيمة أيامًا وليالي

وحتى لو تحولت سيوفهم إلى أقلام ومساطر

فلن نجالسهم أبدًا

ولن نحاور

ويقولون على لسان جابوتنسكي فيلسوف التعصب الصهيوني وزعيمه الأصلي.. إن شعارنا هو التجمع والاقتحام. والاستيطان والتوسع.

ويقولون على لسان بعض خرافاتهم «التوراتية».. المزيفة:

«علينا أن ندمر ونحرق وننهب ونحقق السيطرة. ونشعر بالتفوق والاصطفاء».

هذه هي أفكارهم ومشاعرهم الكامنة في عقول معظمهم ونفوسهم. وهذا نص آخر لشاعر من شعراء إسرائيل المعاصرين اسمه «ابشلوم كور» يقول فيه:

«لو كنت قائدًا لجيشنا

الأسطوري

جيشنا العظيم

لوقفت عند أبواب المدينة

المحاصرة المخنوقة

مدينة الفلسطينيين

لزرعت الموت والدمار

في كل المنازل والشوارع

في كل المساجد والكنائس

اليوم. في حملة سلامة الجليل

سنسفك دماء كثيرة

ونقتل الأطفال والنساء

والشيوخ».

ويقول الشاعر نفسه في قصيدة أخرى له. وحتى لا ننسى فإن اسمه «ابشلوم كور»:

في حديثي مع ابريت

توصلنا إلى نتيجة..

إننا يجب أن نقاتل

أن نقتل

كل الذين يبحثون عن وطن لهم

يجب أن نقتل حتى يكون لنا وطن

من النهر إلى النهر..

تلك هي أفكارهم وقصائدهم وآراؤهم التي ينشرونها على العالم كله. وينشرونها في الكتب المطبوعة. وعلى صفحات الصحف الإسرائيلية.

ومع ذلك فقد شنوا حملة عنيفة على فدوى طوقان لأنها بعد أن تعرضت للعذاب في ظل الاحتلال الإسرائيلي لمدينتها نابلس. وبعد أن هدموا بيت جارها الشيخ العجوز حمزة. كتبت قصيدة تقول فيها:

جوع حقدي

فاغر فاه. سوى أكبادهم لا يشبع الجوع الذي استوطن جلدي

آه: يا حقدي الرهيب المستثار قتلوا الحب بأعماقي.

أحالوا في عروقي الدم غسلينًا ونار

و.. الغسلين.. الذي تشير إليه فدوى طوقان كما جاء في لسان العرب للعلامة.. ابن منظور.. هو ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره. وكأن فدوى تقول إن ما أصابها من عذاب وأذى في ظل الاحتلال الإسرائيلي قد تحول إلى.. غسلين ونار. أي تحول إلى آلام لا تطاق.

وبسبب هذه القصيدة شنت الصحف الإسرائيلية على فدوى طوقان حملة عنيفة. واتهمتها بأنها شاعرة من أكلة لحوم البشر لأنها قالت في قصيدتها:

جوع حقدي

فاغر فاه.. سوى أكبادهم لا يشبع الجوع الذي استوطن جلدي.

فدوى طوقان.. ولماذا اتهموها بالوحشية؟!

بعد عام من الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة، أي في سنة 1968، تبنى «موشى ديان» وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الوقت، «نظرية الجسور المفتوحة» بين الضفة الغربية والضفة الشرقية، وتم تطبيق هذه النظرية عمليًا فأصبح من حق الفلسطينيين في الضفة الغربية أن يزوروا أهلهم في الضفة الشرقية أي في الأردن، بشرط أن يحصلوا على تصاريح مرور من قوات الاحتلال الإسرائيلية.

وتروي لنا «فدوى طوقان» في كتابها الجديد «الرحلة الأصعب» والذي صدر عام 93 ما حدث لها ولغيرها من الفلسطينيين بعد ذلك فتقول:

«لا. لن أنسى كم كانت لهفتنا شديدة للقاء الأهل والأحبة بعد انقطاعنا عنهم ويأسنا من إمكانية عودة التواصل، ناهيك عن إشفاقنا من الانقطاع عن بقية العالم العربي مثلما حدث للفلسطينيين المقيمين في فلسطين المحتلة بعد عام 1948».

«لم يكد يعلن السماح لنا بالحصول على تصاريح السفر وعبور الجسر إلى الضفة الشرقية حتى دفعت بنا اللهفة والشوق إلى التمسك بتلابيب الفرصة السانحة، راحت الألوف منا تتوجه نحو جسر «اللنبي». وكان الجسر الوحيد الصالح للعبور/ وذلك قبل إصلاح جسر «دامية» وفتحه أمام المسافرين».

وتواصل فدوى طوقان حديثها عن تلك التجربة القاسية، ومحاولتها الخروج من «نابلس» مدينتها التي كانت تقيم فيها منذ احتلال الضفة الغربية سنة 1967، وذلك من أجل زيارة بقية أهلها من «آل طوقان» المعروفين والمقيمين في الأردن.

تقول فدوى:

«الحشد البشري يتدفق ويتجمع هناك أمام شباك التصاريح في انتظار المعاملات الرسمية والحصول على الإذن بالعبور. الوضع يفتقر إلى النظام وإلى الترتيب للعملية الجديدة، الفوضى تنتشر والازدحام يرصنا بعضنا ببعض، الحشد الهائل يزحف باتجاه شباك التصاريح، الجنود يكبحون المسيرة بالعصي والعنف والشتائم، ويطوقون الحشد من هنا وهناك. تدنو الجموع الأمامية من الشباك. الجندي القابع خلف الشباك يصفقه ويغلقه في وجوه الناس الملهوفين، يرتفع صوت آخر بالشتائم والصراخ آمرًا الحشد بالتراجع والعودة إلى الوراء وعدم الاقتراب من الشباك جندي آخر يدفعني بقبضة يده دفعة شديدة، أوشك أن أهوي على الأرض. أحد المسافرين يسندني من الخلف براحتيه، الغضروف المنزلق في أسفل ظهري يلمع لمعة أوشك معها على الإغماء من شدة الألم.. شمس منتصف آب «أغسطس» تحرقنا بأشعتها الملتهبة وتحول منطقة «غور الأردن» إلى ما يشبه «الجحيم».

«أنظر إلى الوجوه المعذبة حولي، وجوه مغموسة بالعرق والهوان، يعتريني غم عظيم ويلفني حزن أعظم، يشتعل في داخلي الغضب الملتهب.. يستحضر ذهني مقطعًا من قصيدة للشاعر الصهيوني «مناحيم بيالك»، واسم القصيدة «أناشيد باركوخبا». و«باركوخبا» هو أحد رجال الحامية اليهودية التي حاصرها الرومان في قلعة «مسعدة» أو «مسادا»، يروون أن الحامية فضلت الانتحار على أن تقع أسيرة في يد الرومان خوفًا من الانتقام، حيث كان بعض اليهود قد ذبحوا عام 66 ميلادية الحامية الرومانية المتمركزة في القلعة. غير أن الرومان أعادوا السيطرة على قلعة «مسعدة» أو «مسادا» عام 72 ميلادية عندما تمكن الفيلق الروماني من هدم أسوارها وذبح من فيها من اليهود انتقامًا لمذبحة عام 66 ميلادية ويروي أن قائد الحامية اليهودية «اليعازر بن مائير» خشي هذا الانتقام فأجبر من معه على قتل نسائهم وأطفالهم ثم قتل أنفسهم بعد حرق ممتلكاتهم. على أن الباحثة اليهودية «ويبس روز مارين» تقول إن نتائج دراستها تؤكد أن «مسادا» محض خرافة وأسطورة وأنه يمكن التدليل على سلامة المكتشفات التي تستند إليها الباحثة اليهودية».

وتواصل شاعرتنا فدوى طوقان روايتها لما حدث لها وهي تقف أمام شباك التصاريح الإسرائيلية، لتحصل على تصريح يتيح لها الانتقال من نابلس في الضفة الغربية إلى عمان في الضفة الشرقية لكي تلتقي بأهلها هناك.

تقول فدوى:

«استحضرت في ذهني وأنا في تلك الحال الكئيبة من الحزن والشعور بالهوان والإذلال، مقطعًا من قصيدة الشاعر «مناحيم بيالك» عنوانها «أناشيد باركوخبا» وضعها الشاعر على لسان «باركوخبا» مخاطبًا بها العدو الروماني الذي كان يحاصر اليهود في قلعة «ماسادا»:

لقد جعلتمونا حيوانات مفترسة

وبقساوة وغضب

سوف نشرب دماءكم

ولا نرحمكم

إذا انتفض كل الشعب

وقام يقول: الانتقام!

بعد سبع ساعات من الانتظار القاتل والعذاب والتعب والغضب والقيظ اللافح، حملتني سيارة «تاكسي» مع ستة مسافرين آخرين لتعبر بنا جسر «اللنبي» إلى الضفة الشرقية».

«لم يتبادل المسافرون الأحاديث الأليفة والنوادر التي كثيرًا ما يتبادلونها حين يلتقون في سيارة مسافرة أو في حافلة ركاب. إن الأمور الكئيبة التي أخذت مجراها حول شباك التصاريح تركت كلامنا وحيدًا مع نفسه، ملقيًا على العالم الخارجي أمامه نظرات فيها من الحزن والألم وعلامات الإجهاد ما يعكس على مرايا الوجوه خضمًّا صاخب الأمواج لعالم باطني مضطرب في الأعماق».

«استراحت نفسي قليلاً إلى الجو الذي عرش فيه الصمت، وحمدت بيني وبين نفسي لرفاق السفر خلودهم إلى السكون وغياب كل منهم في عالمه الخاص.

الطريق ينطوي بسرعة كبيرة، ينطوي جزءًا فجزءًا خلف شباك السيارة على يميني، وأنا أنظر ولا أرى، فقد بدأت تعتريني تلك الحالة الغريبة التي تصاحب رغبتي في كتابة الشعر. حين وصلت بيت شقيقتي «حنان» في عمان كانت قصيدتي «آهات أمام شباك التصاريح» قد بدأت تتخذ في ذهني شكلاً هلاميًا غير واضح المعالم، استحوذ على عقلي الباطن لعدة أيام في نومي وفي يقظتي، إلى أن استوى في الأخير قصيدة متكاملة التكوين».

وليأذن لي القارئ الكريم هنا أن أسجل نص قصيدة فدوى طوقان، بعد أن عرفنا الجو الذي ولدت فيه هذه القصيدة، والتجربة الإنسانية المرة التي كانت سببًا في ميلاد القصيدة، وقراءة القصيدة مرتبطة بتجربتها الإنسانية تجعل القصيدة أكثر قوة ووضوحًا وتأثيرًا في النفس، وما أكثر ما تضيع منا تجارب شعرية مهمة لأننا لا نعرف «الخلفية» التي نشأت فيها هذه التجربة الشعرية، ولا نعرف الينابيع الإنسانية التي منها خرجت هذه التجربة، والقراءة الحقيقية والكاملة للشعر ينبغي أن تلتفت إلى ما وراء «النص الشعري» مادام هذا الالتفات قادرًا على إضاءة النص ومضاعفة قيمته الفنية وتأثيره في النفس.

وهذا هو نص قصيدة «آهات أمام شباك التصاريح» بعد أن عرفنا ظروفها والأجواء والتجارب التي أدت إلى تفجيرها وانطلاقها إلى الحياة.

تقول فدوى في قصيدتها:

وقفتي بالجسر أستجدي العبور

آه! أستجدي العبور

اختناقي، نفسي المقطوع محمول على وهج الظهيرة

سبع ساعات انتظار

ما الذي قص جناح الوقت؟

من كسح أقدام الظهيرة

يجلد القيظ جبيني

عرقي يسقط ملحًا في جفوني

آه، آلاف العيون

علقتها اللهفة الحرى مرايا ألم

فوق شباك التصاريح،

عناوين انتظار واصطبار

آه، نستجدي العبور

ويدوي صوت جندي هجين:

(عرب... فوضى.. كلاب

ارجعوا لا تقربوا الحاجز

عودوا ياكلاب!).

ويد تصفق شباك التصاريح

تسد الدرب في وجه الزحام

آه، إنسانيتي تنزف،

قلبي يقطر المر

دمي سم ونار

«عرب.. فوضى.. كلاب»

آه! وامعتصماه

آه يا ثار العشيرة

كل ما أملكه اليوم انتظار

ما الذي قص جناح الوقت؟!

من كسح أقدام الظهيرة؟!

يجلد القيظ جبيني

عرقي يسقط ملحًا في جفوني

آه جرحي!

مرغ الجلاد جرحي في الرغام

ليت للبراق عينًا

آه يا ذل الإسار

حنظلا صرت، مذاقي قاتل،

حقدي رهيب

موغل حتى القرار

صخرة قلبي وكبريت وفوارة

نار

جوع حقدي

فاغر فاه، سوى أكبادهم لا يشبع الجوع الذي استوطن

جلدي

آه! ياحقدي الرهيب المستثار

قتلوا الحب بأعماقي، أحالوا

في عروقي الدم غسلينًا ونار

تلك هي قصيدة فدوى طوقان المعبرة عن تجربتها المريرة أمام شباك التصاريح. فماذا حدث بعد نشر هذه القصيدة؟

نعود إلى مذكرات فدوى «الرحلة الأصعب» حيث تروي لنا ماحدث برقة فتقول:

«انتشر خبر القصيدة في إسرائيل، وأصبحت قصيدة سيئة السمعة إلى حد بعيد، تلقيت بعد ذلك رسائل بلا توقيع وكلها تتضمن معنى التهديد، بينها رسالة من السيدة «تكفا أغاسي» يهودية من إسرائيل ـ تطفح السخرية بي والتهكم على أصلي وفصلي وعائلتي ذات الدم الأزرق على حد تعبيرها، هذه الرسالة المثقلة بإيراد أحداث تاريخية قديمة ونزاعات عربية، ناهيك عن تركيزها على كوني من سلالة «هند بن عتبة» امرأة «أبي سفيان» وأم «معاوية بن أبي سفيان» «لائكة الأكباد». إلى أن تقول: فبخ بخ لم تعيبي أصلك.. إلخ. هذه الرسالة قالت صاحبتها عن نفسها إنها ربة منزل، غير أن أخًا عربيًّا يعيش في إسرائيل أكد لي أن رسالة كهذه لم يكتبها إلا ذلك الأستاذ العراقي «اليهودي، المتخصص في التاريخ في إحدى جامعات إسرائيل وهو معروف بشدة كراهيته للعرب».

«ولعل أكبر نكتة تتصل بالقصيدة رديئة السمعة هي كما قيل لي: «إن بعض اليهود حين كان يدخل مطعمًا في إسرائيل كان يطلب قائمة فدوى طوقان «يعني صحن كبدة». وقد جاءني بعض الصحفيين اليهود يسألونني عن بواعث هذه «الهمجية» و«الوحشية» في قصيدتي فأجبتهم أنني في الحقيقة استعرت هذا المعنى من قصيدة لشاعرهم القومي الصهيوني «مناحيم بيالك» عنوانها «أناشيد باركو خبا» حين قال «بيالك» على لسان «باركوخبا» المحاصر في قلعة «مسادا» مخاطبًا الرومان:

هذا ليس بشيء سوى أنكم

مرات عديدة أوجعتمونا

وحولتمونا إلى حيوانات مفترسة

وبغضب وحشي سوف نشرب

دماءكم بدون رحمة

حين يقوم كل الشعب ويطلب الانتقام

وهذا المقطع من قصيدة «بيالك» هو نفسه المقطع الذي قدمته فدوى في الجزء السابق من مذكراتها، ولكن ترجمته هنا من الإنجليزية ترجمة مختلفة.

ولعل فدوى طوقان كانت تريد بإشارتها إلى الشاعر اليهودي «بيالك» وموقفه من الرومان، أن تجد لغة مناسبة لمخاطبة اليهود الذين اتهموها بالوحشية، واعتبروا قصيدتها دليلاً على أنها «من أكلة لحوم البشر». فهل كان لهذا الدليل الذي قدمته فدوى طوقان من نصوص الشاعر اليهودي تأثير على الإسرائيليين الذين هاجموها واتهموها بالوحشية؟

شارون ونيرون

في سنة 1974 التقى الصحفي الإنجليزي «إريك مارسدن» المحرر بجريدة «صنداي تايمز» بشارون، وبعد اللقاء قال الصحفي الإنجليزي: «إنني كنت أسترجع وأنا أستمع إلى شارون صدى ما كان يقوله هتلر في العشرينيات...»، وكان معنى كلام الصحفي الإنجليزي أن هتلر في العشرينات كان يسعى للوصول إلى مركز السلطة الأولى في ألمانيا، وكان يهيئ نفسه لذلك ويتحدث إلى الناس على أنه الوحيد القادر على إنقاذ ألمانيا من أزمتها، وقد وصل هتلر بالفعل إلى السلطة سنة 1933 وقاد ألمانيا إلى الهلاك والدمار وانتهى أمره إلى الانتحار عندما وصلت الدبابات الروسية إلى باب المقر الذي يقيم فيه، وكان انتحار هتلر في 30 إبريل سنة 1945.

وهكذا كان هتلر في العشرينيات من القرن الماضي يحلم بأن يكون الرجل الأول في ألمانيا، وقد تحقق له ذلك، ولكنه لم يحمل إلى بلاده «الخلاص»، وإنما حمل إليها العذاب الأليم.

وفي سنة 1974، وبشهادة الصحفي الإنجليزي كان «شارون» يتحدث بنفس اللغة، أي أنه كان يريد أن يكون الرجل الأول في إسرائيل لأنه في نظر نفسه هو وحده القادر على حماية إسرائيل وإنقاذها مما تعانيه.

وقد وصل شارون إلى ما يريد، وأصبح في فبراير من سنة 2001 هو الرجل الأول في إسرائيل، ولو كان في إسرائيل شاعر منافق لقال له مثلما قال منافق عربي قديم عن أحد الخلفاء:

أتـــــه الــرئـــاســـة مـــنـــقـــادة

إلــــيـــه تجرجـــر أذيـــالـــهـــا

فـــلـــم تك تصـــلـــح إلا لــــه

ولم يك يصـــلـــح إلا لـــهـــا

ولا شك أن «شارون» وجد من المنافقين من يقولون له ذلك وأكثر من ذلك.

على أننا ينبغي أن نضبط عواطفنا، ونتحكم في أحزاننا، ونبحث بقدر كبير من الموضوعية عن حقيقة شخصية «شارون» وآرائه وأفكاره، حتى نكون على علم صحيح بهذا «العدو الوحشي» الذي ابتلانا الله به.. الآن.

وقد بحثت كثيرًا في تاريخ شارون وآرائه، وصبرت طويلاً على هذا البحث، فليس بالقليل أن تسهر الليالي في دراسة شخصية كريهة خالية من أي جمال إنساني أو أي عنصر مضيء من عناصر الحضارة والأخلاق والثقافة النبيلة.. وخرجت من سهر الليالي في البحث حول «شارون» وشخصيته وأفكاره بأنه في جوهره صورة جديدة من طغاة التاريخ المعروفين، وقد بدا لي أنه صورة أخرى من «نيرون» الإمبراطور الروماني الذي حكم روما من سنة 54 إلى سنة 68 ميلادية.. وقد ارتكب «نيرون» في فترة حكمه كثيرًا من الأعمال الوحشية العجيبة التي يحتار العقل في فهمها أو تفسيرها، ومن ذلك أنه قتل أمه وزوجته وكثيرًا من الأدباء والفلاسفة اللامعين في عصره ومنهم أستاذه ومعلمه الفيلسوف «سينكا» ثم يقال إنه أحرق مدينة «روما» نفسها سنة 64 ميلادية من أجل فكرة مجنونة دارت في رأسه، وهي أن يبني المدينة من جديد على هواه وذوقه الخاص، لأن المدينة القديمة لم تكن تعجبه، وبذلك كله أصبح نيرون نموذجًا تاريخيًا للطغيان والوحشية الدموية، وانتهى الأمر بانقلاب جيشه عليه ومقتله أو انتحاره سنة 68 ميلادية.

وعندما نقارن وحشية «نيرون» بما هو معروف وثابت عن مذابح شارون وجرائمه في قرية «قبية» سنة 1953 وفي مخيمات «صابرا وشاتيلا» سنة 1982 نستطيع أن نقول بضمير مستريح إنه لا فرق بين «نيرون» و«شارون»!

لقد وصل عنف «شارون» وتعصبه إلى الحد الذي أخاف منه بعض زعماء إسرائيل أنفسهم، فقد قال عنه «بيجن»: «إنني لا أستبعد أن يقوم شارون بمحاصرة رئاسة الوزراء بالمصفحات بهدف قلب نظام الحكم وتسليم السلطة للعسكريين تحت قيادته».

وقال عنه «عيزرا وايزمان» رئيس دولة إسرائيل السابق: «إن شارون عبقري في الحرب وجاهل في السياسة». وقالت عنه جريدة «هاآرتس» الإسرائيلية: «إن من يعرف شارون يدرك أنه غير جدير بأي ثقة»، ويقول عنه أحد زملائه في حزب «الليكود»: «من الصعب إن لم يكن من المستحيل التعاون مع شارون، إذ إنه عنيد وصلب الرأي وأناني ولا يثق في أي شخص ويحيط نفسه بكل من يقول له آمين».

ومع ذلك كله فقد قادت الأحداث السياسية داخل إسرائيل «شارون» إلى المقدمة، ودفعته إلى أن يصبح الرجل الأول من الدولة الصهيونية الآن.

ويعتمد شارون في تحديد مكانته داخل إسرائيل على بعض المواقف المعروفة في تاريخه العسكري، وأهمها أنه كان قائدًا للقوات الإسرائيلية التي استطاعت أن تصل إلى الضفة الغربية في قناة السويس خلال حرب 1973 فيما يعرف باسم «الثغرة» وذلك بعد الانتصار الساحق الذي حققه الجيش المصري في الأيام الأولى لهذه الحرب، وعندما اضطر شارون إلى الانسحاب من «الثغرة» بعد اتفاقية «فض الاشتباك» الأولى سنة 1974 كان «شارون» غاضبًا على حكومته أشد الغضب، وقال تعليقًا على هذا الانسحاب: «لقد انتصر الجيش الإسرائيلي وانهزمت الحكومة»، وقال أيضًا: «إنه لولا تردد الحكومة الإسرائيلية لكنت قضيت على الجيشين الثاني والثالث في مصر نهائيًّا».

وكلمات شارون هذه مليئة بالأكاذيب، فمن الثابت عند معظم المحللين العسكريين أن قوات إسرائيل في «الثغرة» كان بإمكان الجيش المصري تدميرها والقضاء عليها تمامًا،

لولا أن الرئيس الراحل أنور السادات آثر أن يحل هذه المشكلة بالمفاوضة والسياسة، تحسبًا منه ـ فيما يبدو ـ لتدخل عسكري أمريكي يمكن أن يحدث إذا ما نجح المصريون في تدمير القوات الإسرائيلية الموجودة في «الثغرة».

وبعد حرب 1973 أصبح شارون وزيرًا للزراعة ورئيسًا للجنة الاستعمار اليهودي في الأراضي المحتلة، وشارون هو أول من بدأ في إقامة المستعمرات.

نشاط واسع في الضفة الغربية وغزة وسيناء والجولان، وهو الذي رسم سياسة الاستعمار الإسرائيلي التي يتم تطبيقها حتى الآن، والتي أخذت أبعادًا جديدة وخطيرة مع السماح بهجرة نحو مليون يهودي سوفيتي إلى إسرائيل سنة 1989 تقريبًا، ومن بين هؤلاء المهاجرين السوفيت إلى إسرائيل «ليبرمان» الوزير الحالي في وزارة شارون، والذي يتطاول بين الحين والحين على مصر والرئيس مبارك، ويهدد بتدمير السد العالي.

وشارون يعلن في كل المناسبات إيمانه «بإسرائيل الكبرى» وهو يفسر قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة عام 1947 والذي كان ينص على إقامة دولة للعرب ودولة لليهود تفسيرًا خاصًا بشارون وحده، وهو تفسير لم يقل به أحد غيره، فهو يرى أن القرار كان يعني أن تقوم الدولة اليهودية غرب نهر الأردن، بينما تقوم الدولة العربية شرق نهر الأردن، ويقول شارون حول هذا المعنى: «لابد أن يكون لليهود دولة، وأن يكون للفلسطينيين دولة» والدولة الفلسطينية هي الأردن وعاصمتها عمان، أما الدولة اليهودية، فهي إسرائيل وعاصمتها القدس.

ومن هنا فإن شارون يرى ضرورة اعتبار الضفة الغربية جزءًا لا يتجزأ من أرض إسرائيل، وأن على العرب أن يرحلوا إلى الأردن ويقيموا دولتهم هناك، وهذا هو الذي يدفع شارون إلى تبني سياسة المستعمرات الإسرائيلية والحماس الشديد لها والعمل الدائم على التوسع فيها.

وشارون غير مقتنع بجدوى أي سلام مع العرب، فقد استقال من الحكومة الإسرائيلية في أوائل سنة 1990 وقال إن سبب استقالته هو «تفكير الحكومة الإسرائيلية

في إجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية» وهذا النوع من التفكير هو من وجهة نظر شارون «جريمة في حق إسرائيل».

وشارون له موقف خاص من «مصر»، وهو موقف يجب أن ننتبه إليه، نحن المصريين، حكومة وشعبًا، فهو يرى أن «معاهدة السلام» مع مصر مؤقتة ولا يمكن أن تستمر، وحول هذه المعاهدة يقول: «إن السلام مع مصر ليس أبديًا، وإذا استمر هذا السلام عشر سنوات فسوف يكون ذلك إنجازا، وإذا استمر عشرين سنة، فسوف يكون إنجازاً هائلاً، أما إذا استمر السلام بين مصر وإسرائيل ثلاثين سنة فسوف يكون ذلك حلمًا».

وهذا الكلام العجيب يدل على معتقدات شارون الأساسية ومنها أن السلام بين مصر وإسرائيل لا يمكن أن يستمر، ولابد لإسرائيل أن تعد نفسها لحروب قادمة مع العرب، وفي مقدمتهم مصر، فلا مكان للتعايش السلمي مع العرب عند هذا المتعصب الصهيوني المتعطش للدم والعنف.

ويحدد شارون المواقف التي سوف تبرر «الحرب الشاملة» بين العرب وإسرائيل في المستقبل، ويرى أن الحرب سوف تشتعل إذا قامت دولة عربية بالاستعداد لإنتاج أي سلاح نووي، فعلى إسرائيل أن تضرب على الفور تلك الدولة العربية التي يمكن أن ترتكب مثل هذه الجريمة، فالسلاح النووي ممنوع تمامًا من وجهة نظر شارون، وأي نشاط نووي عربي هو مبرر «فوري» لإعلان الحرب من جانب إسرائيل، أما الحالة الثانية التي تبرر الحرب الشاملة من وجهة نظر شارون، فهي قيام حشود عسكرية على أي جبهة عربية محيطة بإسرائيل، والحالة الثالثة التي تبرر الحرب هي أن تخرق أي دولة عربية الاتفاقيات المعروفة مثل اتفاقية السلام مع مصر، وخرق هذه الاتفاقية هو أن تقوم مصر بزيادة قواتها في سيناء على الحد المتفق عليه.

وفي تاريخ شارون «نقطة حمراء» فاقعة جدًا، فقد كان شارون هو قائد الغزو الإسرائيلي ضد لبنان سنة 1982، وبعد أن وصلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت الغربية، وبالتحديد في 16 سبتمبر سنة 1982 وقعت مذابح «صابرا وشاتيلا» المعروفة،

والتي راح ضحيتها حسب التقارير الموثوق بها نحو «ألفين» من الفلسطينيين في عمل من أحط أعمال الوحشية والغدر التي عرفها التاريخ، وقد استعان شارون ببعض «الميليشيات» اللبنانية المتعاونة مع إسرائيل مثل ميليشيات «جيش لبنان الجنوبي» بقيادة «أنطوان لحد» في ذلك الوقت، وقامت هذه الميليشيات بتنفيذ المذبحة الرهيبة بتحريض وتخطيط من شارون، وتحت حماية القوات الإسرائيلية التي كان يقودها، وعندما خرجت أنباء المذبحة إلى شتى أنحاء العالم، لم يستطع الإسرائيليون أنفسهم تحمل مسئولية ما حدث فيها، فاضطرت الحكومة الإسرائيلية إلى إخراج «شارون» من وزارة الدفاع إلى وزارة أخرى، وكأن هذا الإجراء كان كافيًا لأن تغسل حكومة إسرائيل يديها من تلك الجريمة التاريخية التي لن ينساها ضمير الإنسان.

وقد أصدرت الحكومة الإسرائيلية قرارًا بتكوين لجنة قضائية للتحقيق في مسئولية «شارون» عن مذبحة «صابرا وشاتيلا» وهي اللجنة المعروفة باسم لجنة «كاهان» وقد أدانت هذه اللجنة «شارون» إدانة خفيفة، فقالت إنه كان يعلم بأمر المذبحة، ولم يقم بمنعها، وكان ذلك في حدود سلطته، ولكن اللجنة لم تتهمه بتنفيذ المذبحة بنفسه أو بقواته العسكرية، وكانت هذه الإدانة «المحدودة» من لجنة «كاهان» هي السبب في فقدان «شارون» لموقعه كوزير للدفاع، ولكن معظم صحف العالم هاجمت شارون بسبب هذه المذبحة، واعتبرته المسئول الأول عنها، ومن بين هذه الصحف مجلة «تايم» الأمريكية، وقد قام شارون برفع قضية ضد مجلة «تايم» بسبب اتهامها الصريح له بمسئوليته عن المذبحة، وقد نظر القضاء الأمريكي هذه القضية التي طالب فيها شارون بتعويض قدره خمسون مليون دولار، لأن مجلة «تايم» قد شهرت به ونشرت أنباء كاذبة عنه وتعمدت الإساءة إليه كما قال شارون في «دعواه القضائية».

ولكن القضاء الأمريكي أصدر قراره بتبرئة مجلة «تايم» من أي نية سيئة في هذا المجال، ولم يستطع شارون أن يحصل على دولار واحد من الملايين الخمسين من الدولارات التي كان يطالب بها كتعويض له عما اعتبره إساءة إليه، وكان حكم المحكمة الأمريكية بتبرئة مجلة «تايم» كأنه يقول لشارون:

اسكت ..... أحسن لك!

وقد سكت شارون بعد صدور هذا الحكم ولم ينطق بكلمة واحدة.

إن الذهن «الدموي» لشارون لا يفكر إلا في الحرب والعنف، وهذا الذهن الدموي لا يرى خريطة للمنطقة إلا في صورة واحدة، هي الصورة التي تضم إسرائيل الكبرى القائمة على كل أرض فلسطين بما فيها الضفة الغربية وغزة، وأما العرب في هذه الخريطة فهم العرب المقهورون الذين يتصرفون في كل خطوة من خطواتهم حسب ما تمليه مصالح إسرائيل الكبرى، فإسرائيل عند شارون هي القوة الوحيدة التي ينبغي أن تسيطر على الشرق الأوسط بأكمله، وكل القوى الأخرى ينبغي أن تكون خاضعة وتابعة، ويدعو شارون إلى العمل المستمر على صيانة قوة إسرائيل وإضعاف قوة العرب حتى لو أدى الأمر إلى التدخل في الأوضاع الداخلية للأقطار العربية المختلفة، وإيجاد حالة من عدم الاستقرار فيها، والنموذج المثالي للأقطار العربية عند شارون هو نموذج لبنان في أثناء الحرب الأهلية فيه «1975 ـ 1990» فشارون يرى أن الحالة «اللبنانية» في حربها الأهلية هي الحالة التي ينبغي أن تسود كل أقطار العرب الأخرى، فإسرائيل تستفيد من هذه الأوضاع العربية المتفجرة، وعليها أن «تغذيها» وتمدها بالسلاح والمعونات المختلفة، ومن بين هذه الأوضاع وضع الحرب الأهلية في جنوب السودان، فهذا الوضع السوداني المتفجر يجب ـ عند شارون ـ أن يلقى المساعدة والتشجيع والعون من جانب إسرائيل.

وآخر ما قرأته من تصريحات شارون هو مجموعة من آرائه التي قالها بعد أن أصبح رئيسًا للوزراء ونشرتها جريدة «هيرالد تربيون» الأمريكية في 3 مايو 2001، ومن بين هذه الآراء قول «شارون»: «إن القدس هي عاصمة للشعب اليهودي، منذ عهد الملك داود، أي منذ 3004 سنوات على وجه التحديد. والقدس هي بمثابة القلب بالنسبة للشعب اليهودي، ولذلك فلا يحق لأي إسرائيلي أن يتخلى عنها أو يتقاسمها مع غيره، كما أن القدس لا تخص فقط إسرائيل بل تخص يهود العالم كله، وقد ورد ذكر القدس في التوراة 676 مرة، وهذا يؤكد أنها هي روح الشعب اليهودي».

ومن تصريحات «شارون» أيضًا قوله: «إنه في غضون عشر سنوات أو أكثر قليلاً سوف ينخفض سعر البترول، وتعاني الدول العربية أزمة بينما تتمتع إسرائيل بالرخاء والازدهار، وفي ذلك الحين سوف تغدو إسرائيل دولة ذات اقتصاد قوي، أما العالم العربي فسوف يعاني التدهور، فالوقت في مصلحة إسرائيل ولابد أن ننتفع به».

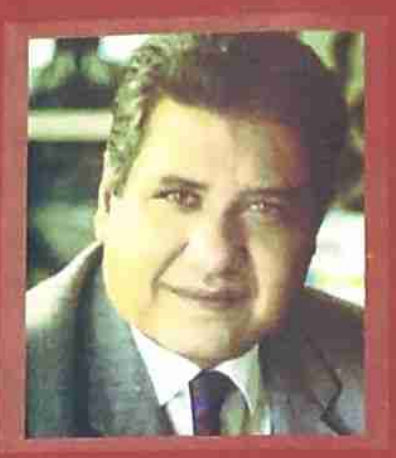
هذا هو شارون، وهذا بعض تاريخه وهذه بعض آرائه، إنه «نيرون» العصر الحديث، ومثل هذا الرجل لا يمكننا أن نتوقع أي سلام على يديه، فشخصيته وأفكاره ونياته كلها عدوانية إلى أبعد الحدود، وهو لا يعترف بشيء إلا بالقوة التي تملكها إسرائيل، وهو على استعداد لاستخدامها إلى أبعد حد، وليس لنا أن ننتظر من «نيرون» الجديد هذا أي خير من أي نوع، فلابد أن تعمل القوى الكبرى في العالم كله للتخلص من «شارون» وإبعاده عن مواقع القرار والقيادة، كما تخلص العالم من «ميلوسوفيتش» في يوجوسلافيا، وإلا فلن يتحقق على يد شارون سوى الطوفان والكارثة، ولن تكون إسرائيل من الناجين مما سوف يقع على يد «نيرون الجديد» الذي في تل أبيب.

فهرس

أحدث إصدارات

رجاء النقاش

- ثلاث نساء من مصر.
- الموت في قميص النوم.
- هل تنتحر اللغة العربية؟



الموت في قميص النوم

أوراق فلسطينية في السياسة والأدب والفن

يستعرض هذا الكتابُ جزءًا من التاريخ الفلسطيني المعاصر والنكبة العربية، ويتطرَّق إلى قصص مهمة من حياة وكفاح وإبداع شخصيات فلسطينية عظيمة مثل فدوى طوقان ومحمود درويش وأبي سلمى وفيصل الحسيني وسميح القاسم وعز الدين القسَّام وغيرهم في مجالات مختلفة.

ويناقش الكتاب أحداثًا وقضايا ومفاهيم من واقع الصراع ضد إسرائيل والصهيونية.

هذا الكتاب هو مجموعة مقالات كتبها الناقد الكبير الأستاذ رجاء النقاش بأسلوب سلس وممتع وبجهد وصدق وثقافة ملِمَّة بأدق عناصر وخفايا الموضوعات المطروحة.

وأعدتها للنشر، في كتابٍ يصدر لأول مرة، السيدة د. هانية عمر، قرينة الراحل الكبير رجاء النقاش، بتفانٍ وإخلاص.

ويسعد دار نهضة مصر أن تقدم هذا الكتاب للقارئ الكريم.

الناشر



